عمار أوزقان



طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

الجهاد الأفضل

كلمة حق عند سلطان جائر

الأكاديمية الجزائرية الوثائق و المصادر التاريخية

دار القصبة للنشر

الجهاد الأفضل



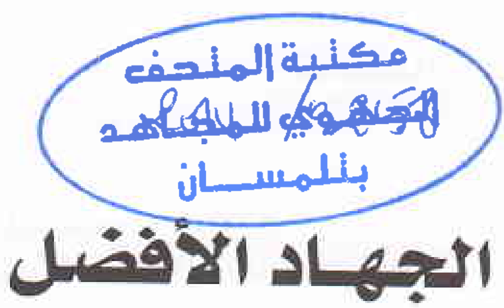
العنوان الأصلي :

Le meilleur combat

الأكاديمية الجزائرية للوثائق و المصادر التاريخية.







الجهاد الأفضل

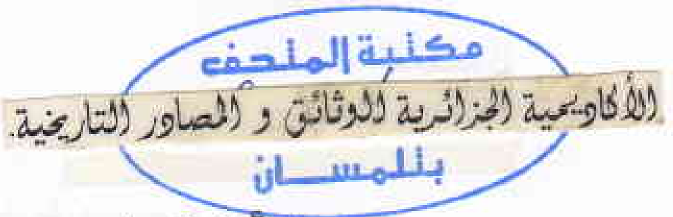
كلمة حق عند سلطان جائر

تعريب : ميشال سطوف
سهيلة بينوشو
علي عراب

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الخمسين لاندلاع
الثورة التحريرية المباركة

دار القصبة للنشر
فيلا 6، حي سعيد حمدين – حيدرة – 16012 الجزائر

عمار أوزقان





الجهاد الأفضل

كلمة حق عند سلطان جائر

تعريب : ميشال سطوف
سهيلة بينوشو
علي عراب

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الخمسين لاندلاع
الثورة التحريرية المباركة

دار القصبة للنشر
فيلا 6، حي سعيد حمدين – حيدرة – 16012 الجزائر

تدمك : 9961-64-531-6
الإيداع القانوني : 1140 – 2005

المقدمة

حديث نبوي شريف
رواه أبو داود عن الترميذي عن إبن ماجة.

- أبي لم لا نتنكر لنصبح أشرافا ؟

- من السهل يا بنيّ أن نصنع لأنفسنا لقب نبيل أصيل، بتزييف شجرة عائلتنا، لكن قبل هذا علينا أن ننتظر موت الناس الذين يعرفوننا، [فالموتى لا تروي قصصا] إن هذا القول المأثور ورد في كتاب الحكم المغاربية، وهو يتبادر إلى أذهاننا حالما نطّلع على مقتطفات من المقال الذي نشرته مجلة «الشيوعي» بموسكو، في شهر نوفمبر سنة 1960 بقلم السكرتير الأول للحزب الشيوعي الجزائري.

ولأن الكثير من مناضلي جبهة التحرير الوطني، يدرك تمامًا البراعة التي يتمتع بها مراسل المجلة السوفياتية، فلقد كانت خيبة أملنا عميقة. ولما بلغنا نشر نصّه الدعائي الذي نشر ببراغ أو ببرلين فلم يكن إهتمامنا به يتعدّى ما نعيره لحيوان تسكن جسمه العقابيل...

غير أن هذا الأدب ذاته، يكتسي لمعانا براقا ومصطنعا نتيجة للنّور الخاطف، الذي تسلطه عليه « الشيوعي »، وهي المجلة النظرية للحزب الشيوعي السوفياتي.

إن الناطق الرسمي للحزب الشيوعي السيوفياتي، لايملك «منبرًا حرًا» يسمح له بالتهرب من أية مسؤولية، عند الضرورة، إذ أن مجلة الشيوعي ذات طابع سياسي وإيديولوجي، وليس من المعتاد أن تُدلى بها الإثباتات هباءً أو صدفة، وبنشرها المقال المشار إليه عن الثورة الجزائرية، تجعل من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، عرابة [مسؤولة أخلاقيا] عن الإنتقادات الموجهة لجبهة التحرير الوطني، وللحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، ولجيش التحرير الوطني.



المقدمة

حديث نبوي شريف
رواه أبو داود عن الترميذي عن إبن ماجة.

. أبي لم لا نتنكر لنصبح أشرافا ؟

. من السهل يا بنيّ أن نصنع لأنفسنا لقب نبيل أصيل، بتزييف شجرة عائلتنا، لكن قبل هذا علينا أن ننتظر موت الناس الذين يعرفوننا، [فالموتى لا تروي قصصا] إن هذا القول المأثور ورد في كتاب الحكم المغاربية، وهو يتبادر إلى أذهاننا حالما نطّلع على مقتطفات من المقال الذي نشرته مجلة «الشيوعي» بموسكو، في شهر نوفمبر سنة 1960 بقلم السكرتير الأول للحزب الشيوعي الجزائري.

ولأن الكثير من مناضلي جبهة التحرير الوطني، يدرك تمامًا البراعة التي يتمتع بها مراسل المجلة السوفياتية، فلقد كانت خيبة أملنا عميقة. ولما بلغنا نشر نصّه الدعائي الذي نشر ببراغ أو ببرلين فلم يكن إهتمامنا به يتعدّى ما نعيره لحيوان تسكن جسمه العقابيل...

غير أن هذا الأدب ذاته، يكتسي لمعانا براقا ومصطنعا نتيجة للنّور الخاطف، الذي تسلطه عليه « الشيوعي »، وهي المجلة النظرية للحزب الشيوعي السوفياتي.

إن الناطق الرسمي للحزب الشيوعي السيوفياتي، لايملك «منبرًا حرًا» يسمح له بالتهرب من أية مسؤولية، عند الضرورة، إذ أن مجلة الشيوعي ذات طابع سياسي وإيديولوجي، وليس من المعتاد أن تُدلى بها الإثباتات هباءً أو صدفة، وبنشرها المقال المشار إليه عن الثورة الجزائرية، تجعل من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، عرابة [مسؤولة أخلاقيا] عن الإنتقادات الموجهة لجبهة التحرير الوطني، وللحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، ولجيش التحرير الوطني.

وإن كان يشرفنا بدءًا أن نرى الجزائر تحتل مكانة في مصاف الأمم العظمى على كل الجبهات والمستويات، ولا سيما على مستوى إيديولوجية ماركس ولينين، حتى وإن كان المقابل أن نتلقى هجمات أقلام ظالمة، فليس أمام جبهة التحرير الوطني اليوم خيارًا، سوى أن تقبل الدعوة غير المباشرة للدخول في جدال حميمي مع اللجنة المركزية السوفياتية.

فجزائريو جبهة التحرير الوطني الذين أظهروا إبّان المقاومة المسلحة حزمًا جديرًا بأنبل كفاحات الشعوب في سبيل حريتهم الوطنية، بغض النظر عن أيّ قياس، هم أيضا قادرون على إثبات أنهم أهل لخيال سياسي خلّاق، من جهة أخرى، لا تقف غايتنا عند تفنيد ما جاء في مقال صحفي نشر بموسكو وباللغة الروسية، لأننا نودّ أن نسلك إلى التعريف بالثورة الجزائرية، وتطورها، وما قد أرتُجل خلالها، ثم نجاحاتها وتطلعاتها ... نريد أن نبيّن كيف نجحت جبهة التحرير الوطني وبمرتبة الشرف في أداء مهمتها التاريخية التي تجسدت في كونها القوة المحرّكة لحرب التحرير الوطنية.

نحن نصبوا إذن إلى عمل بنّاء ومستديم، وسوف يمنحنا الجدال الكلامي الذريعة حتى نفيد شباب الجزائر والمغرب العربي وإفريقيا وآسيا وغيرها، بهذه المجالات الفكرية الكفيلة أن تلقنهم درسًا يعلمّهم كيف يحسّنوا من خدمتهم لقضايا الشعوب، وتصورّهم المثالي للحريّة وللديمقراطية وللعدالة الإجتماعية.

ترى كيف ستكون منهجيتنا ؟

سوف تكون بداية نقيضة لتلك التي انتهجتها المجلة النظرية للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، فنحن لن نقوم أبدًا بجرد لقائمة مبادئ الحرب التحريرية وإستراتيجيتها، ولا لتخطيطها للثورة البورجوازية الديمقراطية، فتلك معارف من السهل أن نجدها في الكتب الكلاسيكية لستالين ولينين وما وتسي تونغ.

أما الإفادة التي سنأتي بها ليست موجودة في أي مكان آخر، إذ سنثبت - في الجزائر - كيف إنقلب علم ثوريّ إلى وسيلة فعالة وناجعة، تحركها أياد بارعة، هذا يعني أننا سنشرح مرة وإثنتين وثلاث، بعد تجسيد كل فكرة بمثال أو بأمثلة ملموسة من الحياة ومن العمل ومن التجربة التاريخية.

وعوض الرّد على إدعاءات باطلة بإثباتات قطعية، فسوف نشير إلى الأخطاء بأن نهدي إلى الطريق السّليم، و إن واجهتنا أكاذيب فسنبرهن على بطلانها في

الواقع، كما سنسهر على إعادة الحدث الذي أُخذ بمعزل عن سياقه التاريخي، إلى إطاره وزمانه الأصليين، عن طريق تبيين قيمه المتعددة، أو علاقته بأحداث أخرى داخلية كانت أم عالمية.

فلن نسلّم بالإنتقادات السّلبية ذات الجهة الواحدة كما لو كانت نصوصًا قرآنية، وفي السّياق نفسه سنطمح إلى عزل كل إنتماء إلى المادية التاريخية عن علم الكلام أو ما يدعى أيضا بالعربية «علم الجمل» إشارة إلى الفكر العقائدي.

وحتى يتسنى لنا هذا، سوف نصبّ في غربال النقّد الدّقيق الجرش المشبوه للحزب الشيوعي الجزائري.

سنقوم بهذا متوخين العناية الفائقة نفسها التي كانت تعيرها الجزائريات عندما كن يغربلن البارود الأسود لتنقيته من الشوائب، لصالح مسبلي المقاومة الشعبية لسنة 1871، كما كنّ يقمن بغربلة الكسكس الأبيض لجنود جيش التحرير الوطني من 1954 وإلى غاية 1962 بالدّقة ذاتها.

ولن يكون التهكمّ الذي سيبرز في لغتنا البيانية والهجائية خبيثا أو خسيسا، بل نريده أن يترجم عواطف واقعية تواصلية، ولديها القدرة على الإقناع.

وكم نتفهم الآن إنفعال م. خروتشيف خلال إجتماع اللجنة المركزية المتعلق بالفلاحة، حيث ضرب عرض الحائط كلّ الحجج المناخية، والتقنيات الهادفة إلى تبرير أخطاء التكهنات الإحصائية. إن هذا الموقف يذكرنا بحكمة فلاح جرجرة حيث كان يحبط من تفاؤل جيرانه المبهورين أمام ثراء غلته قائلاً« لن أصدّق بأن هذا قمح ما لم يتحوّل إلى خبز ».

كذلك يذكرنا بمهاجمة السكرتير السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي: «الإطارات العاجزة، هؤلاء الفاشلون عديمو المسؤولية الذين خدعوا الشعب بلؤمهم أوبهدف إكتساب عرفان ما ... أولئك البيروقراطيون الذين يغشون ويتصرفون في الواقع كأعداء الإشتراكية »، إن هذه الصرامة تعكس في الحقيقة الإحساس السّاخط والمشروع لثائر شريف يعي تمامًا مسؤوليته.

وليس هدفنا عندما نصف السكرتير العام السياسي للحزب الشيوعي الجزائري بالبهلوان، الذي يطمح لأن يكون عزرائيل ملك الموت أن نهين أيّا كان، إنما نريد أن نشدّد على الموقف السخيف لمراسل معتمد من طرف المجلة الرسمية للحزب الشيوعي السوفياتي.

وإذ آخذ البعض جون جاك روسو على اهتمامه المبالغ فيه لرواية سخيفة، رواها مُشَعْوذ على مَسمع مجموعة مغفلين حين ردّ عليهم قائلاً : « لا تهمني القصة قدرما تهمني الطريقة التي قُصّت بها ».

ويمتلكنا إحساس بأننا نواجه الوضعية نفسها، غير أنه ثمة مفارقة أليمة، فالمدّاح في روايتنا لا يجتمع حوله جمهور سوق ما يقوم بتسليته، فقد تسلق المنبر الموسكوفي، منبر أساتذة الماركسية، الذين كان لهم الفضل في تأسيس الإشتراكية وتحدّوا السماء.

وأمّا أولئك الذين ظلوّا يشككون في أهلية جبهة التحرير الوطني طوال سبع سنين، فليعلموا بأننا قد قبلنا التحدي، ولسوف تجري المنازلة على ميدانهم.

وإذ يبقى إنشغالنا منصبا على الفعالية التي ترسم خطى النقد، فإننا سنضطر إلى تغيير وجهة سلاح هذا النقد من الإدارة الخرقاء للحزب الشيوعي الجزائري، إلى الحكومة الإستعمارية ـ الفرنسية.

ويكتب ماوتسي تونغ يوما قائلاً : «إن كنّا ندرس الماركسية فليس هذا لجمال أدبها، ولا لكونها تمتلك سحرًا قادرًا على طرد الشيطان، فالماركسية ليست جميلة ولا ساحرة، هي مفيدة فسحب».

وعوض أن تكون دراستنا تأويلاً موجزًا لنصوص ما أو تهجما، سنأتي بأحداث تنويرية وبأمثلة تاريخية.

سوف نجتهد من أجل سدّ الفجوة التي وردت في النص الذي نشرته مجلة «الشيوعي». وإن كانت غير متعمدة، إلاّ أنه تسنى لها أن تخدع يقظة إدارة تلك المجلة، فكيف لم تقف عند إنعدام النقد الذّاتي لدى الإدارة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري.

ونحن من جهتنا سنفسر نيابة عنه الدّوافع التي أدّت إلى الوقوع في خطأ « الجمود »، وهو خطأ وذنب لا يغتفر لحزب ينسب نفسه لمنهج لينين.

كما سنحلّل أمثلة جديدة لنكشف عن الأسباب المباشرة وغير المباشرة لعجز الحزب الشيوعي الجزائري، وخلال عملنا هذا سنقوم باقتطاف أزهار فريدة لنوع من الفنتازيا التاريخية للفكر الإجتماعي بالجزائر.

وسيكون أوّل مثل لهذه الزهور، تلك الزهرة الهجينة النتنة والسّامة للمعاشرة الشاذة، والمتناقضة لإدارة الحزب الشيوعي الجزائري، والمكتب الخامس

السيكولوجي، حيث يدّعي كلاهما الانتماء إلى النسق الإيديولوجي نفسه، بينما يناضل كل منهما في سبيل مصالحه الخاصّة ولأجل أهداف متضاربة، ويجتمعان في منافستهما عديمة الجدوى لهيمنة جبهة التحرير الوطني على الثورة، وإمتلاكها معظم القلوب بين أوساط الشعب الجزائري.

ولكن ثمة أزهار أخرى رائعة ... كالإنتلجنسيا الجزائرية المجاهدة، تلك القوة التي رأت الوجود بين أضلاع جبهة التحرير الوطني، وقام الجهاد - في سبيل تحرير الوطن - بصقلها.

ولقد منحت هذه الإنتلجنسيا نفسها الحق والترف في زج الحزب الشيوعي الجزائري والكولون في بوتقة الفشل في آن واحد، وعلى مرآى من الجموع التي بات وجودها ضروريًا ... وهي أيضا التي ألحقت هزيمة إيديولوجية وسياسية بالحزب الشيوعي الجزائري يسارًا وبالمستعمر يمينًا.

فلقد أخفق المنافس والعدوّ في دراسة إستيعاب فلسفة الثورة الشعبية، كما أخفقا في تطبيقها.

ولكي يسهل بلوغنا هدف البرهنة الذي نحن بصدده، سنحاول إلقاء الضوء على الوضعية قبل ثورة 1954 ... وحينئذ سنفهم كيف تمكن يوسف من أن يصبح ملكًا بعد أن باعه إخوته، بل علينا أن نعلم كيف نجح سيدنا يوسف في بلوغ سطح الأرض وقد أُلقي به في قاع البئر.

ـ بناء على ما تقدم نتناول دراستنا هذه بتقسيمها إلى قسمين نحاول في كلّ منهما الإجابة عن التساؤلات التالية :

1 ـ هل كانت الثورة الجزائرية ستحقّق النّصر دون إيديولوجية تحرريّة وطنية ؟

2 ـ وهل قدم مقال «الشيوعي» إسهامًا لفائدة النّصر الحاسم الذي حققه الشعب الجزائري ؟

3- وهل كانت الإدارة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري قادرة على أن تلعب دورًا أساسيًا في نهوض الفلاحين ضد الإمبريالية ؟

وفي النهاية سنحاول أن نبين كيف أن نضالنا المتواصل فسح المجال أمام الوطنية الثورية لتصبح دولة عصرية داخل حدود وطن ديمقراطي.

الباب الأول

الإيديولوجيا الوطنية الثورية

الفصل الأول

الحركة الإصلاحية

لسنا من الذين يعطون دروساً لمجلة رسمية ناطقة باسم الحزب الشيوعي السوفياتي، وخاصة إذا كانت المسألة تتعلق بالشروط التي يجب توفرها لقيادة حرب تحررية ووطنية في مستعمرة فرنسية تختلف كل الاختلاف عن الهند الصينية أو غينيا. الاختلاف جذري سواء تتعلق بالشروط الموضوعية أو الذاتية.

إذ كانت هنالك أمور أخرى عدا المقاومة المسلحة للمجاهدين، وكان لابد من شنّ كفاح مرير وحتى الموت ضد العدو المستعمر، بما له من مدافع وأسطول بحري وقوى جوية، دون انتظار تدخل مدافع وأسطول وقوى جوية أخرى، تابعة لقوة ما معادية أو منافسة لفرنسا ...

كان يجب الكفاح ضد جهازه السياسي والإداري والإقتصادي للإستعمار في الوقت الذي نحارب إيديولوجيته المستبدة التي تجسدت على أرض الواقع في البورجوازية الإستعمارية المتمثلة ملاّك الكروم، والكولون وملاّك المناجم والبنوك والنقل البحري... إلخ. وكانت إيديولوجية الذي كانوا يساندونه بطريقة غير مباشرة، تشكل جهة كفاح أخرى هي أرسطوقراطية طبقة العمال الأوروبيين، والقياد والباشاغات الشديدي الشبه بالإقطاعيين، فهم أشبه بالجراد القائم على طرفيه إذ كانوا موظفين وسادة وأئمة وملاّك كبار للأراضي في الوقت نفسه.

الحقيقة أن العدوّ لم يكن مجرّد قوة صلبة كالجبل الذي يصمد أمام قنبلة ذرية. فهذه القوة المادية كانت تعززها قوة معنوية وقدرة على تنويم العقول. وقد جسد المارشال لَيُوتِر هذا بخطابه الموجه للضباط المكلفين بالشؤون المسلحة «إستظهر قوّتك فلن تحتاج لإستخدامها».

كانت القوة الفعلية للمستعمر تكمن في عقدة العجز عند ضحاياه، مثله مثل الثعبان الذي يبهر بنظره العصفور ويشلّه على الغصن الذي هو عليه، فينسى الطائر أن يطير ويقع من ذاته أسفل الشجرة أمام الثعبان ... فكيف نقنع هذا العصفور بقدرته على التفوق على الثعبان، وبأنه يكفي أن يعرف نقاط قوته ليتغلب على الخوف الذي يشلّه وينسيه أنّ لديه أجنحة ؟

إن كان هذا حال العصفور، فكيف نقنع إذن الشعب الجزائري بأنه قادر على تحرير نفسه بنفسه من الإستعباد الإستعماري، كيف يثق بقوّته، ويشنّ كفاحًا ثوريًا يستلهمه من تاريخ فيتنام ومصر وماليزيا وأندونيسيا ... وكانت تبدو إمكانية إشعال بريق الأمل في كلتا الحالتين وهمًا يناقض كل القوانين المعروفة لطبيعة الطيور والبشر.

ما نود أن نقوله للشعب الجزائري هو « ثق بنفسك وبقوّتك » وشُنّ لوحدك كفاحك دون ترقب تدخل خارجي، سواء كان سياسيا أو مسلحا أوحتى دبلوماسيا، ولكن تجب مساعدته حتى يدير ظهره للأحزاب الهرمة، والمنظمات الفاشلة ويكفي أن يستند إلى تجربته الخاصة.

ونجحت جبهة التحرير الوطني في إعطاء الضربة القاضية سياسيا وإيديولوجيا لكل قوة كانت تشل أفراد الشعب الجزائري :

أولا - إيديولوجية الوطنية الرّجعية : المرابطون والطرقيون

دينيا : نشر الإسلام المشبع بالبدع والذي يسيطر فيه التعصب والعقيدة والورع إلى جانب التأمل والإيمان بالقضاء والقدر والشعوذة.

. سياسيًا : الإنصياع وتقبّل الهزيمة وتفوق المستعمر طبقا لإرادة الله فكلّ شيء قضاء وقدر.

. أمّا إقتصاديا، فقد كانت خلفية هذه الإيديولوجية هي إمتلاك الأراضي الواسعة، أين يتمّ إستغلال كل من الخمّاسين وهم المزارعون الذين لا يمتلكون قطعة أرض فيعملون لقاء خمس من الغلّة، وكذا الفلاحين الفقراء.

وبهذا فقد خلق المستعمر طبقة كبار ملاّك الأراضي، بل وفضّلهم ومنحهم الإمتيازات بإستفادتهم من هبات كالوظيفة والقيّاد والمرابطين، أو عن طريق إجبارهم على إرتكاب جرائم كالسرقة والنّهب.

فلقد كان هدفه أن يحيط نفسه بجماعة مستقرة إقتصاديا وسياسيًا، فيستغل نفوذها الإداري والدّيني، ليبسط سيطرته على الفلاحين المتواضعين، أو الفقراء، وعلى الشعب الجزائري عامّة.

لكن إيديولوجية المرابطين كانت تلعب دورًا آخر، هو العمل على إبقاء الفارق بين الرّيف والمدن التي كانت متطورة دينيا وسياسيا، وأين كان يوجد وعي بالطبقية الإجتماعية والحسّ الوطنيّ.

وإبتعدت جبهة التحرير الوطني عن الخطر الطّائفي، بتفاديها لكلّ تعميم من شأنه خلق رغبة في محاربة الإكليروسية أو الكهنوتية السّوقية. فثمّة ظواهر دائمة التواجد سواء كانت طوائف دينية متسقّة، أو مجتمعات سريّة يشترط في أعضائها أن يمتزج لديهم الإيمان بالحقد على الإدارة الإستعمارية.

هنالك أمرا تجهله "الحرية" الجريدة الأسبوعية للحزب الشيوعي الجزائري، لكننا لم ننس أنّ زوايانا لم تكن دائمًا مثلما نراها اليوم تجمعات للدّراويش، والعيساوة الذين يلاعبون الثعابين، أو مجرّد صنّاع حروز، تقي حامليها من الحسد والبؤس والمرض والضعف والعقم ...

إن هذه الزوايا كانت في السابق تجمعات دينية وعسكرية، كالمرابطين الذين أسّسوا إمبراطوبية المرابطين، أو رابطة فرسان الهيكل [الدّاوية]، أو أيضا الفرسان التُّوتُونيُّون [سكان جرمانيا الشمالية]، في مواقفهم تجاه المسيحيّة والإقطاع الأروبي.

ولنتذكر المقاومة التي واجهت الإجتياح الفرنسي لبلادنا عام 1830، حيث كان إخواننا الجنود مثلهم مثل الرّهبان الجنود، أوّل من لبىّ نداء الأمير عبد القادر وتطوّع للموت محاولين في ذلك حماية الوطن والعقيدة.

بعد سبعة عشر عامًا من الكفاح بدت الهزيمة العسكرية، وتمّ إسقاط النظام القبلي، وسطو المستعمر على الأراضي، والإضطهاد والرّشوة، والبؤس والجوع، وإنتصار «الرّومي» الكافر الغريب الطّاغي كلعنة من السّماء ... ثم نفي فارس الإيمان إلى فرنسا وبعدها إلى سوريا. وهكذا فقدت الثقة تمامًا وبدأ إنتظارُ المهديّ، يد الله التي ستصنع المعجزة وترشد الشعب إلى الطريق السّليم.

ثانيا - إيديولوجية الإصلاح الوطني

ولقد اتصفت هذه الأخيرة بإرادتها في السير نحو الإستقلال بخطوات حذرة حيث انتهجت السياسة المسالمة غير العنيفة، وكأنّ الأمر يتعلق بترويض جواد

أصيل. وتعددت الأشكال والطرق، فالإستغلال يأتي تارة عن طريق التعليم، وتارة أخرى عن طريق التجارة أو التقنية، أو إسترجاع الأراضي أوالعصرنة أو تعليم البنات، أو بفضل إزالة الحجاب، ودعت هذه الإيديولوجية إلى العمل البرلماني، والعمل النقابي، وقراءة الفاتحة والصّلاة لمناشدة اللّعنة الإلهية، أوالأناشيد وكذا الأغاني الوطنية، فيكون اللّسان وسيلة أخرى ولكن أيّ لسان يكفي لتحقيق الإستقلال.

إن تفضيل هذه الوسائل السّلمية يعود إلى أنّ العمل الثوري والثورة المسلّحة لعبة نار خطيرة تحرق دومًا السّحرة المتربصين بالحلّ، هو إذًا التحلّي بالصّبر حتى مجيء الحليف الأجنبيّ الذي سيحطّم الإستعمار بإستعمال أسلحة متكافئة.

وهكذا عممت الإيديولوجية الإصلاحية سياسة التسويف إلى أن يحضر المحرّر الذي ظهر بأوجه متتالية، فهو سيدّنا سلطان أسطمبول، ثم الحاج قيّوم الثاني، والغازي أتاترك، ويوسف وستالين فهتلر الأعظم وروزفلت ...

ثالثا - إيديولوجيّة الإستسلام : الحزب الشيوعي الجزائري، والحركة الوطنية الجزائرية (MNA)

إن هذا الموقف المتذبذب كان يقود إلى زرع الشّك في يقين النّصر، و في قدرة جبهة التحرير الوطني على تفادي خطر المغامرة، وبما أنّ حسن التخطيط كان حكرًا على الإثنين، فكلّ محاولة - مبادرة - مستقلّة عنهما محكوم عليها بالفشل، فالثورة فنّ لا يتقنه إلاّ الأعضاء ... وهنا يدق ناقوس الخطر في وجه كلّ من يتجرأ على لمس ما ليس له دون ترخيص مسبق ... !

وحتى لا تصير الثورة مجرّد مغامرة دامية قصيرة العمر، أي عمليّة إنتحارية تتسبب في إندلاعها كمشة من الجسورين الذين أفسدهم الفيروس الفوضويّ للأقليّة الفاعلة، وحتى لا تكون الثورة فنتازيا عابقة برائحة البارود، كما في سينما الوزراء السواح، ولكن أين يكون الخطر حقيقي والمحصلة الإجتماعية مشؤومة.

وسوف يكشف الفحص الدقيق لسياسة الحزب الشيوعي الجزائري، بأن هذا الموقف كان النتيجة المنطقية لنظرية ضبابية غير واضحة، أين كانت تندمج اللينينية مع الإجتماع الإستعماري، والإنتهازية الجبانة والطائفية ضد الحسّ الوطنيّ ... أضف إلى كلّ هذا التسويفيّة، والنزعة في الإسراع لقطع المراحل، وتخوّف الشعب والعزلة السياسية، ثمّ حالة الإستعداد المزمنة في سبيل إنتفاضة شعبية تُحمد خاتمتها.

رابعا - إيديولوجية المصالية المضادة للثورة

إن الحركة الوطنية الجزائرية (MNA) التي تأسست غداة إنشقاق الحركة من أجل إنتصار الحريات الديمقراطية، والتي وجدت نفسها أمام ضخامة الثورة المسلحة المندلعة في الفاتح من نوفمبر 1954، إنقلبت سريعا من موقف الحذر إلى موقف العداء الخاسيء ثم إلى عداء معلن عنه. هكذا تدهورت إيديولوجية الإستسلام إلى إيديولوجية الثورة المضادة.

وبدأ إذًا وجه الخيانة يرتسم مع المساعدة غير المباشرة لصالح عدوّ الأمة الجزائرية، والتي تجسّدت في صورة إلهاءات ذات طابع حقير أو عنصريّ، كابتزاز التجار اليهود، ومقاطعة بني مزاب من التجار الجزائريين، وكذا حملات تبغيضية ضد جبهة التحرير الوطنية، حيث قيل عنها مثلاً أنها تسير من قبل البربر فقط ... وإن كان بعض الوطنيين قد إعتبروا هذه الخيانة مجرّد مصارعة بين «إخوة أعداء» يكافح كل منهما على حدة، ولكنهما يشتركان في العدوّ المستعمر، فإنّها قد أضحت اليوم في أعين كلّ الجزائريين خيانة علنية ومقصودة، إثر عمليات التقتيل المتكررة التي تعرّض لها مجاهدو جبهة التحرير الوطني، الذين كانوا قد نجحوا في النجاة من مطاردات البوليس الإستعماري، وبعد أن وصل الأمر إلى حدٍّ إشتراكهم مع الجيش الفرنسي في تشكيل مقاومة مزيّفة « رمي معاكس » وتوجيه طعنات في ظهر جيش التحرير الوطني مثل قضية بلونيس.

ولقد تأكّد تقديرنا للمصالية على أنها آخر ورقة في يد الحكومة الفرنسية بعد إعتراف [وبوح] الحاكم العام سُوتَالْ للأستاذ ماسنيُون.

وعلى ضوء التجربة، فقد إكتشفنا بفضل التحليل الذي قمنا به خلال قاعدة العمل لجبهة التحرير الوطني خلال مؤتمر الصومام العشرين من أوت 1956، بأنّنا كنا على حقّ، إذ تمّ شنّ هجوم إيديولوجي وسياسي وعضوي بلا هوادة ضد الحركة الوطنية الجزائرية، باتت تضمّ أعداء الشعب الجزائري.

ومثلما إستفادت الحركة مع غي مولي – لاكوست (Guy Mollet- Lacost)، فهي اليوم تستفيد أيضا في ظل نظام دوغول (De Gaulle) من الدّعاية الصّاخبة نفسها في الإذاعة والصّحف.

وعندما يقترح البوليس السياسي الفرنسي إجراء حوارات على رئيس الحركة، فإنه يردّد حرفيّا مصطلحات قسم علم النفس لجيش الإستعمار، كانقسام الحكومة المؤقتة

للجمهورية الجزائرية، والمائدة المستديرة، والتأثير المبالغ فيه للحركة الوطنية الجزائرية بُعبُع [فَزّاعةَ] الحزب الشيوعي الجزائري ... ولقد كتبت جريدة «باريس الصّحافة» في الثالث من فيفري 1961 بأنّ شعارات مثل «الأرض للفلاحين» فإن الشيوعية ستضايق كلّ الذين يودّون الوصول إلى تفاهم مع الفرنسيين».

ياله من تدهور مازوشي وغير معقول لثوري مضادّ، مشعوذ سكير، والذي كان يتظاهر بقذف النّار، نصّب نفسه مدافعا عن حقوق كبار الكولون من خطر الإصلاح الزراعي الذي نادى به المجاهدون، وقد إعتبروه جزءً من الكفاح في سبيل الإستقلال.

وليس هناك مجال للشك، فحياة بولحية المقيم في شانتي (Chantilly) لا تزال ثمينة بأعين الحكومة الفرنسية التي تسهر على حمايته بفرنسا بالذات، بتسخير ثلاثين من الجنود المرتزقة، والدّرك وأعضاء الحراسة المقرّبة.

ولأنّ المناورة الأخيرة لـ bao-daisation التي سبقت قرار الشعب الجزائري في تقرير مصيره، باتت فظة حقا فإن جريدة العالم (Le monde) قد كتبت في الرابع من فيفري 1961 لتنصح « بعدم إشراكه في اللّعبة قبل الأوان ... ». لم يعد القائد الديماغوجي والزعيم السّابق سوى Glaoui ڤلاوي (بهلوان) دون إسم ولا شرف ولا مغفرة ... ولنذكر كلام الله « ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّا يره » سورة الزلزال آية 8/7.

لقد رأت جبهة التحرير الوطني، القوة المسيرة والمنظمة للثورة الجزائرية، النور في حقبة زمنية فذة، وخلقت في صميم نار الثورة المسلحة للفاتح من نوفمبر 1954، من طرف اللّجنة الثورية للوحدة والعمل.

فالجبهة هي تتويج للجنة الثورية، تماما مثلما تنبثق الشعلة عن الشرارة طبيعيا، ومثلما الثورة هي التطور الكيفي لإندلاع الكفاح المسلّح.

تُرانا نثق ونصدّق حركة تلقائية تذكرنا بمشية اليهود يوم غادروا مصر، حيث ظلت أرجلهم جافة، وهم يعبرون ممرّا إعجازيًا في مياه البحر الأحمر روضته العصا السحرية لسيّدنا موسى ؟ لن نصدّق بالطبع، إذ أنّ القضاء على المستعمر الفرنسي كان يستلزم التخلّي عن الخرافات التي تجهض مسار الفكر النقدي، والتخلّص من عادات العبيد المتخوفين من حياة ليس فيها سيّد مفكّر.

غير أن التصورات الباطلة التي أكل عليها الدهر وشرب، والنظريات الطوباويّة لا تكفي تجربة أولى لإخفائها مباشرة، وهي لا تفسح المجال أمام الحقيقة التاريخية، دون أن تكافح بضراوة من اجل بقائها، يبقى هنا أن نميّز بين ما هو باطل

وطوباويّ، لكن هذا التمييز لا يكون في أفق المجرّد التام، وإنما نسبة لهدف ملموس هو تدمير النظام الإستعماري.

فصوت الإسلام مثلا كان لا يزال يحتفظ عشية الثورة بأنصار وطنيين مخلصين، يحلمون بتحرير الوطن، بواسطة بعث وحدة سياسية دينية، تشتتت بسبب الإختفاء النهائي لإقتصاد تجاري قائم على الملاحة الشراعية ومسالك القوافل، بيد أن الأمة المسلمة كانت قد تأكدت بفضل تجربتها الخاصة من أنّ التضامن الديني يملك تأثيراً خاصاً، فقدمت قوته وتلقائيته وفعاليته... حيث كانت الإمبريالية الفرنسية تلجأ إلى إستخدام جنود من السنغال أو المغرب في الجزائر، والمناوشين الجزائريين بسوريا، وضد سكان جبال الرّيف بالمغرب.

وأمّا الحزام الواقي للمستعمر بالجزائر فكان القيّاد والناظور والشرطي والوشاة.. هم الذين يكوّنونه وكلّهم مسلمون.

وإن إحترقت الغابة بمشعل من حطبها، أفلا يجب أن ننضمّ إلى السوريين واللبنانيين حين يقولون :

«الدين لله والوطن للجميع».

ويعتبر الإلحاد – في الطرف الآخر لدى الأرسطقراطية العمالية الأوروبية، بفضل التعليم وS.F.I.O والماسونية وغيرها – الشرط الأوليّ للخروج من مرحلة القصر الحضاري إلى الرّشد الحضاري.

وكثيرًا ما يتخذ لهجة تعصّب مهذّب، غير أنه ما تزال نبرة إحتقار الشعب المتخلّف القابل للإستعمار الأبدي تسيطر عليها.

ياله من جهل مطبق لعلم النفس الإجتماعي ! كما لو أن إكتشاف علم الفلك كافٍ ليمحو من ذاكرة الشعوب الذكرى الباهرة للبراق، الجواد المجنّح برأس إمرأة أوْ عنقاء مغرب.

نحن نعرف بأن تلك الأرواح الرّاقية [العقول]، تُبدي إهتمامًا أكيدًا حين ترى مثلا أن لترًا من الماء يتحوّل إلى ألفي لتر من البخار بفضل بطارية كهربائية، وأن سمكة حمراء معزولة عن مجموعتها تحرق قدراً أكبر من الأكسجين، ولا يريد أحد أن يزعجهم في حميمية النوادي «العلمويّة» أو في شرفات المسرح التي تخصهم. كما لا نتعجّب إذ نعرف أن أنصار العقل يعتقدون أنفسهم مجبرين على إرتداء مآزر صغيرة من أجل تبادل أسرار كهذه عن الفيزياء المسلّية. أو على الطمع في وصاية من أجل بلوغ ترقية في الإدارة الإستعمارية.

ولكن أن يزعموا أنهم ينيرون طريق الرّقي الإنساني، بالنصح بالمطالعة الإباحيّة مثل «الكَالُوتْ»، فهذا يعني أن تصدم إعتقادات الأغلبية السّاحقة للشعب الجزائري دون تمييز دينيّ.

وإدّعاء مكافحة الإستعمار بالتصريح بأننا أقرب من كولون كبير أوربيّ كافر، مقارنة بموظفه الفلاح الجزائري المؤمن. يعني بأننا نرسم خطّ فصل خاطئ على المستوى السياسي، ممّا يؤدي إلى تحريض نقاش بيزنطي، ونسيان العدّو الرّئيسي، وهو النظام الإستعماري سبب الأميّة والتجهيل.

وأن نزعم أننا مفكرون أحرار، دون أن نناضل من أجل التفريق الفعلي بين الكنيسة والدّولة، ثم أن ننسى حتىّ مساعدة المسلمين في تحقيق الحريّة لممارسة شعائرهم العقائدية، خاصة بوضع حدّ للتدخل الفرنسي في إختيار الأئمة والمفتين، الذين يقوم بتصيبهم والٍ مسيحي أو يهوديّ أو ملحد، هذا في الواقع يعني التراجع عن الدّفاع عن أوّل الحقوق وهو حريّة الضمير.

وهـذا يقُود إلى الإقلاع عن الدفاع عن الديمقراطية، وإذًا التخلي في الواقع عن المساس بالقواعد التي يقوم عليها الظلم الإستعماري، والمساهمة في الجمود الإقتصادي والإجتماعي وتعزيز التخلف الفكري.

وبصفة مفارقة تمامًا، فالوفاء للإسلام عانى من الإضطهاد والإهانة الإستعمارية، غير أنه ـ كان موضوعيّا ـ أكثر ثورية على المدى البعيد، وعلى المستوى الجدلي والتاريخي.

إن حركة الإصلاح الديني هي حركة نهضة إسلامية ذات طابع ثقافي وسياسي، ولقد تحدّثت مرارًا كإيديولوجية بورجوازية، وديمقراطية، هادفة إلى القضاء على النظام الإقطاعي، وعلى المغالطة التاريخية على المستوى الإقتصادي والإجتماعي، وكذا على مستوى الدّولة.

أما في الجزائر، فلقد إتخذت الحركة الإصلاحية منطلقا مستمرا منذ تأسيس جمعية العلماء الجزائريين منذ ثلاثين سنة، وتلخص برنامجها إجمالا في هذه القاعدة الرّائعة :

ـ الإسلام ديننا

ـ والعربية لغتنا

ـ والجزائر وطننا.

ولقد كان نشاطها في البداية، وبالمدن الكبرى خاصّة، مبني أساسًا على الموعظة الأخلاقية، حيث دأبت في محاربة الكحولية، والشعوذة المرابطية. كما عملت على إعادة الأموال إلى أصحابها أي الحبوس التي قام المستعمر بنهبها منهم ليمنحها ويهبها لغيرهم.

كذلك كان همّها التعليم التكميلي باللغة العربية، وكان ردّ فعل الإدارة الفرنسية والصحافة المخلصة لها، أن شبهت العلماء بمتعصبين وهابيين من آل سعود يخدمون الجامعة العربية والإسلامية، مأمورين من طرف عدد من المويلكين العرب (تصغير ملوك)، يحرّكهم فكر المنفعة والمصلحة...

أما بالنسبة للحزب الشيوعي الجزائري، الذي كان وقتها منطقة أخرى لنشاطات الحزب الشيوعي الفرنسي، فالحركة كانت منظمة بورجوازية، مناهضة للشيوعية بل ورجعية، تريد أن تعيق العمل الثوري، للحزب الوطني الثوري الذي كان منظمة شعبية يجب عليها أن تجمع كلّ المناضلين من أجل حرية الجزائر. والدليل على هذا هو أن الشيخ العقبي، الخطيب الذي أعجبت به الجماهير كان يهاجم الشيوعية بمهاجمة طبقة العمال الملحدين الذي كانوا يصفون أنفسهم بالمنظمة الشعبية، ولم يتعد عددهم الخمس عشر عضوا (ولا أحد كان يهتم بالأمور التي كانت تناقش في إجتماعاتهم السّرية تقريبا).

لكن ما لم يكن سرّا على أحد هي تلك الإستقرائية التي كانت الزُميرة تمارسها خلال الإحتفالات الشعبية الصيفية لنقابات العمال. والتي عملت الجريدة اليومية «الرسالة الجزائرية» (La Dépêche d'Algérie) على إبرازها في تقريرها حول : «الحفلات الحمر»، حيث تقذف نميمتها طبقة العمّال وتحرص على الحطّ من إعتبار C.G.T للوحدة والثورة. فالجماعة الصغيرة للفوضويين كانت تتسلّل بين المخيّمين في الغابات، أو بين السباحين المستلقين على الرّمل بثياب السباحة [المايوه] فلم يكن أبدًا هدف الخطب المملّة تفسير منشأ العالم والإنسان والظواهر الطبيعية والإجتماعية، ما فعلتُه هو أن إهتمت بالسخرية من العقائد والأحكام المسبقة كما كانوا يدعونها فقط. والمذهب هنا هو معارضة الأخلاقيات الرّأسمالية أي الإلحاد والنابيّة والعريّ. بعد هذا كان يدعى الذين فهموا الأمر للإلتحاق بمخيّم الفكر الحرّ المهيئ على طرف الشاطئ أوالغابة، وهنا يتمتع الفضولي أو الفضوليون المقضومون بمنظر جمع هيستيري يخلع ثيابه ويرمي بنفسه في البحر.

ياله من مشهد مثير للشفقة، لأنّه يذكّر بمذهب الآدميّة للطائفة الصّوفية خلال القرن الغريغوري الثاني، التي كانت ترفض إرتداء أيّ لباس لكي تمتثل للعري التوراتي للإنسان الأوّل، لحسن الحظ أن موقف الحزب الشيوعي الجزائري قد تعدّل بفضل المناضلين النقابيين القريبين من الشعب.

وتمّ المنعطف في الإتجاهين، أولا بالتخلي عن التضامن مع تجمّع لا تمت أعماله المؤذية بصلة لمنهج لينين فيما يخصّ العقيدة الدينية، حين كان يسمح بانضمام أصحاب التقوى، وحتى القساوسة إلى حزب ثوريّ فلسفته ماديّة، أي أنّه مبنيّ على التفسير العلمي لظواهر الطبيعة، بفضل إكتشافات وإنجازات الأمريكان والرّوس التي أقرّها وإنبهر أمامها العالم.

أما الإتجاه الأخر للمنعطف فقد تمثل في العمل إلى جانب الحزب الثوري الوطني، بتنظيم حركة شعبية لصالح الشيخ العقبي، الذي كانت الإدارة الفرنسية قد منعته من إلقاء الخطب بالجامع الكبير، وهو حقّ يمنحه الإسلام لكلّ مسلم حكيم أوعالم.

وجرت المظاهرة بساحة الحكومة بوسط مدينة الجزائر وحققت نجاحًا كبيرًا، إثر هذا حكم القضاء الإستعماري بالسجن لمدة ستة أشهر على كلّ من الطيب العقبي، مناضل عربي جزائري ونافارو الذي كان مناضلا أوروبيّا لأنهما دافعا عن حرّية الفكر وحرية الإسلام اللّتان تم خنقهما، كان هذا بين سنة 1933 و1934.

إن هذا الموقف للشيوعيين، ولحلفائهم الوطنيين الثوريين، لا يعني أنهم قد أدركوا حتما أن الحال في الجزائر كما كان الحال في أوروبا من قبل، حيث يسيطر الدّين على مختلف الشرائح الإجتماعية. وكان من السابق لأوانه إعتبار أن الدّين لا بد أن يبتعد عن السياسة إذ يرجع الأمر إلى قناعات وإختيارات فرديّة.

ولم يلاحظوا بأن الحركة الإصلاحية كانت تعكس بروز نزعة وعي وطنية إختلف شكلها، غير أنها ناجمة عن الوعي بالمصالح المشتركة أمام ظلم المستعمر وإضطهاده للشعب الجزائري بكل طبقاته.

ففي ظل واقع جزائري متحوّل ومعقد، تتضارب فيه الإيديولوجيات، وتتعدد وسطه النزاعات الإقتصادية والإجتماعية والسياسية أو الإنتخابية، لم يكن من السّهل أبدًا الخروج بتقدير سليم لحركة دينية، خاصّة وأن العلماء ذاتهم كانوا يقصرونها إعتباطا على واحد أو آخر من الشعارات كالدّين أواللّغة العربيّة.

ولم يكن من النسيان، وإنما من الجهل عدم إدراك أن سرّ الدعوة الوطنية للإصلاح الجزائري كان يكمن في العلاقة بين الشعارين الأوّلين والشعار الثالث، وهو الوطن.

ولم يكن الشيخ الإبراهيمي رحمه الله، ينسى أبدًا أن يذكّر الوطنيين الجديرين بالثقة، بأنّ برنامج جمعية العلماء كان يهدف أولا وأخيرًا إلى تحرير الوطن.

غير أنه لتحقيق هذا الهدف، والتأكّد من بلوغ النّصر بصفة أكيدة، كان لا بد من توفير مناخ إيديولوجي وتهيئة النفوس، وهذا هو المعنى الذي يجب أن يعطى لأوّل شعار: الإسلام ديننا.

المرحلة الموالية هي الحرب من أجل اللغة العربية كلغة وطنية، ولقد قفز عدد المدارس من بضع عشرات إلى مئة وخمسين مدرسة ما بين 1943 و1954، ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي الكفاح في سبيل الإستقلال، وتزامن الوقت الذي إختير للتنويه بشعار « الجزائر وطننا » مع سقوط الجبهة الجزائرية من أجل حماية وإحترام الحريّة.

وتمّ طبع حوالي عشر صفحات حول التفسير الجدليّ للحركة الإصلاحية، ضمن الكفاح من أجل الإستقلال. ولقد نالت وبصفة خاصة إعجاب الشيخ العربي التبسي الذي ألقى المظليون القبض عليه قبل أن يختفي.

إن هذه المعرفة الحسيّة للمستقبل، لم تكن في تناقض مع مقولته الشهيرة التي تستنكر الزواج المختلط قبل القضاء على الإضطهاد الوطني إذ قال: «من يتزوّج فرنسية فهو يدخل الإستعمار إلى بيته». أمر رائع أن يصدر هذا عن شيخ وقائد دينيّ عرف بورعه الكبير، وهو ما يكشف عن حسّه الوطنيّ المحتدم دون أي تعصب دينيّ أو عرقيّ، والقرآن يؤكد على أن لا إكراه في الدّين.

وهذا التفوق للسياسة على الدّين، أو تدخل الحسّ الوطني في أعماق الإيمان ظاهرة جزائرية شكلا ولكنها إجتماعية مضمونا.

ويكفي أن نقتفي مسار الفكر عند ديدرو (Diderot). لنكتشف أنّ فلسفة التنوير التي أنطلقت من البروتستانتيّة، قد أصلحت العقول وأزالت عنها الغبار، حتى توجت بالثورة 1789.

كذلك الإصلاح يحمل معنى فعل تسوية الشيء، وتصحيحه وتعديله وإعادة تنظيمه، فالحركة الإصلاحية لعبت دورًا بارزًا في الهزيمة الإيديولوجية المرابطية الرّسمية التي كانت تمثل عقيدة الإقطاع، والعامل المسؤول عن

الجمود الإجتماعي والحاجز الحائل بين الفلاحين وسكان المدن، وبالتالي السّور الواقي لقلعة النظام الإستعماري، ويكفينا مثال واحد لنبيّن مدى تأثير الزّوايا على الشعب، إذ يكفي أن نتحدث عن الحج السنوي إلى زاوية سيدي عابد بالقرب من مدينة غليزان، الذي كان أشبه ما يكون بعيد ديني يجمع مالا يقل عن مائة ألف شخص، حيث كانت الطقوس تختلط بالشعوذة، وباحترام السّلطات الإستعمارية الحاضرة بعين المكان، مستعرضة لباسها الرّسمي.

كما كانت مساهمة الحركة فعّالة في الحدّ بل في القضاء على التيار الإصلاحي الإستيعابي الذي كان ينطق به المثقفون المفرنسون. أو تيّار « صوت المهذبين» كما كانوا يسمونه، أو المنتخبين غير الملتزمين الذي كان يتزعمهم الدّكتور بن جلول ».

ونجد هنا أيضا مخالفة لوجهة النظر الغربية، فالثوري والرّجعي ليس هو من يعيّن حسب سلّم القيم لمقياس التقدير الإستعماري.

كان أوّل رئيس للعلماء المسلمين بالجزائر الشيخ عبد الحميد إبن باديس رحمه الله وهو الإمام الجليل المتواضع كأيّ واحد من أبناء الشعب.

لقد كان الإمام يساند كلّ عمل مهم ضدّ الإستعمار، وكان له أصدقاء سياسيين وشخصيين داخل كل الأحزاب، خاصّة المناضلين الثوريين مهما كان إنتماؤهم السياسي والعقائدي، فمنهم من كان ينتمي إلى حزب الشعب الجزائري، أو إلى الحزب الشيوعي، ومناضلون نقابيون، وشباب شيوعي، وكان بعض رؤسائهم من تلاميذه بالجامع الأخضر بقسنطينة.

وبرزت شجاعته السياسية كذلك لمّا استنكر وندّد العنصرية ضد اليهود، غداة عمليات التذبيح التي تعرضوا لها في الخامس من اوت 1934 ... وخلال إجتماعات الرابطة الدولية المناهضة للسّامية، قام بفضح عمل الرّابطات اللاتينية وتواطئها مع الإدارة الإستعمارية، التي كانت تجيز وترضى علنا بالندءات للمذابح التي كان ضحيتها اليهود، ولا تمنع نشر « الكلمة الحرّة » وغيرها من المقالات الإستعمارية الفاشية التي يستفيد منها القرّاء أكثر لو كانت ممسحة مطبخ.

وكان مصلحنا الدّيني يتمتع بنفاد بصيرة وحكمة في شخصه الثوري، حين لا يطالب الحقبة الزمنية بما ليس بوسعها. فقد كان الأب الروحي للمؤتمر الإسلامي الجزائري، أين تحقق إتحاد كل التيارات المضادة للإستعمار، الذي كان يجسّد تجنّدا عاما للشعب الجزائري في سبيل توحيد العمل النضالي دون حصر أو طائفية. بهذا شهدنا دخول الشعب إلى الحلبة السياسية التي ظلت إلى غاية الآن حكرًا على نخبة معينة.

قبل هذا كنا نعيش الزمن الذي شُبِّه خلاله الثوريون بديوك منتصف الليل التي تصيح معلنة بزوغ الفجر في عز الليل الحالك البهيم، ليس الأمر أنهم لم يكونوا قد نجحوا بعد، بل كان من المستحيل أن يستقطبوا إصغاء الحشود الشعبية، ليصبح العنف جزءًا من الكفاح في سبيل الحرية. حيث كان كلّ شيء متمركزا حول المساواة في الحقوق مع الأوروبيين، أما المسار السياسي لممثلي الشعب غير الإداريين الذين كثيرا ما يصغى إليهم، واسعوا الشعبية، أولئك الوجهاء والطلبة، أو الشيوخ المشعوذون المتشبعون بالثقافة الفرنسية، فقد كان يتلخّص في محاولة الإنتزاع من الخصم، أوربيو الجزائر، مدارسا ومحاريثا وطرقا ومستشفيات، وقد اختاروا التطوّر والنهضة وسيلة للتحرّر.

والأداة التي إستندوا إليها في الواقع كانت « الشِّكَايَةُ »، أي الشكوى للفرنسيين الطيبين بفرنسا عن طريق إرسال الوفود إلى باريس، أين كان يجد ممثلونا ديمقراطيين يصغون لهم، ويشاركونهم سخطهم، ووزراء تدفعهم اللياقة لإستقبالهم، ولتعزيز الأوهام حول فعالية نشاط بعض الفرديّات، مهما بلغت من النبوغ من أجل رفع عبء المستعمر دون اللجوء إلى الرافعة، الجماهير.

ولهذا كان يرفض هؤلاء العاجزون، عن التلفظ بحرف " لا " أو الأحرار كما يصفون أنفسهم، قبول أي معارضة من طرف عمال غير مؤهلين لا يحملون شهادات جامعية، أو عاطلين ثملين مدمنين على الحشيش، ولا من علماء لا يحسنون حتى الفرنسية ويحاولون فهم أمور السياسة، عوض تعليم الوضوء والصلاة وقواعدهما ومراحلهما.

وبعد مضي خمسة عشر عاما، ينطق جاك شوفالييه بكلام من النوع نفسه، وكأنه وزير سابق حين استعرض تأسيس «الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية وإحترامها» في السادس من شهر أوت 1951. لم يخف محافظ مدينة الجزائر السّابق إستياءه إثر تحالف إدارة دينية مع أحزاب سياسية مثل M.T.L.D وU.D.M.A والحزب الشيوعي الجزائري ونقرأ في كتابه «نحن الجزائريون ..» «إن أهداف هذه الجبهة لاتحتوي على ما قد تنكره الديمقراطية الحقيقية»، بالطبع لم يكن هناك مجال لتحضير العمل لإنتزاع الاستقلال الوطني، ذلك برنامج كان من الممكن أن يمضيه سيرنييه Serigny بما أن الإرادة كانت تصبوا إلى الإصلاح، غير أن ذلك الإئتلاف خطير يجب أن يحسب له ألف حساب، ومتفجّر بالنسبة «للمسلمين المعتدلين، غير المتعصبين الذين وجدوا أنفسهم محصورين في طريق مسدود».

وإذا سألنا جاك شوفالي عن السبب أجاب «بفعل إندماج الدّين الإسلامي في الجبهة الجزائرية من أجل الدفاع عن الحرية وإحترامها، فسوف تفسّر أي محاربة لها على أنّها موقف عدوانيّ تجاه الدّين من طرف البعض». ولم يخطئ شوفالي لأنّ الخطر الذي كان يهدّد حياة الإستعمار كان يكمن تحديدا في هذا التوافق «الغريب» لأفكار متضاربة إلى أقصى الحدود في ظل الإسلام مثل الرّوحانية والمادية».

كان الإسلام بمثابة الأمّ التي تجمع شمل أبنائها، حيث كان يشكل إسمنت العوامل التي تصنع القوة الشعبية في بلدنا.

والعدو المستعمر . الذي كان مقره القصور القديمة قبل أن يتركها لفرسان التعذيب بساحل الجزائر – قد تصرّف ببصيرة حين قام بتدمير المساجد وتحويلها إلى ثكنات أو إسطبلات وهي طريقة لتخفيض عدد المعابد، لكن المساجد كانت جامعات أيضا كالزيتونة بتونس والقرويين بفاس والأزهر بمصر، فكل مسجد يدمّر يعني إختفاء مدرسة أو مكتبة أو قاعة محاضرات أو دار للشعب، أو كذلك مجلس إستشاري أو للمداولة ... المسجد كان يعني أيضا إختفاء معهد موسيقي يدرّس فيه التجويد، وهو فنّ ترتيل القرآن، الذي يتطلّب المعرفة السّابقة لكلّ المقامات الموسيقية الكلاسيكية منها والشعبية والأندلسية والشرقية.

لن نقف طويلا عند الرّوح الصليبية التي تجسّدت في تحويل المساجد إلى كنائس، وإقامة نُصُب تعتليها صلبان من الحديد، فوق ترقيم باللاتنية كُتب عليه «يد الله تنصرك» ولا عند شعارات المدن مثل شعار الجزائر العاصمة التي عرفت من خلاله في كل أنحاء العالم، وهو طابع بريد يبرز فيه صليب ضخم يحلق في السّماء متعاليا ومنتصرا على هلال صغير مقلوب ناحية البحر.

كذلك كان العدو بصيراً حين يختار «موظفي المساجد» من ضمن الجنود المتقاعدين المرشحين لمناصب، مثل الشاوش أو الناطور أو سائس الدّرك. كانوا يطمحون أيضا للحصول على تصريح لفتح مقهى مغربي، أو ليصبحوا مؤذنين أو مرتّلين أو حتى كناسين أو كهربائيين. وإن أبدى الطالب وفاءًا للنظام الإستعماري، وحفظ كلّ القرآن اعتبر جديراً بشهادة " شيخ الإسلام " التي يمنحها الحاكم العام، ولا يتبقى أمام المفتي الكبير، إلاّ أن يختار من الأرشيف نصا يناسب خطبة الجمعة، معتمدا في ذلك على إخضاع كلام الله عز وجل لرقابة تسيء للحق خوفا وتزلفا وإستجابة للرّب قامي "GAMI" أي المفتش العام لإدارة الشؤون الخاصة وغير العادية.

وعندما يسمع الشيخ البث الإذاعي الذي يمنح صدى بليغًا "الله أكبر"، يتخيل هذا الشيخ المتحمس للولاية والقسّ المولع، جمعَ المؤمنين وهم يلمسون السّجاد بجبهتهم، وكأنهم حشد من العبيد وقد حبوا على ركبهم واهبين أرواحهم وخضوعهم، وزادت بصيرة العدو المستعمر حين قام بحرب مستمرة ضد اللغة العربية التي اعتبرها لغة أجنبية، فلقد قام بإغلاق كلّ مدرسة عربية تواجدت على بعد ثلاث كلمترات من مدرسة فرنسية فتحت بهدف تلقين مجموعة كلمات فرنسية، تكفي لتسهيل تسيير العمال الفلاحين، كما تعلّم البقال بضع كلمات حتى تصبح قيادتهم أقل إزعاجًا.

وكان العدو المستعمر يقدر تمامًا الخطر الذي يشكله إنتعاش اللغة العربية، وإعادة تعليم الأطفال الجزائريين لغتهم الأم، فهذا يشفيهم من الإهانة التي يعانون منها لإعتبارهم « أولاد السّاحة العمومية، مجرد أيتام ومتشردين، كما يوعيهم بكرامتهم ويقيهم خطر بلوغ سنّ المراهقة بلا جذور، الشيء الذي يدفعهم إلى تناول الخمر والنرفانا (Nirvana) والحشيش بأنواعه والكوكايين والدّعارة.

هذا يعني أيضا أن نعيد إلى الشاب الأعزب نفسه الأبيّة والقوية والنيّرة، فيفهم ردود فعل الإستعمار، ولنذكر على سبيل المثال إهانة الأوربية العنصرية العاهرة بنت هوى الجنود والأبشع من الصّرصور، حين ترفض الرّقص مع جندي، ولوكان أدونيسًا، عربي فينيقي وحبيب فينوس (Venus).

تعلّم اللغة العربية من جديد، يعني إنعاش التعليم الطبيعي والعقلاني والتاريخي الذي يسمح باكتشاف السبب الذي جعل جبال الجرجرة، المونتيس فيراتيس (Montus Feratus) بالنسبة للرومان، وجبل الحديد المنيع الذي صمد بوجه المسيحية، ومنح أعلى قمة للأطلس التلي إسم "لالة خديجة " أولى أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم وأم المؤمنين، كذلك يقودنا هذا إلى إعطاء تفسير للغز تاريخي لماذا محى العربي اللاتينية من إفريقيا المرومنة، وللتوضيح. ألم تُبين لنا علوم اللسانيات أن اللغة الأمازيغية هي جد قريبة من اللغة العربية.

وليس الأمر تعريبا سطحيا، يكفي باقتراض بعض المصطلحات القانونية، والدينية كما يُدرّس اليوم بالجزائر العاصمة وباريس ولوس آنجلس، ولا يحتاج التلميذ الثانوي لمهارة في علم الصرف، مثل ذلك الذي جلبه الرّهبان البيض من قواعد قبائلية مكتوبة، فيكفي أن يحسن إستعمال المنجد، القاموس اللبناني ليكتشف ضمن الكلمات التي تعتبر نماذج بربرية مفردات عربية قحّة.

وعندما يسمع الشيخ البث الإذاعي الذي يمنح صدى بليغًا "الله أكبر"، يتخيل هذا الشيخ المتحمس للولاية والقسّ المولع، جمعَ المؤمنين وهم يلمسون السّجاد بجبهتهم، وكأنهم حشد من العبيد وقد حبوا على ركبهم واهبين أرواحهم وخضوعهم، وزادت بصيرة العدو المستعمر حين قام بحرب مستمرة ضد اللغة العربية التي اعتبرها لغة أجنبية، فلقد قام بإغلاق كلّ مدرسة عربية تواجدت على بعد ثلاث كلمترات من مدرسة فرنسية فتحت بهدف تلقين مجموعة كلمات فرنسية، تكفي لتسهيل تسيير العمال الفلاحين، كما تعلّم البقال بضع كلمات حتى تصبح قيادتهم أقل إزعاجًا.

وكان العدو المستعمر يقدر تمامًا الخطر الذي يشكله إنتعاش اللغة العربية، وإعادة تعليم الأطفال الجزائريين لغتهم الأم، فهذا يشفيهم من الإهانة التي يعانون منها لإعتبارهم « أولاد السّاحة العمومية، مجرد أيتام ومتشردين، كما يوعيّهم بكرامتهم ويقيهم خطر بلوغ سنّ المراهقة بلا جذور، الشيء الذي يدفعهم إلى تناول الخمر والنرفانا (Nirvana) والحشيش بأنواعه والكوكايين والدّعارة.

هذا يعني أيضا أن نعيد إلى الشاب الأعزب نفسه الأبيّة والقوية والنيّرة، فيفهم ردود فعل الإستعمار. ولنذكر على سبيل المثال إهانة الأوربية العنصرية العاهرة بنت هوى الجنود والأبشع من الصّرصور، حين ترفض الرّقص مع جندي، ولوكان أدونيسًا، عربي فينيقي وحبيب فينوس (Venus).

تعلّم اللغة العربية من جديد، يعني إنعاش التعليم الطبيعي والعقلاني والتاريخي الذي يسمح باكتشاف السبب الذي جعل جبال الجرجرة، المونتيس فيراتيس (Montus Feratus) بالنسبة للرومان، وجبل الحديد المنيع الذي صمد بوجه المسيحية، ومنح أعلى قمة للأطلس التلي إسم "لالة خديجة" أولى أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم وأم المؤمنين، كذلك يقودنا هذا إلى إعطاء تفسير للغز تاريخي لماذا محى العربي اللاتينية من إفريقيا المرومنة، وللتوضيح. ألم تُبين لنا علوم اللسانيات أن اللغة الأمازيغية هي جد قريبة من اللغة العربية.

وليس الأمر تعريبا سطحيا، يكفي باقتراض بعض المصطلحات القانونية، والدينية كما يُدرّس اليوم بالجزائر العاصمة وباريس ولوس أنجلس، ولا يحتاج التلميذ الثانوي لمهارة في علم الصرف، مثل ذلك الذي جلبه الرّهبان البيض من قواعد قبائلية مكتوبة، فيكفي أن يحسن إستعمال المنجد، القاموس اللبناني ليكتشف ضمن الكلمات التي تعتبر نماذج بربرية مفردات عربية قحّة.

وبإخراج "الأمسْلايْ" من كفن اللهجة الفقيرة، تأخذ هذه المفردة بالقبائلية معنى المسألة والإستفهام والسؤال والطلب والمشكلة التي تنتظر حلاً، وموضوع النقاش والعريضة والإلتماس لدى إحتكاكها باللغة الشقيقة، لم تعد لهجة " الزواوة " لتيزي وزو مجرد كلام إصطلاحي وعملي، بل لغة حقيقية يضيف لها أسلوبها المجازي، رونق لغة عربية أدبية وعلمية. إنه الحوار الرفيع بين الصوت الأمازيغي والحرف العربي.

وتحية لروح السلطان كوكو أقليد (Aguellid) لعزازقة الذي حالف الأخوين خير الدين وعرّوج. وسنقوم بصنع عقد بهذه الكلمات من المرجان العربو بربري.

- أقليد : هو الملك وأقليد أمقران الملك الأكبر، كلمة جاءت من العربية " المقلد " أي من أحاط عنقه بعقد ومكلف بمهمة والحامل للعلامة المميزة للنبل وعزة النفس.

- تَمَتُّوتْ : المرأة وبالعربية من يتصل ويلتقي حاجباها حين يأخذ وجهها سمة الإحتقار، صاحبة المشية المختالة التي تسحب الدّلو من البئر، وتحمل الجرّة التي تملأها من النبع أوالمسقاة.

- غريب: المراعي البعيدة.

- أَخْزَرْ : أي أنظر، وتحمل معنى النظر باختلاج العينين في العربية،

- أُوركُوبْ : وهو الطريق، الإنعطاف أو المنعرج الجبلي.

- شَمَامْ : القاوون (البطيخ).

- أَيَزِيضْ : الدّيك وبالعربية الصيّاح والزّاعق، ونجد الفكرة نفسها في الكنية العربية " أبايقظان " وهو الأب اليقظ، من يوقظ النّائمين، ثم في اللقب الفرنسي "Chantecler" في رواية رُونارت.

- أَزْقَانْ : هي النصف وبالعربية مساعدة شخص في رفع ثقل ما وإقتسام الحمل معه.

- أَكَرْوِيل : الرّأس وبالعربية رأس الجبل، والذي يقدّم الطّعام لضيفه أي شخص واسع الكرم.

- أَمَازِيغْ : الإسم الذي يعطى لبلاد البربر، بالعربية وهي المنطقة من الأفق التي تأفل الشمس فيها وبلد الغروب أي الغرب.

هذا يعني أن لفظ " أمازيغ " الذي هيأ لبناء نظرية " الأمازيغية " بمعنى بلد البربر أي وطن الرّجال الأحرار ليس غريبا عن اللغة العربية. فهي بالعكس تحمل معنى

لفظ "المغرب " نفسه وهو نقطة [مكان] إختفاء الكوكب [الشمس] أي الغرب، والغرب بمعنى نقيض المشرق أو إفريقيا.

نستنتج بأن اللغة العربية الفصحى قد آتت بالدليل بلفظ مازيغ و المغرب، فاللغة الأم والوطن والروح والقدر مشترك. ليس هناك من داع لتنادي بالمعجزة، لأن لهذه الظاهرة تفسير تاريخي وجغرافي وإجتماعي ولساني كما يأتي :

1. لقد شكلت جبال الجزائر سورا إقتصاديا وسياسيا وثقافيا، لعب الدّور ذاته الذي عرفناه وتأكدنا منه بألمانيا أو إيطاليا قبل مجيء الوحدة الوطنية.

فاللغة القبائلية التي قامت العزلة الجغرافية بالمحافظة عليها عرفت نفس الجمود الذي تعرضت له الفصحى التي حافظ عليها القرآن، وإن قارنا العربية المتداولة والحيّة التي تتطور بصفة دائمة، بالآخرين أي القبائلية واللغة الدينية نجدهما قديمتان ومختلفتان وغير مفهومتين.

2. القبائلية بالنسبة للغة العربية هي مثل الفرنسية الكندية للغة الفرنسية، الكندي الحقيقي لا يدعو السيارة " أوتوموبيل " بل " شار " ولمّا يتحدّث عن شار أفو «Char à Feu» فلا يقصد المدفع بل " القاطرة ".

3. القبائلية هي عربية قديمة إحتفظت بنكهة لغة حنبعل، تلك اللغة الأمّ التي شوّهتها الفرنسية المكتوبة والنعوت اللاتينية إلى البونيّة فالقرطاجيّة والفينيقية أو المالطية.

4. إن الكلمة المركبة عربوبربر " العرب. البربر " تعكس لدى المستعمر فكرة التعارض بين شعبين ولغتين وثقافتين. وتستعمل بعكس معناها حتى يكتسب شحنة سلبية مغايرة للواقع الجزائري،

فبالنسبة لنا الكلمة المركبة ذاتها تعني همزة وصل بين أمّتين شقيقتين، والتعرف على الأصل التاريخي لميلاد الأمّة الجزائرية المعاصرة.

وفي كلّ الأحوال، لم ينجح الإستعمار في إحداث قطيعة تامّة بين العربية والبربرية، لغتين منطوقتين مختلفتين هذا صحيح ولكن الأصح أنهما أختين بالرّضاعة من أمّ واحدة هي العربية الفصحى، التي تلعب دوراً محورياً ثلاثيا، كلغة دينية ومكتوبة وتجارية.

وليس من فعل الصدفة أن نجد اللغة العربية اليوم تغذي الإحساس بالإنتماء المشترك للأمة الجزائرية، كما كانت تثير حركة التوحيد اللساني في ظل دولة الموحدين أوالفاطميين.

ولهذا عجزت الأمازيغاوية أو النزعة البربرية كمذهب تفريق استعماري، قُدّم كدوائر قبائلية مضادة للعرب، أو في شكل دوائر مرابطين ضد العلماء قصد إبادة الحس الوطني المتحد، ونشر نزعة «فرق تسد» كما عجزت من قبلها سياسة الإنتقاء الإجتماعي لدائرة " المسلمين الفرنسيين "، كذلك فشلت النزعة البربرية بقالبها السياسي بتأسيس الحزب الشعبي القبائلي، وإن كانت ثمة نيّة حميدة هدفها خلق معارضة نظامية للإدارة المصالية لحزب الشعب.

إن هذا الوفاء للغة الضاد، والضاد حرف من حروف الهجاء العربية والقبائلية فقط، هو رفض متصلب لأي نوع من الفرْنَسة. إنها نزاهة وعفة الجزائر بتمسكها بذاتيتها وشخصيتها ووطنيتها. وهذا هوالتعبير عن الحسّ الوطني الأنبل ولقد أعطانا إخواننا الرّهبان العرب المسيحيون اللبنانيون، المثل السّامي والنيّر في سنة 1921 حين هددوا الفاتيكان بالإنسحاب من الكنيسة الرومانية، إن أصرّ البابا على مشروعه لتعويض العربية باللاتينية في اللغة المطقوسية.

ولا يعني هذا أننا نحتقر لغة فولتير وجدريس وإيلوارد. فرسولنا عليه الصلاة والسلام يوصينا بطلب العلم ولو كان في الصين. ولأننا على عكس ذلك نحب اللغة الفرنسية التي انتزعناها من المستعمر التجهيلي، فإننا نرمي إلى المهملات شوك الصُّبار، تلك الرطانة السوقية كلباس المتشرد البالي الذي به ثقب يكشف عن عورته، وهو ما نستحي أن يراه الغير.

ولم تكن الإدارة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري قادرة على فهم ثوري معاصر، يدرس القرآن في آن واحد مع الماركسية.

وكان من البصيرة أن يبرهن الإستعمار أنه من المستحيل إبعاد الدين عن السياسة، دون تهديد إستقرار نظام مطلق إستبدادي. ولم يتهاون في التعصب والتحريض والإضطهاد لبلوغ غايته. كما رفض دون أدنى خجل تطبيق القوانين الديمقراطية للقانون الأساسي للجزائر لسنة 1947، أين تعهدت فرنسا بتأمين حرية العقيدة الإسلامية وتعليم اللغة العربية.

ولأن إمبراطورة روسيا كاترين الثانية، كانت تدرك مدى أهمية تأثير وجاذبية هذه القوة على النفوس. فلقد إغتصبت نفوذ البابا "بي السادس " بتغييرها شعائر الأسقفية، وخلقها الكرسي الأسقفي الذي وضعه بيدقس خسيس بفرض سلطته على كلّ المسيحيين عبر أمبراطوريتها. كما كانت تدرك تحابك الإسلام مع الحياة

الإجتماعية، حين أعلنت الحرب على الدّيانة المحمدية الممارسة بورع كبير من طرف شعوب أسيا الوسطى.

لم يكن لينين يحتقر العقيدة الإسلامية، وكان أوّل ما قام به – بعد سحق التزارية وإعلانه للشعوب المشرقية – هو إعادته لمسجد بخارة أو سمرقند الأمر الذي كان له أثرا عزيزًا على قلوب كلّ المسلمين من بكين إلى الرّباط. كان الأمر يتعلّق بمخطوط نادر جدًا، كانت كاترين الثانية قد سرقته ووضعته بمتحف موسكو، نسخة القرآن التي كانت للخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، والتي تحمل لطخات دمه التي وقعت على الكتاب الذي كان يقرأ فيه وفي الوقت الذي قتل فيه.

في حين أن الإدارة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري، تنسب موقفها تجاه الدّين إلى الشيوعيين الفرنسيين، الذين ورثوا عداء الكليروسية اليعقوبية، بإغلاق المدارس الرّهبانية، أمام العجز عن تحويل الكنيسة الرّومانية إلى كنيسة وطنية.

أما بالجزائر العاصمة، فالشيوعية تتغذى فقط على أدب الطبعات الإجتماعية للحزب الشيوعي الفرنسي، ولتأثرهم بالإنحراف الإيديولوجي للأرسطقراطية العمالية الأوروبية، والتقاعس الثقافي والتقليد الحرفي الأعمى، فإن مسيري الحزب الشيوعي الجزائري يضعون حول عنقهم دون وعي حبل وجهة نظر الإنسانية، التي ظلت معادية لسادة الكنيسة المسيحية بفرنسا، وفي ظل الديمقراطيات الشعبية.

لكنهم لا يلاحظون في الحياة اليومية الباريسية، موقفا مخالفا ومراعيا تجاه بطركية الكنيسة الأرثوذوكسية، ونجد الموقف المتباين نفسه بدرجة أعلى، فهو أكثر ليونة وماديّة لدى الحزب الشيوعي الإيطالي الذي سمح لنوابه بالتصويت خلال معاهدة بابوية. الشيء الذي لم يفهمه الحزب الشيوعي الفرنسي، فالوضعية السياسية والدينية مختلفة بين جانبي جبال الألب.

إلاّ أن العقيدة حتى بفرنسا، لم تكن دائما مقيّمة بطريقة إجمالية بل جوهرية، ولم تتخذ أبدا عبارة "الدين أفيون الشعوب" الماركسية نمط حكم تمهيدي لدى صاحبها، كما يظن البعض خطأ. ومن جهتهم فإن الثوريين والموسوعيين قد توصلوا إلى الإختلاف بين المرابطية والإصلاحية، الأمر الذي كان يخلق الإنقسام في صفوف المسيحية بأوروبا، إذ أنه خلال المرحلة ما قبل الرأسمالية كانت ثمة إيديولوجية عقائدية لعبت دور فلسفة تقدمية وخميرة ثورية.

لنأخذ الإصلاح على سبيل المثال، كان هدفه إعادة الكنيسة المسيحية إلى صفائها الأوّلي. كما قام الإسلام بتطهير نفسه من الوثنية والشرك وعبادة الأولياء الصالحين، كما لو كانوا شركاء لله، فالشعب الذي سحقه الألم يظلّ يأمل البركة من القبور بما أنّ الله لا يسرع في التدخّل لرفع البؤس البشري.

وكان الإصلاح عامل تنظيم فكري بتطويره للإنسانية والأفكار الجديدة، مثل الإسلام الذي أعطى نظرة عصرية للعالم عن طريق كسر التعصّب المفرّق. كما قال سبحانه في سورة البقرة في الآية 177 « ليس البرّ أن تولّوا قِبلَ المشرقِ والمغربِ ».

ولعب الإصلاح دور مسهل ومشجع للتطور السياسي والإقتصادي والإجتماعي، عن طريق مساهمته في تعزيز البرجوازية في نضالها ضد الإقطاعيين، وفي الإصلاح الزراعي بمصادرة أملاك الكنيسة، وكذلك في ميدان التصنيع وظهور الرأسمالية التي كانت آنذاك سرّ قوة التطور.

وتماماً كالحركة الإصلاحية، فضربنا للتعصب المرابطي يعني مساسنا بسلطة وقوة الإستعمار، وكبار ملاكي الأراضي، ونحن من جهة أخرى نحبذ القوى الجديدة للبرجوازية والطبقة الكادحة الوطنيتين في مهمتهما الإرشادية للفلاحين الفقراء.

وقمنا في الوقت نفسه بتحطيم الحجر المقام على العقيدة الشيوعية في صفوف العائلة الفلسفية الوطنية، وإرتباط فكرة الوطن بالتعريب، والإسلام إستعاد مهمته التقدمية، فإن الوعي الوطني ظلّ يتطوّر ليصير كل يوم أعلى وأقوى، كان المناخ إذن مهيّأ تماماً لإتمام نضج جنود الله.

وهنا نرى لماذا كانت الهزيمة الإيديولوجية للمرابطية تجهّز للهزيمة الإيديولوجية الإصلاحية، وبالتالي لإنتصار الإيديولوجية الوطنية الثورية.

وأضحى الشعب الجزائري يتبع نجمة الجهاد المعاصر، قبل أن يمشي وراء جنود الوطن على طريق الرّجال الأحرار.

الفصل الثاني

آلهة محرفي تاريخ العالم

يذكر الكثير من العاصميين، المحاضرة المتألقة التي ألقاها روجي غارودي Roger Garaudy بقاعة البرد "" عام 1946، حول الحضارة العربية، ولقد كانت هذه البادرة لصالح كرامة الجزائريين الرّافضين وضعهم الإستعماري.

غير أن هذا المناضل الملتزم، قد غضّ الطرف ولم يُشر إلى محطات تاريخية بارزة. لأن أندريه مارتي André Marty الذي كان آنذاك مسؤولاً عن الحزب الشيوعي الفرنسي وسكرتير سابق للأممية الشيوعية، كان قد درس مخطوط بحث غارودي في 1943 أو 1944، ووجد حكمه على معركة بواتيه "Poitiers" فرضية غير مقبولة تماما لحشوها الديني. ولم يكن النائب المستقبلي لآلبي "Albi" قادرًا على التفوق على وجهة نظر قادتها إلى الخطأ أحكام مسبقة، متجذرة في العقول منذ الصبا البعيد، فالخدع عنيدة.

ولأسباب مغايرة تمامًا، نجد مؤرخا محترمًا لا يتردد في الدفاع عن الرومانية عن طريق تمجيد سيزار "Cesar" الغازي المنتصر لفرسنجيتوركس " Vercingétorix "، والوطنيّ الذي إختنق لمدة سبع سنوات في عفن عرين دبية روما " الكريمة "، كما لو كان بها . حيًا . ويعترف كاتب معاكس لهذا بعجزه عن إستئصال هذه الجذور الرومانية التي يعطيها العالم «شكلا علميًا حاسمًا يرهب بعض الشيء» كما جاء في جريدة Monde في الحادي عشر من مارس 1961 في مقال عن نظرة لافونتان لكركويينو. فهل يجب إذن أن نقبل بهذه العقيدة " المتوهجة " حتى لا نعرّض أنفسنا للسخرية، إذ نقارن أنفسنا بنثر العلوم ؟ بالطبع لا، لأنها تتجسد سياسيا بانقلاب مرفوض كل الرفض للقيم.

قام المستعمر بإعطاء إسم " بوكيس " Bocchus إلى شارع بالقصبة الدنيا من العاصمة، لأنه كان ملكا لموريتانيا، لكن يوغرطة " Jugyrtha نُسي تماما. إنها

لصورة من صور منطق الرومانية. فالملك بروكيس نسيب يوغرطة المتعاون مع الأعداء " collobo - quisling "، لاقى التمجيد نظير خيانته المزدوجة، فقد سلم زوج إبنته " Vercingétorix " للأمازيغ. المغرب إلى أعدائه الرومان.

وإن كان المؤرخون الفرنسيون لم يصلوا بعد إلى إتفاق حول السلوك الواجب إنتهاجه لتوزيع أكاليل المجد أو الفظاعة، فإن الحقيقة التاريخية محترمة إلى حد ما[نسبيا]. لكن الشوفينية هي ملكة الموقف المتعصب، عندما يتعلق الأمر بعرض أحداث تَواجَه خلالها الصليب والهلال.

ولنكون واضحين، ليست الكتب المدرسية للتعليم الرسمي هدفنا، أين نجد ما هو عربي ومسلم قد شحنه اللؤم والإختلاف، لكن هدفنا وما سنتحدّث عنه هو تلك المؤلفات المعرفية التي كتبها متخصصون عُرف عنهم الإنضباط.

ولعلّ خير برهان على أنه من الأسهل إدماج التسامح في القانون، على توصيله للعقليات السائدة هو فحصها لكتاب : النور الأكبر للعصور الوسطى La Grande Clarté du Moyen Age ، ويظل مؤلفه غوستاف كوهين، الأستاذ النابغة بالسّوربون، وفيّا لروح الكليَّة الكاثوليكية القديمة لعلم اللاهوت، الشيء الذي يسمح له بالظن بأنه لديه الحق في التعالي على القانون التاريخي المشترك.

وهو يمارس براعة بهلوانية، حين يشرح تأثير اليهودية والعربية على نشأة اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي، ويتحدث عن المنابع الشرقية فقط لهذا التأثير، وقد إتخذ لفظ "الشرقية " معنى جغرافيا مقتصرا على سوريا وفلسطين ومصر وقبرص ورودس، وينسى التذكير بالتأثير العربي واليهودي القادم من منابع غربية لإسبانيا المسلمة، وسنعرف السبب لاحقا، طبعا يمكن أن نجزم بأن المسألة تتعلق بإختصاص آخر هو إختصاص المستعربين والمتأسبنين، غير أن الدراسة المقتطفة لحقبة زمنية معينة لا تكفي لتجعل من الأخصائي «كاذب بنية صادقة» فالنسيان هنا مثلا يشرح بحذاقة تصرفًا مشكوكًا في أنه يهدف إلى جعل تصرفات شارلمان "Charlemagne" مثالية. فالموضوعية العلمية التي نلاحظها من الخارج تخفي قداسة لصالح " أكبر بربري جرماني ".

لنتبع مثلا النظرية الملتوية لأكبر أناشيد البطولة، وسوف نلقي بعض ضوئنا المتواضع على واحدة من قممها، وهي أنشودة رولان التي يقدمها كوهين كما يلي :

«علينا أن نتقدم بالشكر إلى الله وإلى تورولد " Turold "، الذي أوحى له، ولأنه منحنا في مطلع أدبنا، وفي مرحلة تكاد ترتسم فيها ملامح مفهوم المملكة الفرنسية، قصيدة تنضح فيها في أسلم الأشكال، وبالمعرفة المسبقة لعبقرية خلاقة، روح الأمة المستقبلية».

إن هذا التحمس الوطني، كان سيبدو مشروعا لو إتسم بصراحة الروح القتالية، التي كانت تحرّك جوان فيل " Jouinville " المدوّن التاريخي للحروب الصليبية وباكورة مراسلي الحرب.

غير أنها لسوء الحظ تتقدم كدراسة نقدية للحقيقة الأدبية الوثيقة الصلة بالحقيقة الإجتماعية والتاريخية :

وفي مقطع من كتابه (ص 39) يبدي كوهين عدم رضاه فيكتب :

«كيف نفسر بأنه في الوقت الذي يُشرَّف، فيه بل يُرفع إلى مرتبة الإله تقريبا، في قصيدة رولان أين يوقف الله الشمس، ويمنحه الرؤى السماوية. كان شارلمان يتواجد بمكان آخر، في حفل تتويج لويس، أو في حج شارلمان ذلك الدمية السخيفة، فبالنسبة له، هذا الشعر الذي يحتوي عاملاً هزليا «يلّطخ الإمبراطور الكبير نفسه، في سبيل تسلية الجماهير» فقد نظر إليه باحتقار، ولم يتخيل ولو للحظة واحدة بأن هذه القريحة ستوجد لدى رابلي وفيلون (Rabllais, Villon) فيما بعد، وعلى العكس فإن فقيهنا اللغوي ينصرف عن الدراسة الأساسية، أي البحث في قيمة النص لينطلق في التفسير التاريخي وعلاقته بالصفات الملكية،

لا أحد يقول لنا إن كان حج شارلمان عملا فنيا، لكن النقد يأخذ منعرجًا إجتماعيا، ليجبرنا على الإختيار بنوع من المنعكس الشرطي، بين التيار الملكي في أغنية رولان أي التطور الطبيعي، والتيار الإقطاعي للقصيدة المضادة للجرمانية، أي البربرية التي تعيق التطور والوحدة الفرنسية.

فلنتريث شيئا ما، فمظهر التطور الإجتماعي أكثر بطئا وتباينا وتعقيدا، وهذه الرؤية التبسيطية تستلزم قفزة زمنية إلى الأمام بمقدار خمس سنين على الأقل، وإنه لمن السخافة إعتبار أغنية رولان إيديولوجية تقدمية، في الوقت الذي لم تتعد فيه كياسة هذه الأغنية كتلة الجبال الوسطى، تماما كما لو اعتبرنا رقصة البطن فلسفة لرفض الحجاب وللتحرير الكلي للمرأة.

وإذا كان لمدير آلة العرض السينمائية إمكانية عرض الفيلم ببطء، أو إرضاء نزوة مغايرة، فيزيد من سرعة العرض العادية فإن المؤرخ لا يجب أن يفعل هذا بالفعل، فعلى الرغم من جهوده لتعزيز السلطة المركزية، فإن شارلمان لم يكن يعبر عن التيار الملكي الذي كان يمثل الإحساس الوطني. لكنه على عكس ذلك كان يعبرعن التيار الإمبراطوري المدمّر للأوطان.

ألم يشن حربا مستمرة لغزو بلدان جديدة، خاصة ضد السكوسونيين بجرمانيا واللومبرديين بإيطاليا، والباسكيين بأوسكاريا، والعرب المسلمين بالأندلس ؟ ثم أليس إختفاء شارلمان الذي أدّى إلى سقوط الإمبراطورية المتعددة الأعراق بفعل التجزؤ

ليبدأ هنا النظام الإقطاعي الحقيقي. فسلطة الملك لا تتعدى أرضا أوإقليما «فروة حزن» عندما كان سيداً في الوقت نفسه، فالنزعة الملكية التي إنتهت بالسيطرة على الإقطاعيين الضعفاء، لم تظهر إلاّ بعد سقوط صرح السلالة الحاكمة لشرلمان.

وبرأيينا، الفرق بين أغنية رولان وحج شرلمان، يجسد بالأحرى القطيعة التي ضربت المسدس البريطانو روماني، فتجزأ إلى مجتمعين مختلفين جغرافيا ولغويا وثقافيا وكذلك بدرجة التحضر. فنجد شمالا وطن " لغة أويلْ "أين قام الغزاة الذين كانت تحركهم غريزة حيوانية بمحو كل أثر للثقافة بالغرب، ثم جنوبا بلد "لغة أوك" المفتوح على مختلف التيارات للحضارة المتوسطية.

والأمر الذي لا يودّ مرشدنا العالم أن يعترف به، هو وجود كراهية متبادلة، غذتها الغزوات والفظاعات التي مارستها البربرية النوردية لشمال أوروبا، بين مجموعتي الشعوب على طرفي الجبال الوسطى.

فلما يصمت على هذا المقت العنيف، الذي ينفِّر القلوب إلى يومنا. والذي كان يدفع إلى المواجهة أصحاب لغة أوك والبرفانسيين من جهة والفرنشميين القادمين من سهول جرمانيا لغزو الغال المهان.

الهدف من هذا واضح، إذ يجب إفقاد هؤلاء المسيحيين - الذين يحولون دون تكريس شارلمان البربري - ثقة الناس بهم، كما يسمح هذا الخطأ الذي حدث عن جهل بتوطيد الحقيقة المضادة التي ما إنفكت تردد منذ ألف عام.

وهكذا ظلت أسطورة رولان " المؤمن الذي يمنح الله روحه " في ذهن القارئ، ملحمة مسيحي صالح متتبع للحروب الصليبية لشارل مارتل.

ومَثَلُ العقل الموسوعي الذي يتستر على كذبة كهذه، كمثل من يخيط بخرق قطعة قماش بليدة على رداء الإلهة كليو (Clio)، وفعلا لم تكن معركة رونسوفو (Roncevaux) أبدا صورة إبنال (Epinal)، أين أهانت ضربات السيف، والمآثر العظيمة للفرنسيين، مسلمي الأندلس، وكان النصر حليف الفرنسيين بفضل قوة أسلحتهم وبسالتهم وقد قاتل الواحد منهم مائة رجل إن لم يكن ألفا.

لكن الواقع أقبح من هذا بكثير، لأن أخ شارلمان ليس شهيدا في سبيل البرِّ والإيمان المسيحي. بل كان جنديا مرتزقا غريبا، نال العقاب على يد مسيحيين مدافعين عن وطنهم. ولم تكن تلك المعركة سوى حلقة أخرى، من حرب نهب فظيعة دون رحمة، قادها البربري النوردي [الشمالي] ضد الشعوب المسيحية لأوسكاريا (Euskarie).

ولنتمعن الآن في مقطع من كتاب جيل ريشر " في بلد الباسك " «نعرف كيف إنتقم الفاسكونيون (Vascons)».

لقد هاجموا حراسة مؤخرة الجيش الفرنكي في سهل رونسوفو، (منبت الباسكيين)، في الوقت الذي بدى أن شارلمان نزل منحدرات إيبانيتا (Ibaneta) تجاه الفرنان الشمالي (Vernant)».

الإجابة أيضا واضحة، فإن لم تكن معركة رونسوفو حربا دينية واجه فيها المسلمون المسيحيين، فهي إذن حرب جائرة من ناحية شارلمان، وحرب مبررة من ناحية الشعب الباسكي.

يتعلق الأمر إذًا بأنذل مخاتلة عرفها التاريخ.

أليست ظاهرة تتحدى " طبيعة الأشياء " ؟ فشارلمان القديس يكلف نفسه عناء حملة طويلة ضد مسلمي إسبانيا الملحدين، في حين أن الإنتقام يأتي على يد شعب مسيحي بمهاجمة ظهر المحرّر الجرماني المسيحي.

هانحن أمام لغز، ولحله يجب أن نذكر أحداثا غير محببة قادرة على إحداث ما يلي :

1. إحباط قيمة الرأي العام عن طريق المساس بعزة النفس الوطنية المسيحية.

2. القضاء على الحكم المسبق ذو الطابع السياسي والعنصري للإستعمار، عن طريق تجسيد هذه الفكرة لأندريه جيد.

«إن الإنتصار على عدو خفيض الجناح، لا يمكن إلاّ أن يكون نصرًا حقيرًا».

والحديث عن هذا التحالف الغريب بين مسلمين ومسيحيين ضد العدو المشترك «الإمبراطور ذو اللحية المزدهرة»، يقودنا لذكر الطبيعة الحقيقة، للآفة الثانية للجنس البشري، والذي مجرد ذكراه تكفي ليجمد الدم في عروقنا.

وبالخصوص، سنكشف سر «لاتدنو مني !»، وفعلا هذا يعني الكشف عن الحلف السياسي والعسكري لمسلمي الأندلس والباسكيين. أي إنتزاع معطف الفضيلة من البربري الجرماني، وأبعد من فضح السر الأول الذي يعني التهور لوضع اليد على ما يجب أن يقبّل دون أن يلمس أو بالعامية «بوسو ولا تمسّو»، تلك النبتة التي تنفجر ثمرتها بمجرد لمسها وتنتشر حبوبها، والتسبب في سلسلة ردود أفعال، والشكف عن خفايا المكتب الإستعماري الأسود، وتصبح عملية كشف الخفايا والأسرار سهلة كاقتطاف الثمار حتى بالنسبة للمبتدئين.

كانت أغنية رولان في الواقع ضبابا سيكولوجيا، يهدف إلى محو مجرد ذكرى ذلك الحدث الرائع الذي قام به مسلمو الأندلس، حيث عبروا جبال البيريني ليس كغزاة ولكن تلبية لنداء الإستغاثة لجيرانهم مسيحيو الباسك. إن الإفصاح عن الطابع الحقيقي لمعركة رونسوفو، هو الإعتراف بأن روح الفروسية لدى صلاح الدين الأكبر ليست صفة نبل نادرة وشخصية، وإنما واحدة من أسس الأخلاق السامية لدين الإسلام.

ولقد إستوقفت صفة الوطنية التي تضفيها العقيدة القرآنية، المستشرق إيدوراد مونتي حين يشيد بالإنضباط الذي إتصف به حكم إستقاه من مُؤلَف نشر في 1926 بباريس هو " التغريب المشرقي " لصاحبه ر. تريز الذي كتب : «الإسلام، إن كان فهمي له صائبا، يقبل الإنسان في حين أن المسيحية تعترض عليه».

الإسلام طبيعي وتطبيقي، فهو لا يدفع إلى القدسية، بغض النظر عن بعض الإستثناءات، فهو يرضى بالفضائل المتوسطة وهو لا يدعي مثلما تفعل المسيحية إتيانها بثورة إلى العالم، بل هو على العكس يكمل القانون ويثبت بل ويقدس العمل».

ومن جهة أخرى فإن التضامن بين الإسلام والمسيحية ضد المعتدي، يلقي الضوء خاطفا على هذه الثورة العقلية التي كانت أوروبا عاجزة عن تصورها آنذاك، ألا وهي حرية الفكر للفرد، والتسامح الديني للشعب، حيث لا إكراه في الدين، كما يقول سبحانه وتعالى في الآية السادسة من سورة (الكافرون) : «لكم دينكم ولي ديني»، و ليس هذا أمل مؤمن بل مبدأ أساسي ولج ذهنيات المجتمع المسلم.

ونجد البرهان على هذا في الحرية التي سمحت للمسيحيين، بنشر دينهم دون أية عوائق، وبناء كنائسهم، ولقد مهد هذا التسامح لميلاد المذهب المزرَّب Mozarabe، وهو دمج لثلاثة ديانات توحيدية، إتبعه المسيحيون بطليطلة، وبالطرف الآخر لأوروبا، الشركسيون بالقوقاز، وضمن القبائل التي فتحها المسلمون بخَبَرْتَايْ، والتي واصلت تربية الخنزير، حتى القرن السابع عشر.

وسنجد دليلا آخر في قوة الجاذبية، التي تغذي تعاطف الأوكستيين مع مسلمي الأندلس الحاقدين على الفرنشميين، ويتمتعون بإبهار شيوخ العلم أو أساتذة العلوم عندهم.

وفي العام ألف حين كان يحتفل بحمار مع مجموعة مجانين داخل الكنيسة نفسها، . وهو إبتهاج ظل محظوراً حتى القرن السادس عشر. كان جلبرأورياك، راهبًا أوفيرنيًا (Auvergne) يصعد عرش سان بيار [القديس بيار] تحت إسم سلفستر الثاني، بعد أن بهر المسيحية بمحيط واسع من العلوم، لقنه إيّاها الأساتذة العرب المسلمون بالأندلس المضيافة.

إن قيل لي بأن السنونو لا يصنع الربيع، وافقت تمامًا، غير أن شيئا من هذا القبيل لم يكن ليحصل لو كان عدم التسامح قاعدة للسلطة، والتنافر إنعكاسه على الشعب.

قبل أن تتخلى السلالة المالكة لجنكيس خان عن البودية لتعتنق الإسلام، كانت تضطهد المؤمنين في بلاد المغول، خاصة من طرف تْشَاغَتَايْ خَان، الإبن الثاني لمؤسس إمبراطورية السهُب، الذي كانت فظاظته لا تعرف مثيلاً، حين كان يعاقب بقسوة بالغة من لا يحترم القانون المغولي، القاضي بعدم قتل الحيوانات ذبحًا، كما تدعو إليه الشريعة الإسلامية.

ومع أن كوهين كان مؤهلا بصفة خاصة جدا لإبراز التآخي الإسلامي تجاه يهود سيفرديم (Sephardim) لكنه إكتفى بالتلميح إليها مرة أو مرتين بهدف الإشارة إلى أن المسلمين إكتفوا بدور ثانوي في التعاون اليهودي العربي، غير أن الحقيقة التاريخية تلقي في الوحل تلك الأوثان المتعلقة بروح الحروب الصليبية المناهضة للمسيحية والإسلام واليهودية.

ولو كان السيد غوستاف كوهين العالم المتخصص بتاريخ القرون الوسطى وآدابها، قد طالع كتاب نظيره العالم اللساني مارسيل كوهين «اللهجة العربية عند يهود الجزائر» لكان علم بأن قصيدة عبرية «تذلّ شارل كانت نفسه»، فبمناسبة البوريم، (حفلة الأقدار) يغني الرهبان قصيدة تتغنى بهزيمة مضطهد اليهود المتبعين للشعائر البرتغالية - والذين طردوا من الأندلس المستعادة في عام 1492 - أمام الجزائر في عام 1541.

ولننوّه كذلك بحدث لا يقل رمزيّة، فمنبر واحدة من الكنائس اليهودية الثلاث بالشارع المقدس بالجزائر العاصمة، صنع ببقايا خشب مصدرها مراكب الكرافيل من أسطول (شارل كنت)، التي فوجئت بتدخل الوالي سيدي بوقْدُور، الذي يقذف قُدُورًا والذي لا يزال ضريحه يعامل بإجلال وعرفان نقيّ من طرف المسلمين.

وما عسانا نقول سوى أن ذاكرة الشعوب المضطهدة رصينة.

ولو تمكن غوستاف كوهين، عالم القرون الوسطى، من مطالعة «تاريخ البابوات» الذي نشر في عهد نابليون دون أن يعرف له مؤلّف، لكان جمع عددا من الطرفات عن العصر الأوسط، وليكن أوّل مثال منها حفل إستقبال أقيم على شرف البابا بمناسبة مروره بمدينة مونبلي (Montpellier) أين وضع المكلّف بالبروتوكول قنصلاً مسلمًا على يمين الحبر، لأنه كان الأوسع علمًا.

أما المثال الثاني فهو يتعلق بتقليد شفهي ظهر إثر وفاة شارل مارتل، وكان يروي أسطورة معتبرة إذ أعيد فتح قبره، أين وجدت أفعى تعض لسان جثة الميت المتعفنة، إن هذا الإعتقاد يذكرنا بغرابة بعذاب القبر، أو عقاب القبر، أين يُعذَّب الإنسان السيء بأفعى من النار، التي لا تنفكّ عن عضّه حتى يوم الحساب.

وبهذا الصدد، نقرأ في موسوعة الإسلام في الباب "ت 1" «إن فكرة حساب وعقاب الموتى في قبورهم تُوجد لدى شعوب أخرى أيضا. التفاصيل التي تظهر في أصول اليهودية (حبوت حق كبر) تتوازى تماما مع التصورات المسلمة. غير أن هذه الفكرة لن نلقاها إلاّ مؤخرا لدى اليهود، وتَبْدُو وكأنها تنتمي إلى الفترة ما بعد الإسلامية».

هذا المقت الشديد المشترك، والموجه ضد الجلاّدين الثلاث من شارلمان وشارل كنت وشارل مارتل، ليس مجرد صدفة تافهة، بل هو إنعكاس لكراهية الشعوب التي إرتعدت خوفا وعانت من بربرية الثلاث " شارلات ".

أما أناشيد البطولة، وتتويج لويس، وحج شارلمان تماماً مثل القصيدة العبرية بالجزائر، أو التقليد الشفهي الأكستاني، فهي مناشدة سامية لعدالة الله كما هي الإنعكاس الإجتماعي للعنة الشعوب.

ونفهم الآن أحسن سيكولوجية الشعراء اللنفدوسيين المهينة لشرلمان، إذ لم يكن كرههم للطاغية سوى تعبيرا مضاعفَ الروحانية للواقع الإجتماعي.

إن هذه الفجوة الإيديولوجية بين الشمال والجنوب، كانت قد بدأت في الظهور بواسطة البدع الدينية التي كانت أولاها الأريوسية التي قمعها كلوفيس في القرن الخامس، وهي عقيدة تشبه الإسلام لرفضها وحدة الأقانيم الثلاثة.

وفي الفترة نفسها، لم تكن الدوناتية بإفريقيا سوى مظهرا دينيا لثورة الفلاحين الذين لا يملكون أرضا وهم، السركنسليون (Les Circoncellions) أو " الجوّالون حول المزارع " في محاولة للتمرد، على الرومان أصحاب المزارع، والكهنة.

وجاء الإسلام المحرّر، فأعاد الأرض المسلوبة إلى أصحابها الذين أنتزعت منهم في أفريقيا، وكان سياسته الإقتصادية المبنية على التبادل التجاري الدولي الكبير، في حاجة إلى التحرّر الفلاحي والإصلاح الزراعي. لهذا قبلت طبقة النبلاء والبورجوازية بجنوب فرنسا مستقبلا بتواجد عقيدة تهدف إلى الإكتمالية التي تذكر بالتملق الفينيقي.

هانحن أمام قرينة قد تساعدنا على فهم الحرب الصليبية، التي شُنت دون رحمة ضد الألبحيين، والتي سفكت بركًا من الدماء، جمدت إسمنت تشكيل (بناء) الأمة الفرنسية، وبعد ذلك كان فرسان الهيكل الوحيدين الذين رفضوا التدخل العسكري ضد البدعة المانويّة وإكتفوا بأن يكونوا شهودًا فقط. ولكن هل تم تدمير هيكل الفرسان صدفة بعد قرن من طرف فليب لوبل (Philippe le Bel) وكلمانت الخامس (Clement V) أوّل بابا لأفنيون (Avignon)، وجرت محاكمتهم بناءً على تحقيق دومينيكي حول النشاط الخفيّ للهيكل و «تعاطفه العلني أو السريّ مع الإسلام، وإتفاق أسياده مع مسلمي الأندلس، والمتصوفين بالغرب» كما جاء في كتاب جون شاربونتي.

سواء تعلق الأمر بمؤامرة أو بإبادة جماعية، كلاهما وسيلتان إمبراطوريتان للقمع، تزيد من شدة كراهية سكان الجنوب للفرنشميين. كراهية ستستمر طويلا بعد الوحدة الفرنسية.

فلماذا يواصل المستعمرون، المؤرخون أو رجال القانون نفيهم لوحدة الشعب الجزائري بالمقابلة على الورق بين العرب والقبائل وبني مزاب، لم يخفوا بربريتهم الأكستية (Occitan) أليست مستمرة إلى يومنا هذا وتظهر عن طريق مطالب لسانية من دوسنية وبرفانسية وغاسكونية وكاتالانية وأوفرغنتية ؟

ونستشهد هنا بمقال نشر بجريدة (لوموند) "العالم" في الرابع عشر من مارس 1961 : «خلف أسوارها، تحوي بايون عاصمة بلد الباسك، متحفا غنيا جدا بألبسة وأوراق وآثار، تكشف عن روح ووجه شعب لم يرد أبدا أن يفرّط في لغته التي لا نعرف تمامًا أصلها الحقيقي ... وبلد الباسك كل متكامل من عادات ورسوم مثيرة وسكان يتشابهون لأنهم ببساطة ينتمون إلى العرق نفسه، عرق قوي، أكيد ومستديم».

ولماذا يتحدث تيودور أوبانيل (Théodore Aubanel) في ديوانه البرفانسي لو ريرسالو (Lou Reire Saleu) بشوق عن التأثير المغربي، متغنيا ببلده الأصلي وشمسه وقمحه المغربي.

ينتابنا إحساس أن الشاعر العمومي الذي أعاد بعث الشعر البروفنسي، يصف أبطاله طبقا لنماذج واقعية إجتمعت في حفلة بلاط كونت تولوز وهو حمى ملك أندلسي.

أو كذلك في حفلة بلاط صلاح الدين، أين يقدم ريتشارد قلب الأسد أخته جان عارضا إيّاها كزوجة للأمير سعد الدين شقيق السلطان. ريتشارد حامي الصليب، قدم مع هذا العرض جهاز أخته العروسة جان، مملكة بيت المقدس. ونظم أوبانيل ديوان شعر "شمس ما بعد القبر" نورد منه ما يلي من الأبيات :

«طويل وأسمر كأمير مغربي ... إليه تتجه أجمل العيون الخضر : بين ذراعيه تتأوّه النساء.

«وجمعت أناقة المشرق ومظهر المغربية، زكية غضة كالندى والفجر، انظروا هاهي قد مرت من أمامي ...».

كذلك نجد :

«وحين سيراك المغاربة هناك، أيتها الفتاة النديّة ...»

«الخطيب أسمر كالتوت : فالأرض السوداء تعطي قمحا جيداً فلم يذهب للبحث عن خطيبته بباريس، الشاب حكيم، إذ يبنى (قصره) بأحجار الوطن».

ياله من حكم وطنيّ غريب على الزواج المختلط يذكرنا بموقف الشيخ العربي التبسي. لكننا نظن أن رئيس جمعية العلماء، وصاحب «غرناطة المنفتحة» لم يكونا عنصريين، بل يعبران عن الحس الوطني الصادق وإن كان ضيقا.

ويفسر هذا الحكم قطيعة أوبانيل بالذات مع رفيقه القديم فريدرك ميسترال (Fréderic Mistral)، الذي صار مرتدا حين قبل مؤلف ميرايي " Mireilles " وسام جوقة الشرف، كما قبل أن يغنى النشيد الوطني إلى جانب وزير لحكومة " فرنشيمية : ثم إتهم علانية بالإنفصالية، إذ أدار ظهره إلى حلمه الغاريبالدي القديم المتمثل في إنتزاع " إمبراطورية الشمس " من فرنسا وإسبانيا، بتوحيد كل من مرسيليا وتولوز وبرشلونة.

ومن جهته يروي ميسترال طرافة متفجرة، حول الإستحضار الوقح لذاكرة مسترال فرنسي، قُتل خلال أعمال العنف الشعبية بمدينة أفنيون في 1815 وألفونس دودي (Alphonse Daudet) هو بطل في هذه القصة ومؤلف : " متحذلق ترسكون " ويعبر مسترال عن الواقعة بالأبيات التالية :

«ومرة أخرى، ومن الجسر الذي يربط أفنيون بجزيرة باتلاس، كان يصيح: من هنا، من راس الهواء رمينا للرّون (نهر) جثة برون (Brune)، نعم المارشال برون وليكن هذا درسًا للفرنشميين والألبروجيين (Allobroges) الذين سيجرؤون على إزعاجنا مرة ثانية».

بإمكاننا ذكر أمثلة أخرى غريبة ذات دلالة، فيما يخص الطب يتحدث ميسترال عن «الترياق» وهو الدواء الشافي المصنوع من شحم الأفعى والمستعمل من طرف تريكلور البندقية (Triacleur de Venise) بأنه من بين الأوراق السرية التي صودرت لدى فرسان الهيكل، كانت توجد طريقة إستعمال مجسدة برسومات للترياق، وهي تركيبة خاصة بشفاء (علاج) من تعرّض لعضة حيوان سامّ.

ولا يفوتنا أن نشير بأن كلمة ترياق التي استوردت من البندقية ومن بيت المقدس في آن واحد تعنى تمامًا: ضد سمّ، أي الدواء الشافي من السم، فالعرب إذن قد وجدوا إسما لدوائهم، لكن عالم القرون الوسطى الجليل يصر بأن طبّ القرون الوسطى له مصدر واحد وهو غاليان الإغريقي. ليس هذا خطأ لكنها ليست كل الحقيقة وهذا يدعو إلى ملاحظتين لابد منهما، أولا يجب أن لا ننسى العبارة اللاتينية «ما هو إغريقي لا يقرأ» والتي إحتراما لها كان النساخون في العصور الوسطى يرفضون نقل الكلمات الإغريقية التي كانوا يجدونها في المؤلفات، ربما كان هذا راجعا لجهلهم أو لتعصبهم، هذا يعني أن للعرب الفضل الأكيد لإحترامهم كل العلوم، ولو كانت ملحدة، فلولا العرب لما عرف الإغريق. ثم قدموا بعد ذلك أعمالا مبتكرة، وفي القرن الحادي عشر، إستفادت مدرسة ساليرنو المفتقرة إلى كتب الطبّ باللغة اللاتينية من مؤلفات طبية عربية قام يهودي معتنق للمسيحية بأخذها إلى تونس، ثم ترجمها ونسبها إلى نفسه كما لو كان مؤلفها.

عن اللاتيني يكتب أوفيديوس «إنني أرى الخير وأستحسنه لكن الشر هو الذي أفعل» في كتابه (التحوّل VII 2) أما عن إحترام المرأة فهو يكتب : «الحبّ هو الإكتشاف الأكبر للقرون الوسطى وخاصة القرن الثاني عشر الفرنسي».

كيف يمكن أن نجهل بأن الحب الغزلي، الذي يتغنى به مطربو التروبادور بأوربا، هو في الحقيقة إختراع عربي أندلسي في القرن الثامن، حين إنبجس عن روعة البلاط القرطبي، أو سحر قصر الحمراء بغرناطة لماذا هذه المحاولة لحجب ضوء الشمس باستعمال غربال؟ إن كان هو ذاته يبرهن بأن اللفظ البروفانسي " تروبار" أي الشعر الغنائي، هو شقيق للفظ العربي " طرب " بمعنى إهتز وأضطرب فرحا أو حزنا، وابتهج بالغناء والموسيقى.

وكيف نجهل في القرن العشرين بأن الحبّ الطاهر الذي لا يحتاج إلى حزام العفة، ليس هو الآخر إكتشاف القرن الفرنسي الثاني عشر، بما أنه عرف بدولة بني أمية بقرطبة أربع قرون قبلاً، وأكثر من هذا لا ننسى " الغزل " وهو الشعر الغرامي أوالخمريات وكلاهما إخترعه العرب الجاهليون قبل الإسلام. والفارق الزمني بين "مجنون ليلى " الذي ألهم فيما بعد الشعر الغنائي الدرامي، وبين نظيره " تريستان وإيزلت " الرواية التي جاءت بشكل أبيات شعر درامية غنائية، لصاحبها واقنار (Wagner)، يصل إثنى عشر قرنا أو أكثر.

ولاعلاقة لهذا بالإعجاز، لأن المجتمع الإسلامي كان الأكثر تطورا وتهذيبا وتحضرا، وكان لا بد أن يزدهر الأدب الأنيق بصفة طبيعية، في ظل المهارة التي نجمت عن التجمع التكافلي ما بين العبقرية النسوية للقرآن، والأناقة الساحرة لألف ليلة وليلة.

وبالفعل لو تجاوزت معرفتنا للإسلام حدود اللفظ، لإكتشفنا في النصوص المقدسة أوالدنيوية منبعا مزدوجا ملهمًا لروح الكياسة في الفروسية. فقد تمكنت من التوصل إلى توازن متناسق بين صرامة النسك والزندقة أو الفجور، يبرز جماله في النداء التالي للإعتدال، والذي جاء في الآية 43 من سورة النساء حين يقول تعالى: «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون».

وكيف يمكن أن نجهل في القرن العشرين أن ربيع تحرير بنات حواء حلّ مع فجر الإسلام، فبغض النظر عن نظام الأمومة لما قبل التاريخ، أين كانت المرأة تتمتع بسلطة متفوقة تامة، فديننا هو الأوّل الذي بدأ إعادة تحريرها، بتخليصها من حالة الدّونية القديمة التي وقعت فيها من جديد.

والمجتمع الإسلامي المتعلق بالإقتصاد التجاري الحر، قد حرّر المرأة من وصاية الزوج عليها بمنحها الحق في تسيير أملاكها، وتجارتها، وميراثها مباشرة

وبصفة شخصية. ولكي ندرك مدى أهمية هذه الخطوة الثورية، لابد أن نذكر بأن هذه الكفاءة لم تمنح للمرأة الفرنسية من طرف الجمهورية الخامسة، رغم ثلاثة عشر قرنًا من التأخير، قد يجد المستعمرون المتعاطفون مع البربر في حرمان المرأة القبائلية من الميراث، دليلا على برودة الإسلام وعلى العدوانية العربية تجاه سكان جبال الجرجرة.

لكننا سوف نقوم مرة أخرى بفضح مخاتلة أخرى، قام بنشرها أعداء الإسلام والشعب الجزائري، فالحقيقة التاريخية تبرهن عكس ذلك.

كانت المرأة القبائلية ترث بالفعل كما ينصّ عليه القانون الإسلامي، لكنها حرمت من هذا الحق، بفعل قانون عرفي، بعد واقعة دبلوماسية أخلّت بالتناسق الوظيفيّ للحياة الإجتماعية.

أليس الأمر غريبا ؟ لكن الإستغراب لن يدوم، بعد أن تشرح الظاهرة التي تبين بأن الأفكار والسلوكات الإجتماعية رهينة لتغير الأحوال المادية، والتي تعتبر العامل المقرّر.

فأفراد الزواوة أو القبائل لم يتقوقعوا أبدا في جبالهم، فكثيرون منهم غادروا الجرجرة ليسكنوا الجزائر كعمّال أو تجار، أو ليبحروا في شباك الأسطول الحربي أوالتجاري، أين لمعوا (برعوا) كربّان أو رؤساء لا يقلّ إقدامهم عن إقدام سركوف بارون الإمبراطورية، لكن إن أخفق هؤلاء البحارة وقعوا في قبضة الإسبان، وانقطعت أخبارهم تمامًا، ولا يعودون أبدًا، مع أن الدولة العسكرية الجزائرية كانت تسمح للرهبان بزيارة المساجين المسيحيين، وبممارسة شعائرهم الدينية داخل السجون وبشراء الأسرى.

وفي منطقة القبائل، كانت زوجات البحارة المختفين (المفقودين)، قادرات على الزواج من جديد، وكنّ حرّات في التصرّف في أملاكهم وفي ميراث الأزواج المجاهدين.

أمّا الواقعة الدبلوماسية التي أخلطت الأمور، فقد وقعت في القرن السادس عشر أو السابع عشر حيث قررت الجزائر ومدريد تبادل أسرى الحرب البحرية، وكان هذا قبل ميلاد الهلال الأحمر الدّولي.

عندها عاد الشهداء - الأحياء الذين أعتبروا موتى إلى القبائل، حيث لم يجدوا زوجاتهم ولا بيوتهم، ولا (تاكوريت) أي قطعة الأرض المغطاة بأحجار سوداء أعلى التل المنعزل. هذه العودة بعد «هجرة قسرية» تسببت في إضطرابات أكيدة ذات طابع إجتماعي، ومطارحات قبلية أوحرب أحشاء، نتيجة للزواجات بين قبائل مختلفة داخل حلف أو كنفدرالية الزواوة.

ومن أجل إعادة التوازن إلى العلاقات الإجتماعية، شكّل العلماء مجلسا إتحاديا (كونفدرالي) حسب الشريعة الإسلامية، لتسوية وضع عقائدي ومدنيّ وسياسيّ لم يرد

لا في القرآن ولا في الحديث أو السنة، وعهد تجمع الأساتذة إلى منهج أورثوذكسي هو صوت الجماعة أو التوافق أو الرّضا المجمع عليه. وكان الحلّ الإستبدالي أن حرمت المرأة من الميراث، و فرضوا على الورثة الرّجال ضرورة التكفل بالنساء من عائلتهم ولو كانت درجة القرابة ضعيفة، كما يفرضه قانون الأنفة أو الشرف في المجتمع الأبوي القديم، وبما أن الفكرة تتخلّف عن الإقتصاد، فإن الحرمان من الميراث ظلّ قائما رغم زوال الظروف الإقتصادية والسياسية التي فرضته.

ومع تطور الذهنيات أصبح قرار نزع (رفع) اليد مهينا وغير عادل، وانتشرت بعض المبادرات الشخصية لتعديل أوتصحيح القانون العرفي بتعميم " الحبوس "، الوصية الممتثلة للشريعة الإسلامية أمام القاضي الموثق، فالتحرير الإسلامي ينتصر بفعل التحمس الديمقراطي الذي ظلّ حيًا [قائما] في «جبل الحديد» الذي إنغلق أمام الرّومنة ثم الفرنسة.

وعلى الرغم من حراب المستعمر فإن الخلق الإسلامي واصل إكتساباته في الجزائر وإفريقيا السوداء على حد سواء.

وليس القرآن أخلاقيات بلاغية محضة، فالفرقان هو كتاب يبين الفرق بين الخير والشر، وهو الذي حدّد تعدد الزوجات لأربع أو ثلاث أو إثنان، في حين أنه كان غير محدود. غير أنه يوصي بالإكتفاء بزوجة واحدة إذ لا يمكن أن يظل من له أكثر من واحدة عادلا وحياديا فيقول عز وجل في الآية " 3 " من سورة النساء : «وإن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى أو ثلاث أو رباع، وإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم».

كما وضع الكتاب حدا للتمثيل بالعبيد كبرد الأسنان والخصاء والحروق الجسدية. إلخ.

وبفضل الإلغاء النهائي للعادات الوحشية المبغضة للنساء، والقصاص اللاإنساني الذي كان يحبس اللواتي خنّ أزواجهن، أصبح بعد ذلك شرف الزوجة محميًا من النّميمة نتيجة لتشريع صارم كما جاء في الآية " 15 " من سورة النساء: «واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعةً منكم فإن شهدوا فامسكوهنّ في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهنّ سبيلاً».

ولأول مرة في الحياة الإجتماعية تساوى الرجل والمرأة أمام القانون وصار نص القانون يطبق عليه تمامًا كما يطبق عليها.

لنذكر الآن بان الفكرة المركزية للحكاية الرمزية لشهرزاد كانت تحرير المرأة من البربرية الرجالية، إذ كانت البطلة الجسورة والذكية، تسحر بقصصها شهريار (شاه

ريار) نظير ذو اللحية الزرقاء (Barbe Bleu) لدى الغرب، والذي كان يقتل زوجاته المتتاليات (الواحدة تلو الأخرى) ألف عام قبل أن يخلق بيرّو (Perrault) شخصيته.

أليست الحكايات الخرافية لألف ليلة وليلة البطولية والعذبة، طرزا عربيا فارسيا مبتكرا، يتحول فيه الحرير والفضة والذهب إلى حب وكأس وغناء.

لكننا مازلنا نتساءل: كيف أن مختصا في تاريخ الأدب، يصرّ على تجاهل أحداث فترة زمنية يعرفها معرفة تامّة؟. فنبل الجنوب غيّر صرامة الإقطاع إلى لطف رقيق عندما إحتكّ بحضارة البحر الأبيض المتوسط، والحضارة العربية الإسلامية الأقرب في الأندلس المسلمة.

إن الذاتية الأدبية المبنية على أساس أحادي الجانب، وهي هيبة وسحر الثقافة الغربية، قد تقود عبدها إلى دور سجان الفكر المبدع.

وعندما يتعلق الأمر بالعرب والإسلام، فإن عالم القرون الوسطى في فرنسا يتفق مع أخيه المستعمر، عالم القرون الوسطى بشمال أفريقيا، وإن مؤلف " النور الأكبر للعصور الوسطى" (La Grande Clarté du moyen Age) ينحط إلى سفالة الدونية العلمية، لعصور الظلام المغاربية، للعالم الجغرافي والتاريخي قوتيه (Gauthier) ويوصي الطلبة بكتابين على أنهما كلاسكيين حول النقد المتجرّد، غير أنهما في الواقع مجرّد نصيّن تبريريين فحسب، وأين يحاول الدفاع عن المسيحية لتبرير الإضطهاد الذي مارسته في الخارج، فتسلط :

الجرمان على الغاليين والرمان على البربر

ياله من مشروع ملتزم على إختلاف الوسائل والطبائع الشخصية. فالضابط المظلي يحرق مراكبه وهو يقول مثلا : «حتى ولو فقدنا شرفنا، يجب أن تظل الجزائر فرنسية». أما الأكاديميون فهم الأذكياء الذين يودون الغوم دون أن يلحقهم بلل، محاولين إشراك الأخلاقيات والجماليات مع النخاسة. وثمة إختلاف صغير فغوتيه (Gauthier) يكذب بهدف تزوير التاريخ، في حين أن كوهين يزور التاريخ حتى يجعله يكذب.

وهل نستغرب أن معركة بواتيه (Poitiers) تقدم حسب قانون حتمي كظاهرة ثابتة بالنسبة للمستقبل، كيفما كان المجرى النهائي للحدث وكتب كوهين عن هذا :

«وكذلك نظريا، لو عوضنا إنتصار شارل مارتل ببواتيه بهزيمة، فإنه من الجائر تخيل بلدنا وقد إعتنق دين محمد، غير أن المسيحية كانت قد تركت به جذورا عميقة في عام 732، ومن جهة أخرى فإن مثل إسبانيا يبين بأن الفتوحات الإسلامية بأوروبا فيما يخص العقيدة قصيرة العمر».

وهاهو دليل إضافي على المهارة اليسوعية التي طالما خدعت "الطلبة" المكونين بالجامعات الإستعمارية، وكما يقذف سمك الحبّار سائله المسوّد ليخفي هربه، فإن الكاتب الأكثر إطلاعا وعلما عن القرون الوسطى يضرب بالأسود على مرّ من تاريخ فرنسا والعالم.

وبما أننا لا نملك السلطة الكنيسية لنبعث له بشهادة إحضار، ونرغمه على البوح بالأحداث التي يعرفها، فسوف نحاول جمع بعض المقتطفات مما يريد التكتم عليه.

1 . عزل المادة الدينية عن إسلام غير قابل للتجزئة، حيث لا يمكن فصل علم العقيدة عن الأخلاق وعن السياسة، يعني تحريف الحقيقة التاريخية بتقديمه، كمحاولة زائلة لإغتصاب الفكر.

2 . إقتراح التذكير بشعار الإسلام الذي يفرض نفسه بالسيف، يقوم بإخفاء ظاهرة المساواتية بين الأديان، التي تذكرنا ديناميتها بتلك التي إتصفت بها الشيوعية، والتي لقبها فيلسوف فرنسي " بإسلام القرن العشرين "، ونتقدم لنبرّر مسبقا الحروب الصليبية الإيمانوسياسية والغزو الإستعماري.

3 . وإن نفينا وجود فلسفة إنسانية وحضارة تجارية، فنحن نواري كل ما أنجزه خلال قرنين من الزمن السّرزيون أي الزارعون الذين أخترعوا القمح الأسود، والفلاحة بالري، والطب والصيدلة، وعلم الفلك، والعمارة ونسج الحرير والصياغة، ثم التسامح والتعايش السلمي.

4 . تقديم معركة بواتيه كصدمة دينية فقط، يرمي ستار النسيان على ماضي جنوب فرنسا المجيد، وهو المجتمع الذي إلتقت فيه تيارات التقدم البشري المنقولة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، من طرف العرب والفنيقيين والقرطاجيين والسّرزيين من الأندلس.

من السهل على كوهين المبتذل «دنس القلب والأذنين» أن يمحو الكتابة الأصلية من المخطوط ويصنع طرسًا يبدو وكأنه مخطوط أصليّ.

يقول مثل جزائري بهذا الصدد: «لا ينكر أصله إلا البغل» ولكن كيف نمحو ما هو مطبوع بروح نصف فرنسا، ومنقوش على حجارها، وفي إسم نجوم سماها، وفي كلامها ومواقعها، وفي أسماء أعلامها وشعرها ونسائها ...

وهل ينجح كاهن منجم، في توقيف السياق الحتمي للواقع المتحرك، عن طريق تزييف حقيقة كشف عنها بفحص أحشاء الأدب القديم ؟

وهل كان يوم إنتصار مارتل البربري في بواتيه إشارة إيجابية أم مصيدة شعبية ؟

غوستاف كوهين الذي غرق عقله وارتج قبله بهيامه بالكارولينجية، يتظاهر بأنه لم ير في المعركة إلاّ معركة مجردة من العواقب، تواجهت فيها عقيدتان زاهدتان في الدنيا، إنها طريقة حذرة لكن شفافة وواضحة، لتأكيد تأييده للبربرية على حساب الحضارة.

ولن يستسلم إلى الحنين لماضي قضى، فلننحني بكل إمتنان للفرنسيين مؤرخين كانوا أم شعراء، الذين إتفقوا ليحكموا على هزيمة أجدادنا، إن هؤلاء الذين يحاولون زرع النور أمام "بواتييه " هم في الحقيقة آلهة محرفي تاريخ العالم.

يكفي أن نُخرج من ذاكرة المنسيات، نموذجًا للحقيقة التاريخية التي يشفي مسكها من أنف العقول المزكومة بالشوفينية، وهو شهادة في شكل قصيدة غنائية لضابط بحار إسمه كلود فارير «Claude Farrère» من الأكاديمية الفرنسية.

«العام 732 من عصرنا، هو عام الكارثة ربما أكثرها ضررًا في القرون الوسطى وقعت على البشرية جمعاء وغرق عالم الغرب لسبعة أو ثمانية قرون إن لم يكن أكثر في أعماق بربريّة بدأت النهضة تبدّدها وكاد الإصلاح يعيد لها كثافتها هذه الكارثة التي أريد أن أمقت حتى ذكراها، كانت الإنتصار الشنيع الذي أحرزه بالقرب من بواتيه الخونة المتوحشون، المقاتلون الفرنجة تحت قيادة الكرولينجي شارل مارتل، على الكتائب العربية والبربرية للخليفة عبد الرحمان الذي لم يحسن تمركزهم، فماتوا. في هذا اليوم المشؤوم، تراجعت الحضارة بثمان مئة عام فيكفي أن نكون قد تجوّلنا في حدائق الأندلس أو بين الآثار الفاتنة لتلك العواصم الساحرة والخيالية لصقلية وغرناطة وقرطبة وحتى طليطلة لكي تتراءى لنا النشوة المعجزة لما كان سيصيب فرنسانا لو إنتزعها الإسلام االمتّسمُ بفلسفة التسامح، و المسالمة فالإسلام هو كلّ هذا. من الفظاعات التي لا إسم لها إكتسحت بعدها بلاد الغال القديمة التي سخرت بداية لعصابات الأسترازيين ثم جزأتها ومزقتها فأغرقتها في بحر من الدم والدموع وأبادت رجالها الحروب الصليبية، ونسفتها جثثًا العديد والعديد من الحروب الخارجية والأهلية، في حين أن العالم الإسلامي كان يزدهر ويطل على العالم من الوادي الكبير بالأندلس منتصرًا بسلمه في كنف الخلافات الأربع السعيدة لبني أمية وبني العباس والسلاجقة والعثمانيين. ليست هذه القصة الرسمية الكاذبة التي تدرّسها الكتب المدرسية للمترشحين الفرنسيين الصغار بمدارسنا، بل هي القصة الحقيقية التي نلقن أنفسنا، إيّاها لما قطعنا من بحار وعبرنا من أراض وتصفحنا من مكتبات أجنبية وليس كثيرًا على طول حياة رحالة أن يدرك في نهاية المطاف ويلمس الكذبة الكبيرة الصفيقة التي أراد ولا يزال يريد أساتذتنا فرضها علينا كما لو كانت حقيقة كما لو كانت الحقيقة أتوجه إلى هؤلاء الفرنسيين وأسألهم بعد ذلك كيف يرون نصرنا لـ 732 على المسلمين؟ وإن كانوا سيحكمون مثلي بأن هذه الهزيمة لشعب متحضّر على يد شعب بربري، كانت بالنسبة للبشرية جمعاء، «مصيبة كبرى».

الفصـل الثالث

وعي طبقي وحس وطني

إن الأهمية التي منحت للمظهر الديني ذي الحس الوطني الثوري، لم تكن لتشوه الطابع «البورجوازي» لعقيدة مضطربة قصدا، هدفها ترويج خرافة «النسق الإجتماعي». عكس ذلك.

فقد أردنا فقط أن نبين بأن العقيدة السياسية لجبهة التحرير الوطني تغوص بجذورها إلى عمق الواقع الجزائري، فالمسألة الدينية بالنسبة لنا فعل إجتماعي وسياسي ليس فيه أية غرابة، وهذا ما يفسر لماذا أجملناه تقريبا ضمن الأرضية المتبناة من طرف مؤتمر الصومام، الوثيقة الداخلية الموجهة أولاً إلى مناضلين مطلعين وإطارات وضباط.

وذلك لأننا فتشنا في أمر الحصول على نظرة نافذة للظاهرة الدينية التي أستطعنا تقدير إشكالها الإقتصادي السياسي أو الإيديولوجي، ضمن كل مجتمع بشري وعلى وجه الخصوص ذلك المتعلق بالمجتمع المسلم:

إن لنضال الطبقات مدلولاً حيا تواجد في المجتمعات الشبه رأسمالية، إلاّ أن نزاع الفقراء والأغنياء في الجاهلية الحقبة المناهضة للإسلام، وكذلك في فجر الإسلام، لم يكن يعبر عنه إلا تحت شكل معارضة سياسية دينية : المنح الغفراني المسيحي، الفكر الخارجي، والشيعي والقرمطي. إلخ.

عكس الحقائق التي نكررها منذ ألف عام، بشأن القابلية الفطرية لدى المسلمين فيما يتعلق بتحرك الإنفعالات من أجل العدالة الإجتماعية، وهذه الآن أروع الأمثلة للحكم على أبغض حالات إستغلال الإنسان للإنسان.

لقد بين الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مسؤولية المجتمع في الإضطراب المتولد عن المجاعة، قبل المنظرين للإجرام الحديث بكثير.[1] لاحظ كيف برّأ مقترف الجريمة بالحكم على المتسبب الأساسي، لقد أقر بعض الخدم بسرقة ناقة لسيدهم وحسب حكم الفترة يحكم عليهم بقطع الأيدي. لكن الخليفة جعلهم يمثلون ثانية أمامه ليحاكمهم حسب الحالة المظهرية، كانت وجوه الجناة شاحبة العيون ذابلة، الأجسام ضعيفة بفعل البؤس والجوع، أمير المؤمنين يشترط الحضور الفوري لسيدهم المجوِّع المسؤول الحقيقي عن الجرم، حيث يحكم على السيد بدفع ضعف ثمن الناقة المسروقة للمتضررين، وطلب إلى الفتيان الجانحين عدم إعادة فعل السرقة.

حديث مروي لأبي ذر الغفاري مفاده «أن الله وضع العدل على لسان عمر ليعبر من خلاله عن كلمته».

إن البحث عن العدالة الإجتماعية لعمر الحق، كان مشتركا أيضا مع المحافظة على التقليد المحمدي، يعرف هذا الأخير بعبارة تبرر عنف ذوي البطون الخاوية حيث يقول:

«أتعجب للذي لا يجد خبزا في بيته ولا يخرج ملوحًا بسيفه على الناس[2]»

إنه أبو ذر الغفاري شخصية ذات خاصية مثيرة، يقدمه لنا الكاتب المؤرخ المصري أحمد أمين في كتابه «فجر الإسلام» كرجل رائد، زاهد ومثقف بليغ، يعد من بين الشخصيات الأكثر حبا لدى العامة»، إنه مشتهر أيضا بعدد الأحاديث التي جمعها من فم المبشر بالإسلام المحرر.

إنه صاحب النبي (صلعم) كان خامس (أو رابع) مؤمن.

«نميزه بهوانه وتقشفه، لذلك يقال إنه كان يشبه المسيح، وإنه نافس بن مسعود في مادة علم الدين، وينسب له نقل 281 رواية، نقل البخاري ومسلم 31 من بينها». (موسوعة الإسلام ج 1).

يتجلى لنا أبو ذر الغفاري أيضا كأول إشتراكي ثوري في الإسلام.

فالطبري هذا المرجع المؤلف لـ : «فجر الإسلام يخبرنا بتفاصيل جديدة عن العمل الذي قاده صاحبنا الإشتراكي، إن رفيق محمد الإشتراكي القريب من النزعة

---

1. أورده أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام. القاهرة الطبعة 7 ص 142 يشهد محمد علي معرفته بالثورة» روح الخلد يتكلم من خلالي، وكلمته على لساني، (سمويل 23 إحصاص 2 نشر باريس 1957).

2. عجبت ممن لا يجد القوت في البيت كيف لا يخرج على الناس شاهرًا سيفه (ذكره خالد بن محمد في من هنا نبدأ).

الماركسية فعلاً كان ذا دعاية فعالة مضادة للأغنياء. متذرعًا بآية قرآنية مفادها أن غضب الله سيكوي بالحديد المتوهج «جباه وجنوب وظهور» كانزي الفضة والذهب.

إن مناضلنا الإشتراكي ينجح في خلق حركة جماهيرية لدى الفقراء «مجبرا بذلك الأغنياء على الإمتثال لمبدأ القرآن وتطبيقه».

يستدعى مناضلنا الإشتراكي إلى المدينة من طرف الخليفة عثمان بدعوة رفعها الوالي معاوية ضده.

الغفاري ينسحب. أو بالأحرى ينفى إلى الربضة حيث يموت عام 32 هـ (652 ـ 653 م) ويحسم معاوية الإختيار بعد إبعاد أبي ذر بين الضمير والنظام، وكان ذلك آخر موقع طبقي لصالح الإغنياء الذين يستأثرون بالثروة والجاه.

إن هذا التحكيم المتعسف (من فوق رؤوس الأحزاب) للحفاظ على النظام المكرس يذكر بنفاق النظام الرأسمالي أو الإستعماري.

كان هذا الإفتراء الإمبريالي حاضرًا وغابرًا يعبر بوضوح عن العداء لطبقة الفقراء، كان ذلك يترجم الخوف من الشعب وبغض الديمقراطية، كان القانون ينتصر على الإيمان.

إن التدرج الطبيعي لمضطهد الغفاري لصالح الطغيان، يؤكد حكمنا على معاوية الذي حل مكان الخلفاء الراشدين الذين سلكوا السبيل القويم، يصبح حاميًا للبطون المذهبة وينحرف عن الديمقراطية المحمدية لتأسيس السلالة الوراثية الأولى في الإسلام.

إن أمراء المؤمنين الأربعة الأولين قد تَمَّ انتخابهم تباعًا خلفاء لرسول الله (صلعم) بواسطة الشورى.

لقد كان أبو بكر الخليفة الأول مشتهرًا ببساطة حياة مثلى، وبتخليه عن كل ثروة، عن كل أبهة، عن كل إدعاء.

الخليفة الرابع، علي إبن أبي طالب، بن عم محمد وصهره، معروف قبل كل شيء بشجاعته الأسطورية كحامل لواء أو قائد أعلى.

لقد غذت هذه الصراعات مع معاوية آدابا ضخمة حول البدع، لكن شخصية هذا الرجل لم تكن موسومة فقط بصرامته في متابعة الشعائر الدينية، بل كان على وجه الخصوص رائدًا في مجال العدالة الإجتماعية، لقد كنَّا نجده دائمًا إلى جانب المعارضين السياسيين المحرومين والفقراء.

عندما أُمر بنفي أبي ذر الغفاري الذي كان يحرض الجموع ضد تجاوزات الأقوياء، ذهب علي برفقة إبنته لتحيته عند مغادرة المدينة رغم تحذير الخليفة، وهو ما آثار خصومة عنيفة مع عثمان.

... بعد ما تمت مبايعة عثمان بالخلافة نجد من بين بطانته شخصيات معروفة بعدائها للسلطة حول مسائل إقتصادية لم يكن يعرف عنها برنامجها لمواجهة المتطلبات المالية المقدمة من طرف الجند فيما يخص توزيع فائض العائدات. (وكذا توزيع الأراضي العمومية، إلخ.)

« نعرف بأنه عند إتمام المبايعة بالخلافة لعلي استنفد توزيع كل ما كان قد وجده في بيت المال بالمدينة والبصرة والكوفة». (موسوعة الإسلام ج1).

لم يكن هذا التصرف ذا عقلية ديماغوجية كما نجده في أوصاف الديمقراطية الإجتماعية الحاكمة، لم تكن إشتراكية عليّ طوباوية، نعلم أنه قدم لعمر بن الخطاب مشروعًا ملموسًا لإصلاح زراعي، كان ينوي توزيع أراضي السواد، أي الأراضي المشاعة في العراق، ولم يستطع تحقيق ذلك مخافة المنازعات (البلاذري، فتوح البلدان 265).

هكذا كان للنضال من أجل الإشتراكية قاعدة دينية، هذا ما يثبته مواطننا السيد جاك بيرك[3] :

علي أثير النبي (صلعم) الذي أخذ مسبقًا موقعًا طبقيا في إسلام حقبته يجعل منه ذلك بطلاً[4].

الإذلالات الإهانات، عراكات الشيعة ضد السنة التجديد ضد المحافظة، الإخلاص ضد النفاق لم تكن إلاّ شيئا واحدًا « في عيني الوردي».

كان الإستعمار لزمن طويل ينجح في نعت الجزائريين الثائرين، أنصار المساواة الإسلامية، والإصلاح الزراعي والعدالة الإجتماعية بالمارقين، المتحولين «المتهودين 3».

أبو ذر الغفاري رفيق النبي (صلعم)، صديق الإمام علي أثير محمد (صلعم) الإشتراكي الأول لحقبة الإسلام، لم ينج من القدح، كما لم ينج من الإبعاد، إستحال علينا منذ عشرين سنة العثور على الغفاريات : كتاب لمؤلف مجهول جمع في هذه الوثيقة المتفجرة أقوال وأفعال المبشر بالإشتراكية.

---

3. جاك بيرك العرب من الأمس إلى الغد باريس 1960 ص 250.
4. فجر الإسلام الآنف الذكر ص 269 - 270

فيما يتعلق بالإقطاعيين وكبار ملاك الإقطاعات والبورجوازية الذين يشحذون أسنان القرش الصناعي المزودين بها، فإن صراع الطبقات حقيقة، وليس زهرة إعادة تنظير إخترعها كارل ماركس لإرعاب أوروبا الرأسمالية.

إن أعداء كل إصلاح زراعي، وإلغاء إستغلال الإنسان للإنسان، يجيدون الدفاع عن أنفسهم بصنع الأسلحة نفسها ضد حامل كلمتنا الأمثل.

لذلك واجهنا هذا العدوان ببعض المباغتة وفائدة حتمية بالدعوة الإشتراكية لأبي ذر، إن نداءه الإشتراكي إلتقط في وسط مجتمع سري مؤسس من طرف عبد الله بن سبأ اليهودي المتحول إلى الإسلام « بنية تفكيكه 4»

«لقد سبق وأن نعت رسل قبلك بالكاذبين ولكنهم تحملوا بصبر نعتهم بالكاذبين وسيئت معاملتهم إلى أن جاءهم أزرنا».(القرآن 6 آية 34)

إذن لو لم يخترع غوبيلس . أو يحسن ويعصرن . الشعار اليهودي الماركسي لانطفأت سلالة المعاويين، بينما ينتصر أبناء أبي ذر.

قبلئذ أزيح الخليفة عبد الحميد II على يد ثورة أتاتورك، وأبطلت وظيفته من طرف الجمعية الوطنية التركية في 3 مارس 1924، وكان الخليفة قبل الأخير قد أضعف الإمبراطورية العثمانية بالإمتيازات الممنوحة للأمبرياليين الأوروبيين، وكان قد أزال لقب الرئيس العالمي للإسلام بسبب الخمر والدعارة والخيانة.

كانت الوطنية تتغلب على النفاق السياسي الديني، والتي صارت أكثر إنحرافا من ذلك الذي يأتي ببهتان متضرعًا إلى الله (القرآن س VI آية 21)

لقد قبلت يومئذ فكرة التطور الحتمي للمجتمع، مؤرخو الجزائر الإشتراكية يجدون في وطننا في حياتنا الإجتماعية الإقتصادية والسياسية حركات ثورية مقنعة.

لم يكن لدى البعض إلاّ عقلية مرحلية محمومة، مثل الفتن العائدة أصلاً إلى معارضة الإصلاحات المالية المناقضة للمبدأ الإسلامي (أخذ الضريبة المحددة بدل العشور).

بينما كان لدى آخرين عقلية شاملة أكثر عمقًا مثل الفكر الخارجي الذي صار مسيطرًا على جنوب البلاد التونسية والأوراس و المغرب الأوسط .

لقد زرع الغفاري الإشتراكية في تربة لم تكن معدة لإستقبالها. الفقراء وصغار الناس لم يكوا قادرين على الكفاح من آجل نجاح نهائي ضمن مجتمع حيث كانت البورجوازية طبقة متناسلة أكثر جلاء وأكثر عنفوانًا.

يجب إنتظار إبن خلدون لإعطاء الفكر المسلم فلسفة مادية للتاريخ المتلعثم مجدداً، لكنه شامل لحقبته.

كانت نقطة الإنطلاق لـ « نوعية جديدة» في الفكر العربي المسلم الممزق بين الجبرية والقدرية، إنهم من ينفون الجبرية من آجل التحكيم الحر.

كان بن خلدون أول مفكر عربي يؤثر الإرتقاء فوق المترددين والنظريات المتذبذبة في الروحانية، نافذاً إلى إيديولوجية أكثر تجسيداً وأكثر تطوراً.

إعتمادا على الملاحظة والتجربة يكتشف القوانين المتعلقة بالتنافر بين البدو الرحل والحضريين، حول عقلية الكتلة ضمن الجيش الإقطاعي، حول حياة السلالات هاتكا للنظرية الفارسية «دم الإله» للملوك ومبرراً مبادئ المساواة للإسـلام.

لقد ظهر صقرنا في العلوم بجدارة مع فجر علم الإجتماع، يكتشف بفضل نظرته الثاقبة طب التحليل النفسي المشتهر جداً في زمننا.

إنها حقيقة أولى، تلك التي تبين العلاقة التي توجد بين عالم الحياة وطريقة التفكير، وتميز مدى إختلاف الفيزيولوجيا عن التركيبة النفسية، لكن بالنسبة لهذه الحقبة كان ذلك تألقاً وحيازة أناقة تمكن من شرح الحمية الدينية لدى الفقراء، وفتورها عند الأغنياء تحديداً بمناسبة صيام رمضان[5] ! المجد الأبدي لرواد العلوم الإجتماعية !

بفضل العقيدة الخلدونية المثراة من طرف : ڤيكو، مونتيسكيو هيغل، ماركس، لينين، ستالين، ماوتسي تونغ، صار بميسورنا إدراك لماذا يختار الثري المسلم الشهر المكرس للصيـام كي يسافر إلى فرنسا أو أوروبا، دافعاً أجرة ساعات العمل الإضافي لمستخدميه كلاماً، داعيا لهم ولذويهم بالرحمة.

مثل هذا كان أحد مصنِّعي التبغ في مدينة الجزائر يقدم لأرباب الأسر في مؤسساته كبش أضحية العيد الكبير ذكرى معجزة إبراهيم مع إبنه إسماعيل، ولم يكن يعلم سبب جحود مستخدميه المسلمين الممارسين وغير المنضوين في النقابة حتى ذلك الوقت، إلاّ عام 1936 عندما طالبوه إضطراراً عن طريق الإضراب بالراتب المرتفع المدفوع من قبل مصنعين كفّار.

---

5. الوضع مختلف في كل من تونس والمغرب أمام ملاحظة رمضان ويعبر بجلاء عن التفاوت الإديولوجي بين الشرائح القيادية في البلدان الشقيقة. إذ يوصي بورقيبة بالليونة في هذه الشريعة معتبراً إياها كابحة لألة الحياة الإقتصادية. بينما يقول العلوي الوزير المغربي : «التقدم ورمضان لا يتناقضان، وليس من حقنا الاّ نحترم ما يجب إحترامه من أجل تقدم زائف. صحيفة لوموند Le monde 17. 2. 1961

كذلك كان بائع مشروبات غازية في قسنطينة ينظم سنويا عملية صدقة إحتفائية بمناسبة يوم عاشوراء ليعطي إلى كل معتوه متشرد يقبل الوقوف في الصف، إنتظار للصدقة قطعة نقدية، كان «رب عمل جيد» يؤمن لكنه يرفض إستخدام العمال الذين كان يتوقع وجود أسمائهم ضمن القائمة المحدودة للمستفيدين من الضمان الإجتماعي، والمنح العائلية.

مثلهم صانع للزرابي في تلمسان كان يسهم بتقتير في التبرع العمومي، والذي كان يضمن عمل المدرسة الحرة لمدينته، إنه أحد أنصار إعادة بعث اللغة العربية والإصلاح الديني، لم يدرك أبداً العداء الإجماعي للعمال المسلمين والأوروبيين، الموجه ضد الإستغلال البغيض لليد العاملة للطفولة الهالكة جوعًا والمحرومة من التعليم.

كان هذا يعني القول : إن الطبقة الوطنية العاملة لم تكن تترك نفسها تنخدع بالهبات الأبوية التي كانت تهدف إلى حجب المنفعة المستخلصة مما هو أثمن.

لكن شجرة البورجوازية الوطنية لا ينبغي أن تخفي عنا غابة الإستعمار؟ «لاتحمل نفس ذنب آخرى (قرآن س VI آية 164 (لا تزر وازرة وزرأخرى)

إن عملنا الهادف إلى هدم النظام الإستعماري، كان موجهًا بمخطط دعاية تسمح لشعب كادح أن يحدد الوجهة وأن يتعلم.

بداية عرفنا النظام الإحتلالي ذي المؤسسات الأكثر مقتا، باعتبار معايشتنا لقانون الفقراء، البلديات المختلطة، حيث تبدو الإدارة كغول بهيئة بشرية، والأراضي الصحراوية حيث يسود حكم السيف، النظام العسكري للغزو.

ثانية حددنا المستغلين مشيرين لهم بأسمائهم أمثال بورجو. دوسيريقني تحاشيا لكل خلط، وكل قراءة سيئة، حررنا قائمة ثابتة تتضمن إثني عشر رأساً تركيا (مستعصيا) مع :

ثمانية ممثلين لمستعمرات ضخمة، أرباب أرض، مناجم، شبكات نقل، أو بنوك، اثنان من الباش أغا من كبار ملاك العقارات متعاونين مع العدو المستعمر، مرابطون إقطاعيون، زعماء حركة.

رجل صفقات يهودي كبير إرهـابي متطرف.

صناعي قبـائلي ذو وجهين.

كان بإمكان هذه القائمة أن تنوع وتيرة الحدث، بالإمكان تغيير الأسماء، لكن ظلت النسبة ثابتة معتبرة، الجرعة المضادة للإستعمار كانت غالبة على الخلطة.

الإحتقان الوطني السياسي الإقتصادي والثقافي كان إذا غائرًا في الأساسات البغيضة والشخصيات الأكثر مقتا، العدو، الأكبر هو الأجنبي.

هكذا إذا عندما نخرق الشرطة وعمالة القياد بسهامنا، فإننا نلحق أقسى الضربات الموجعة بالإستعمار، الممسك بمقابض التسيير.

كانت هذه النظرة وهذه المراوغة، التي كانت تغيب عن الإدراك الجيد للإريستقراطية العمالية الأوروبية، مكرسة لدى كل خاضع للإستعمار حتى البورجوازي. إنه رد فعل وبائي.

هذه رواية سردها نائب معتدل حول قبض الضرائب من طرف المأمور الذي جاء لهذا عند القائد الذي قدم له المشوي تكريمًا.

أتذكر أن أبي كان يأمر عندما لا يجد الفقير المال الكافي للمخالصة بلَيِّ يديه خلف ظهره، و أن يعرض للشمس إلى أن يأتي الأقرباء للدفع بدلا عنه. قياد آخرون كانوا يعمقون هذا التنكيل بصب اللبن الحامض على رأس المعرض به، الشيء الذي يجلب له الذباب.

إنها فرجة لم أنسها أبدًا، لكن أبي ربما لم يكن ليحصل على ميدالية الشرف عند مماته لو لم يتصرف هكذا ![6]

كان هذا الإقرار البليغ الأثر حكما مرعبًا للنظام الإستعماري منبعثًا من فم مثقف بورجوازي وطني إصلاحي.

بما أن العدو الأكبر هو الإستعمار الفرنسي، فلا داعي للتعجب من أن الطبقة الوطنية العاملة تحس بالقرب من برجوازي مسلم وطني أكثر من العامل الأريستوقراطي المستعمر الجديد.

عكس ذلك فإن العمال من أصل أوروبي، لم يحسوا أبدًا بنير الضيق الوطني، ولا بالإستغلال الإستعماري الفاحش، لقد استيقظت الطبقة الوطنية الشغيلة في غمرة الكفاح ضد العدو المضاعف المقيت مرتين، كمجوع وكمحتل بغيض.

إن الحس الطبقي والوعي الوطني كانا يذوبان تحت فعل الحقد المتأجج المتولد عن التسلط البربري لأرباب الأرض والمناجم، والبنوك المحتكرين للواجهة البحرية.

---

6. تقرير بياني تحليلي لجلسات لجنة الدستور. المجلس الوطني المؤسس تاريخ 25. 07. 1946 ص 206.

لم تكن البورجوازية المستعمرة أكثر ضراوة فقط، ولكن أيضا أكثر ثراء وأكثر تعاضداً. كانت تملأ بالذهب والفخامة فيلات المستغلين، وتسبب العراك لحد الموت بين ناقصي التغذية ذوي الأكواخ الفارغة، إنها تمتلك المنشآت الأكثر عدداً، والأكثر أهمية، مع يد عاملة أكثر كثافة وأحسن تمرسا للصراع، أكثر تبصراً (مخازن مستودعات مناجم، نقل عمومي، مواد كيماوية، عمارات معادن ...)

فيما يتعلق بالإقطاعيات الزراعية، فإننا نجد المعمر زارع الحبوب الكبير، وصاحب مساحات الكروم، ومنتج الفواكه في الوقت نفسه هو رئيس البلدية، أو القاضي الذي يأمر القايد والدركي والسجان، إنه سارق الأرض المتملك من غير فلس.

بعكس الشاب الأوروبي الذي يجد المكان في المدرسة أو في مركز التكوين أو المدرسة التقنية والثانوية الذي يتوفر على مهنة أو مكانة في الإدارة أو الذي يجد دائما منصب « العمل» لمراقبة العربي عامل الأرض البسيط، أو الحمال الشاحن المفرغ في الميناء، الشاب الجزائري الأمي في الغالب أو الشبه متعلم الذي نجده على هامش الشغل، أو عاطلاً بالكامل وهوحتما ناقص تغذية وسيء الملبس.

لقد فرق النظام الاستعماري بسقطاته الإقصادية والسياسية، السكان الكادحين من ذوي الأجرة إلى مجموعتين كبيرتين متمايزتين بالأصل واللغة والدين، الحياة المهنية وشروط البقاء. الصفوة ذوو الرواتب العالية وضمان الشغل والترقية، ومراكز السلطة، الفيلا، السيارة، الكابانو أو الشاليه.. والشابة فاطمة، أو الشيخ أحمد خادمان بأجر رخيص !

أنظروا كيف تشكلت أريستوقراطية عاملة في الجزائر منذ خمسين سنة، أكثر فساداً من تلك التي تتشكل في البلدان الرأسمالية، إن التيار الإنتهازي الذي نجده في فرنسا ضمن الديمقراطية الإجتماعية، يتحول في النظام المستعمر إلى تعصب فعنصرية ثم دعم مصرح به للحكومة الفرنسية.

إننا نعرف الكناية الثورية التي شجعها الإستعمار لممارسة تأثيره المشل على العمال ذوي الأصل الأوروبي. فما الداعي إلى ثورة معادية للإستعمار حيث لا يحصل العمال على أي ربح، بما أن البورجوازية العربية ستحل محل البورجوازية الفرنسية في الحكم ؟

يستحسن القيام بالثورة الإجتماعية من البداية من غير إضاعة للوقت لإجتياز المرحلة الأولى أو يمكننا بلوغ الغاية مع مزيد من المثابرة، إنها طيور السّمان المشوية المحمولة بواسطة ريح «الميسترال» فوق البحر الأبيض المتوسط.

بلد مرغوب فيه مبارك بـ :بيلزيبوت . ألوهية العاجزين لتقدير صالح: في ميسور الجزائر توفير إقتصاد ثورتين، الوطنية والإجتماعية في إنتظار إنتصار الإشتراكية بفرنسا وتصديرها الإحساني المجاني .. هل بإمكان التضامن البروليتاريا أن يتظاهر بينما مايزال وعي الطبقة في طور النطفة ؟ عندما يتعرض معسكر المضطهدين للخيانة من جانب التيار العنصري والمسخ، وحقائق قوة الجوع ؟

إن البيض الصغار اللاجئين بسبب الحرب في إسبانيا أو مهاجرين مغادرين لجزر الباليار، كورسيكا، سردينيا، صقلية، إيطاليا، فضاعة الفقر، معفرين بغبار تراب بلدانهم، لا يمكن إلاّ أن يكون لديهم إحساس طبيعي ضد هذه الجرذان الخاوية البطون التي تهدد الإستعمار الفرنسي الخيِّر الحامي.

في هذه الظروف تصبح الرغبة في إعتبار البلوريتاريا الجزائرية كطبقة عمالية متجانسة طارحة لطوباوية، إنه الخطأ والعمى الذهني.

أليس هناك وجهة إلى حيث الفزع، بورجوازية صغيرة تتداخل مع وجهة معاكسة ؟

الأمر يتعلق عكسا بوضعية حقيقية مفحوصة بدم بارد، بنفاذ بصيرة، بإرادة إقتلاع الداء مع جذوره.

هل بالإمكان تطوير البلوريتاريا العمالية، ورفع مستوى « وعي الطبقة» وتربية العمال دون تمييز في الأصل والوطن واللغة ولا في المعتقد ؟

لم يكن هذا ممكنا في المستعمرة إلا بشرط جوهري هو : الكفاح المشترك من أجل حق الشعب الجزائري المقهور في التصرف بحرية بشأن مصيره، هذه هي الأخوة في الحرب ضد العدو الرئيسي إنه البورجوازية المستعمرة.

كانت هذه هي الوسيلة المثلى لتربية العمال، تبديد التعصب لدى الأوروبيين والتوجس لدى المسلمين.

إنه الدور الذي إضطلعت به الإتحادية العامة للعمال الموحدة،،، بشرف التنظيم النقابي تحت التأثير الشيوعي الذي كان يقرن الكفاح من أجل الخبز، مع المعركة من اجل الديمقراطية، ومعها هدف الإستقلال الوطني للجزائر.

وعلى الرغم من تواجد تيار إستعماري قوي في إتحاديات عمال السكك الحديدية، وعمال البريد، كانت الإتحادية العامة للعمال الموحدة، المنظمة الوحيدة التي جمعت العمال الأوروبيين والمسلمين رغم قوانين الفقر المانعة للمنضوين غير المواطنين من شغل وظائف السكريتاريا، مسؤولية في الخزينة النقابية، فنقابات الصناعات الخاصة لم تكن تحترم « الشرعية الإستعمارية».

رغم القمع والرشوة، ظل الإضراب الإقتصادي والإضراب السياسي المدرسة الثورية الأولى بالنسبة للمناضلين الجزائريين، النصف سريّين المهددين دومًا بالإبعاد إلى الصحراء.

كانت أخوة المعركة ضد الإمبريالية تتجسد بالتضامن الخارجي مع الريفيين (مغاربة) السوريين، السودانيين، التونسيين، الملغاشيين وعمال بلاد الهند الصينية ... إضافة إلى الفرنسيين (إضراب 12 فيفري 1934، . 15 ماي 1934 ضد قدوم صليب النار إلى مدينة الجزائر إلخ ...)

كانت الحركات العمالية الأخرى إلى جانب الإتحادية العامة للعمال الموحدة إما أوربية في الغالب أو مسلمة تحديدًا.

الإتحادية العامة الإصلاحية للعمال (S.F.I.O) كانت عمومًا إتحادية موظفين فرنسيين مع كمشة من السكان الأصليين « متحولين بـ 3.60 فرنك» ثمن الورق المطبوع المانح لقانون المساوات في المعاملة والحقوق (نظريا) للدخول إلى وظائف السلطة الممنوعة على « هؤلاء» مع احتفاظهم بأطرهم الشخصية.

الإصلاحيون المسلمون لم يستطيعوا الإشتراك في الاتحادية العامة للعمال العنصرية ذات التوجه المعتدل الخاصة بالموظفين الفرسنيين. فنراهم يؤسسون وداديات عمالية «لأصل أهلي» : ودادية المعلمين من أصل أهلي، عمال بريد من أصل أهلي، عمال سكك حديدية من أصل أهلي... كلمة النظام الأساسية كانت : المساواة في المعاملات مع نظرائهم الأوروبيين، الممثلين لأكثر من ربع الاحتلال.

مع الاتحاد النقابي المحقق في فرنسا الاتحادية العامة للعمال ستكون فقط إصلاحية وجهة الاتحادية العامة للعمال الموحدة لم تُجمع واستقلال الجزائر لأسباب تكتيكية، وانتهازية...

الوحدة النقابية عام 1935 في تجمع موحد : الاتحادية العامة للعمل سمحت للحركة العمالية بتحقيق انتشار خارق للعادة في الجزائر، إن طفح العمال زعزع الأسس التقليدية القديمة، والتوجه الإصلاحي الأوروبي (ليون جوهر ليون بلوم) يتكتم على ارتقاء المسلمين إلى الوظائف القيادية، لقد كنس وعوض بالأبوة المتبناة من طرف توجه الاتحادية العامة للعمال الموحدة القديمة. هي نفسها التي انتصرت بالنهج الثوري.

قادة الاتحادية العامة للعمال الموحدة، الشيوعيون الفرنسيون والاصلاحيون اتفقوا على عدم طرح استقلال الجزائر من برنامجهم الجديد، كان الثابت تغيير المناورة المفروضة بضرورة إخضاع الكل للكفاح الحتمي للحقبة ضد العدو الأكبر الفاشية.

لكن أهلية التكتيك لا يجب أن تلغي مبدأ ثوريا هو الهدف النهائي المتمثل في الاستيلاء على الحكم بهدم النظام الرأسمالي، لم يكن ذلك ليلغى بما أنه كان خاضعا للهدم المسبق للعسف الخارجي. الفاشية تعبيرا لإمبريالية الأكثر ضراوة، يعني هذا خطرا أعمق، وأكثر ظرفية من الاستعمار تحت هيئة ديموقراطية، وصار عدوا رئيسيا.

تماشيا مع أن الكفاح الوطني يتقدم على الكفاح الإجتماعي، فإن الكفاح ضد الفاشية يتقدم مؤقتا على الكفاح ضد المستعمر، وكذا يتقدم الكفاح ضد البورجوازية الإستعمارية المشروط بالإنتصار على البورجوازية، وهكذا فإن الكفاح ضد الفاشية كان يعد للإنتصار على الإستعمار.

القادة النقابيون أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي القابلون بالوحدة النقابية في الجزائر على القاعدة نفسها مثل فرنسا، ينحنون في وجه التيار الإجتماعي الديمقراطي، إنه أكثر الأشكال نحسًا للإنتهازية المموهة بتشكيل جملة ثورية.

لم يكن هذا الخطأ مجرد زلة تقدير بل كان يرفع خطا سياسيا خاطئا تغذيه انحرافة إيديولوجية عميقة ومصرة حتى على مستوى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي.

للإقتناع بذلك نتذكر هذا التناقض التاريخي البشع داخل الحركة اللينينية العالمية.

في اللحظة نفسها التي ولد فيها الحزب الشيوعي الجزائري كمنظمة سياسية وطنية ركيزته الأساسية، الحركة النقابية العمالية كان يفقد خاصية جزائريته ببقائه تابعًا للحركة العمالية الفرنسية مسيرًا من باريس.

عند إنعقاد المؤتمر العالمي السابع (7) للأممية الشيوعية (موسكو أوت 1935) الذي قدم ترشيح المنظمة الجزائرية للحزب الشيوعي الفرنسي، أمام اللجنة المخولة لقبولها كحزب مستقل كان موريس تهوريز يلاحظ أن جميع المناضلين النقابيين أعضاء اللجنة المركزية، يقدرون بأن الإجراء سابق لأوانه.

إن هذا التوجس المعوي ضمن قدرتنا النخبوية والسياسية لم يكن موجهًا تحديدًا ضد الجزائريين، بل استهدف مجتمعات الهند الصينية الميالة إلى الرهان مع التمرد الملسح.

كما أستهدف هذا التوجس السوريين الوطنيين، أغلبهم شيوعيون، استهدف المغاربة «المنقسمين إلى أربعة أحـزاب».

لكن عندما تم قبول إستقلالية تنظيمات الأحزاب المستعمرة من طرف الشيوعية الدولية، فإن الإستقلال السياسي المعترف به من جانب الحزب الشيوعي الفرنسي كان متبوعًا بالإستقلال النقابي الذي كانت الإتحادية العامة للعمال الفرنسية قد أقرته كأمر واقع.

لم يكن الأمر كذلك في الجزائر، إستقلالية الحزب الشيوعي الجزائري لم تتحقق مع الإحتفالية التي كان يتطلبها الحدث التاريخي.

المؤتمر التأسيسي الأول للحزب الشيوعي الجزائري (جويلية 1936) جرى إنتظامه داخل خباء تحت أرضي في باب الوادي بمشاركة السكرتير الثالث للحزب الشيوعي الفرنسي.

إستقلالية الحزب الشيوعي الجزائري لم تكتمل بعد، بما أن الحزب الشقيق في فرنسا كان ما يزال محتفظًا بمدرب دائم في الجزائر، ولكنه أمر لا تراجع فيه، كان للحزب الشيوعي الجزائري لجنته المركزية في الجزائر، وكان مبدئيا سيداً لتحديد خطه السياسي.

بالمقابل ظلت المنظمة النقابية في الجزائر تحت التبني والرقابة المباشرة لباريس.

كان هذا الإجراء ذو الطابع الإداري والتنظيمي بمثابة رواق الدب مستوحى من طرف " زيل " في غير وقته ساعيا لحماية « ليلى الطفلة الجزائرية» من خطرين :

1 . ضراوة الذئب الممكن إندفاعه ضد المناضلين وضد المنظمة التي كانت تفقد « مشروعيتها» بإجراء حضري تعسفي .

2 . عدم قدرة المناضلين العرب على السلوك السليم وحدهم، وتجنب المغامرات الضبابية.

عوض تقدير سلمي يعيد إلى الطبقة الجزائرية العاملة منظمتيها التوأمتين : نرى النزاع الداخلي ضمن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي ينشب بين المتعارضين «سياسيين ونقابيين» يتحول إلى تسوية مدققة نابعة من إجراء إستثنائي متخوف.

هكذا إذن تم إعتاق الحركة السياسية لتتحول إلى الحزب الشيوعي الجزائري المستقل، بينما ظلت الحركة النقابية المرفوض طلبها فرعا لباريس مثل القاصر الذي يجب الإحتفاظ بتبنيه إلى أن يبلغ رشده «الشرعي» اللامحدود.

لقد جلب هذا القرار الجراحي مسخًا، منه الإبعاد العضوي الذي أفقد توازن الجهاز العصبي للحركة العمالية، بتشجيع من باريس، يمارس الإتجاه الإصلاحي في المنظومة النقابية فأحدث تأثيرًا مشؤومًا على تقدم النهج اللينيني الممسوخ إلى فراغماتية، حيث ينجر الفكر المتحجر خلف الفعل من أجل ضلعة العجل، الثلاجة والعطل خارج الجزائر.

نتبين من هذا إختبارا مبسوطا لفترة مضطربة لا تتي عشرة سنة، بشأن مشكل جوهري لأفق التحرير الوطني والإجتماعي : فتح خدم المعمرين.

أفلا ينبغي الإندهاش من أنه وبعد تحقيق إتحاد الكوفيدرالية العامة للشغل عام 1935، لم تتابع منظمة عمال الفلاحة بحجة أنها لم تغضب « رفاقا إصلاحيين جدد» كانوا يعتبرون هؤلاء العبيد المشتغلين « من نجوم الفجر حتى نجوم المساء» كبهائم بهيئات بشرية جديرين بالشفقة، ولكن غير منتسبين للنقابة».

أفلا ندهش من أن الإتحادية العامة للعمل المتجانسة لم تقبل «الإشتغال» بالإضراب «المتوحش» للعمال باليوم في الأرياف، إلاّ بعد تشكيل إتحاية مستقلة لعمال الفلاحة في المتيجة بمبادرة وراثية للحزب الشيوعي الجزائري، المسير في تلك الفترة من طرف «وطني منتكر»؟ مع ذلك كان عمال الفلاحة قد قدموا البرهان زيادة على «نقابيتهم» بتعاطف عمالي صارخ، في بجاية وفي بلعباس «برلين الصغيرة» عمال السكك الحديدية لم يكونوا قادرين على تنظيم التجمهرات في أحيائهم. كانوا مرهوبين من طرف العصابات المسلحة التابعة لـ « التشكيلات اللاتينية» التي كانت تنشر الصلبان المعقوفة على لافتات الطرق.

إنه بفضل المظاهرات المضادة للمقهورين في الأرض الذين هبوا لنجدة «إخوان الطبقة» تم قهر الفاشيين، واحترمت حرية الإجتماع، أفلا يجب الإندهاش من أن إدارة الإتحادية العامة للعمل «الفرنسية الجزائرية» وهي تقدم سبب ضبط الميزانية تستعجل قبل كل شيء توقيف تشغيل السيارات المستهلكة «للبنزين بكثرة» في التنقلات وتسريح النقابيين الفلاحين المداومين إلى عطل، وهذا في الوقت الذي يستقل فيه القادة السيارات مع سائقين خاصين ؟ في الواقع لم يكن هذا مسألة إرهاب، ولكن مشكلاً سياسيا.

لم يكن الفعل عارضًا : إن هذا الإبعاد المريب للمداومين الفلاحين ذوي النشاط المخصب يتحول بكثرة النقابات إلى جماعات شبيهة بباقة قسمات، فرق، قرى، ومزارع !

لم يكن المداوم الفلاحي بيروقراطيا «بيبض» النشريات داخل مكتب في المدينة، بل كان مناضلا نهجيا موجها بخطة عمل لمدة شهر، ولكن يتمتع بحرية كاملة للمناورة والممارسة والوقت في ناحية مختارة حيث لا يوجد شيء، يجب إنشاء النقابات، تكوين ما يعرف بـ : مقدم الجماعة العاملة، وإخراج الشيوعيين من أعشاشهم.

ظلت هذه الطريقة للتنظيم اللاأورثوذوكسي وهذا " العمل العربي[7] " يزعجان المسيرين التقليديين، لكن النتائج كانت هنا : نوايات تنظيم تخرج من العدم، وتتطور بسرعة غير مألوفة والأكثر في المستقبل، يا لهذا الزخم الواعد للفعل السياسي الثوري، المنظمة العمالية تنفذ سريا حتى تبلغ ملكية المعمر الضخم، الإجتماعات تنعقد تحت سقف بهوه في مرآبه، في إصطبله.

المناضلون المطرودون من مهامهم ماذا يمثلون تحديداً ؟ مثال واحد فقط يكفي...

كان ذلك عاملا فلاحيا قديما من القليعة، أشير إليه بالسبابة من المعمرين في الناحية، لقد تم إبعاده من طرف رئيس بلدية الضاحية، إنه مستعمر فاشي محارب، بعدما أشتغل في باريس كعتال في منشأة لتوزيع الفحم، ينخرط في الجيش الجمهوري الإسباني عند موت رابح أو سيدهم قائد الفيلق «بلدية باريس» فإن المداوم الفلاحي المقبل ليوتنان (ضابط) في الألوية الدولية موجود إلى جانبه ويخلفه في إنتظار وصول الخليفة.

لم يكن هذا فعل مصادفة قدرية، تصفية ثوري محترف، جلي، خطيب، منظم، قادر على إتخاذ النَّشاط الشرعي والعمل السري من الحزب إنه إطار سياسي عسكري.

لكنه كان ذا " عقلية سيئة " لأنه كان لا يقبل تنفيذ الأوامر دون مراجعتها وفهمها، وهو ما كان برهانا على روح المسؤولية، ترجم إلى عقلية عنيدة، ثم إلى شعور «معاد للفرنسيين» رسم كاريكاتوري لشرير يضمر كل خطر «وطني» ... وهو ما كان بالتأكيد لا يتسامح بشأنه داخل منظمة، حيث تكاد تكون عقلية الإستعمار الجديد مسيطرة، ومع أن هذا التشديد ضد أي مساس " بالعالمية البروليتارية " والذي كان

7- عمل عربي. جملة في كلام العنصرية، للإشارة على الأعمال السيئة الإنجاز والسيئة الإنهاء. عبارة «عمل عربي» كانت تعني في زمن الأندلس، بالعمل الجيد والمتقن (الناشر).

ذا نهج بإتجاه واحد حتى في الحزب الشيوعي الفرنسي، فإن مداومًا من «الوطن الأم» كان قد رفض أن يعمل «تحت إدارة عربي» قد تم ترشيحه لمنصب سكريتارية المنظمة ضمن جهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري.

لا يمكن أن يحدث هذا لمجرد المصادفة، إهمال التربية والتنظيم للطبقة الكادحة الأكثر بؤسًا، الأكثر عددًا الخزان الأول للثورة ضد الأمبريالية، الطليعة الأكثر وعيًا هي الطبقة الوطنية العمالية للصناعة في المدن، لا يمكن أن يحدث هذا لمجرد المصادفة، هذا الإزدراء المزدوج في حق مناضل وبفعل تفيد ظرفيته أن الحركة العمالية الجزائرية كانت تسعى إلى تكميم فم بلوغه.

إدراكا للدور المحدد للعامل البشري في قطاع غالبا ما يلحم فيه النظام الريف بالمدينة ويبعد العقلية الفوضوية والمغامرة، كيف نفسر غفلة كهذه لدى القادة النقابيين أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري، الذين كانوا يكدُّون لتقليص التأخر ضمن نظام ما تحت البروليتاريا ؟

ها هي الدوافع الأساسية :

1 . الإبقاء على المنظمة النقابية كملحق للإتحادية العامة للعمل الفرنسية. كان قادة الإتحاد "الجهوي" الجزائري على صلة دائمة وتحت التأثير المباشر للأمناء الجهويين، والإتحاديين في باريس، الحزب الشيوعي الجزائري يصبح حزبا مستقلاً، وكانت له إدارة غالبيتُهَا عرب، بينما ظلت المنظمة النقابية محتفظة بنظامها القديم مع إدارة غالبيتُهَا أوروبيون، مبدئيا كان للمكتب السياسي للحزب الشيوعي الجزائري الإقتدار على توجيه مناضليه، لكن في واقع الأمر لم يكن لديه سلطة تعديل تعليمات باريس.

2 . الأصل الإجتماعي للإطارات، الغالبية منهم مداومون وغير مداومين، تابعون للأريستقراطية العمالية الأوربية، رؤساء مكاتب لدى إدارة السكك الحديدية، موظفو بريد في وسط سلم الوظائف، مراقبون في مؤسسات النقل العمومي، (رقباء عمال، ورجال تعليم)، رغم الجهود المخلصة للمبرزين منهم، لم يلفحوا في التخلص من عقدة التفوق أمام زملائهم العرب، يتحلّى ذلك في الإنفعالات الصوتية للحنجرة، أو أسلوب كشط الفرنسية، وهم يكررون باستمرارا الخادم، العطار، موتشو[8]، أو الزبال جامع القمامة.

8 . «الموتشو» كلمة دخيلة على العربية العامية في الجزائر ينعت الفتى الخادم في الحمَّامات الأهلية، الذي يتولى مسح وتدليك وتنشيف أجسام الزبائن المستحمين عند خروجهم من الحمام إلى قاعة الإسترخاء، وفي الفرنسية تكنية واردة في كلام العنصريين يشار بها إلى التاجر الجزائري من أصل ميزابي.

كان للمناضلين الأوروبيين من العمال اليدويين المتكلمين بالعربية عيب هو التعليم من غير شهادة إبتدائية.

3 ـ كانت الإيديولوجية السياسية المهيمنة والتصورات الأبوية للقادة النقابيين الباريسيين بالطبع تصطف على مواقع الديمقراطية الباريسية، الإجتماعية موليةً الظهر للثورة من أجل الإستقلال؛ للحقيقة لم يكن للقادة النقابيين في الجزائر ضمير سيء، لأنهم لم يكونوا يؤمنون بهذا التحرير «الوطني» الذي كان يجب أن يوجه ضد وطنهم النخبوي الذي هو «فرنسا الطيبة» باتباع الحياة السياسية والإجتماعية «للبرونيتاريا الفرنسية» التي كانت مهمتها هي إخراج الشعب الجزائري من دوّامة القرون الوسطى، لم يكن في ميسورهم التحرك ضمن معنى المعارض لقناعتهم الحتمية، حتى وإن كانت الغاية مقبولة بحرية، فإنها ليست كافية بالمرة لإنتزاع المشاركة الصادقة في كلمة جماعية، هذا ما يبرر لماذا ظل الضمير حبيس السلم، لم يكونوا قادرين على التفكير في التحضير (المسبق) لعمل ثوري (بعيد) بالنظر إلى الدمار (المجازف) العنيف للنظام المعمر (الأقل إيذاءاً بالنسبة لهم) هذا التفاوت المذهبي بين الطبقة العمالية الوطنية والأريستقراطية العمالية يجلب حتماً مصادمات ونزاعات داخل الإتحادية العامة للعمال الموحدة.

لكن حتى غداة سحق الهيتليرية، لم يثر إختلاف البيسكولوجيا أزمة خطيرة أو مميتة مع فوز الجبهة الوطنية. الحركة النقابية تتعرض في بلدنا لضغط غير متكافئ جماهير من العمال إعتادت على الخمول؛ تتدرب ضمن صراع جماعي ومتحمس انتبه هؤلاء إلى قوتهم باقتلاع قانون حالة الفقر، لأول مرة تحت الهيمنة الفرنسية، بدأ الجزائريون يتمتعون بالحريات الديمقراطية المبدئية "حق الكلمة " الإجتماع،الجمعيات،الصحافة،السفر إلى فرنسا، الحج إلى مكة، إحتلال وظائف نقابية (سكريتير أو أمين عام) الانتساب إلى حزب ثوري.

العمال من دون تمييز عرقي أو ديني ينتزعون القوانين الإجتماعية الـ 40 ساعة، رفع في الأجور، التساوي في الرواتب داخل الإدارات والمصالح العمومية، نسجل لأول مرة أن إضراب مؤسسة أو تعاضدية تواصل حتى النهاية، حتى إرضاء مجموع المضربين... كانت الإضرابات سابقا تنتهي مرات إلى إستفادة المضربين الأوروبيين فقط، مثال ذلك البناؤون الذين يتخلون عن المساعدين ! الجبهة واحدة ـ إقتصادية إجتماعية ـ من كل البلوريتاريا ضد جميع أرباب العمل، تتفكك بمجرد المرور إلى مستوى أعلى، المخطط الوطني المضاد للمستعمر.

لأن غالبية الشعب الجزائري لا تحب الخبز بطعم مر مع الحبل حول الرقبة في مواجهة الإستعمار يفصل الخط العازل ما بين العمال. بين أنصار الإستعمار الجديد الحر، وأعداء كل أشكال الإستعباد.

حتى الحقد المشترك الذي يهيج الجزائريين ضد الفاشية الداخلية والدولية، ليس له نفس المدلول، برنامج الجبهة الشعبية لا يتوقع بالنسبة للجزائريين إلاّ «إيفاد لجنة تحقيق».

لهذا ذاب التيار الوطني المضاد للفاشية في غياب جبهة جزائرية شعبية داخل المؤتمر الجزائري الإسلامي، كان ميثاق هذا التجمع الضخم يعكس توازنًا جديداً للقوى المتواجدة، وكان ذلك تسوية ما بين الإصلاحيين أنصار التماثل (إتحادية المنتخبين الأحرار التي هي الآن الأكثر تأثيراً في البلاد، مثقفون «فرانك ماسون»)، وبين أنصار الشخصية الجزائرية (علماء - وطنيون - شيوعيون).

بعد إغتيال مفتيّ الجزائر الشيخ كحول عام 1937، في اليوم الذي كان يُنتظم فيه تجمُّع لـ 20.000 شخص بالملعب البلدي، يجتاز المؤتمر أزمته الأولى بإقصاء الرئيس الذي ضمن الإستفزاز البوليسي ضد العلماء « ملهم الجريمة الدينية» بغالبية يهجر المنتخبون المؤتمر الذي وجه له الشيوعيون الضربة القاضية بالجهوية والبيروقراطية، ضد حلفائهم العلماء والوطنيين، يفرض مناضلوا الحزب الشيوعي الجزائري بالإنتخاب الإبقاء المصطنع على وحدة العمل مع الجبهة الشعبية الأوروبية، دون أن يشكُّوا بأنهم كانوا « يدفعون بعناد حماراً ميتًا»! إنها الخيبة، التراجع؛ فالعناصر الوجلة المتشائمة تدخل مجددا إلى قواقعها، يبدو أن الإستعمار مايزال متماسكا. من العبث إنتظار ليلة جديدة ليوم 04 أوت ... إنها الحرب العالمية ... القمع يضرب بقسوة السجون والمسعكرات العديدة والمكتظة في جميع أنحاء البلاد.

المناضلون الثوريون منقسمون منذ ثلاث سنوات، يتواجدون موحدين في الزنازن أو خلف الأسلاك الشائكة، في معسكر التأديب بجنين بورزق «حديقة صغيرة للسعادة» حامية عسكرية قديمة (شمالي بشار) حيث جمع العصاة، المنبوذون، الميؤوس من صلاحيتهم، من جميع التوجهات علماء، حزب الشعب الجزائري، الحزب الشيوعي الجزائري، نقابيون يهود... أوهام ما تزال تعاند... كمشة من المحتجزين تحتفل بدخول هيتلر إلى باريس، إستمتاعًا بالتشفي: «عدو عدوي صديقي» قياس مبسط لرد الفعل العاطفي، نزعة بشرية، أفلم

يطلب ملك إنجلترا طوال ثلاثمائة عام لحماية إستقلال : «أكيتانيا» ضد إلحاقها بمملكة فرنسا ؟

ألم يستقبل كمحرر من طرف الإيطاليين المهللين، وهم يرون الإحتلال النمساوي يسحق بدوره ؟

لكن ما هو متسامح بشأنه لدى شعب غير مجرب هو غشاوة سياسية لدى المناضلين الجزائريين، الذين ينتظرون بقناعة متلهفة تحريرهم المأمور به قريبا من برلين.

لم يخفوا فرحتهم خلال الإستراحة القصيرة من تعب السخرة الشاقة في جمع الحطب وحجر الجير، والرمل من الكثيب المصدري، إنها فرحة عارمة، لأن حلم حياة يتحقق بالنسبة لهم بالمشاركة في الحفل الكبير للإستقلال الذي سيتصادف بعد صلاة الجمعة في المجسد الكبير مع تتويج مصالي الحاج سلطانا للجزائر.. إنها حكاية جحا ؟

ليس هذا سذاجة دون شك، كان المتكلمون بشأنه مناضلين محنكين ومعروفين، أحمد مزغنة، النائب المقبل لمدينة الجزائر، والشادلي مكي، المدعو مانشو، أنتقل كلاهما إلى الحركة الجزائرية، وهما الآن في القاهرة... قابعان في السجن كمعادين للثورة.

ظهرت خيبتهما الأولى مع القراءة السرية للصحف المحظورة من شروط الهدنة لهتلر، منقذ الشعوب المستعمرة، تخويل لحكومة فرنسا، المهزومة المجردة من السلاح بالإحتفاظ بجيش المشاة والأسطول والطيران «القوات الضرورية لحفظ النظام في المستعمرات».

راحت الخرافة تتلاشى كسمكة أفريل، وينسلخ النائمان من حلمها، بلا وهم عنيف ... كان ذلك أكثر قساوة من حكاية السائح الأبله الذي يتوق لتذوق فاكهة لذيذة وهو يعض بكامل أسنانه كرموس النصارى (تين الشوك) قبل أن يزيل قشرة هذه الثمرة الكثيرة الأشواك الدقيقة المؤذية.

الشعب الجزائري يرفض أن يترك نفسه ينخدع من قبل نظام حكم فيشي، رغم الدعاية المفترية بشعارها «إخواننا المسلمين» ليوم 16 ماي - الأشد إستعماريا.

كان البؤس أكثر فظاعة، القمع أكثر ضراوة، الأشغال الشاقة الحكم بالموت...

اليهود متهالكون «من جنسيتهم الفرنسية» مبعدون من عدة أنشطة تجارية، من الوظيف العمومي، الجامعة، يجدون العون لدى المسلمين الذين يحتفظون

بالمصوغات والأشياء الثمينة لمواطنيهم الذين أصبحوا أكثر شقاوة، كثيرون يصبحون ذوي ذاكرة قاصرة.

الإنزال الأمريكي في 08 نوفمبر 1942 يستقبل بفرحة مدوية أو محسوبة ... الوطنيون الثوريون، الديمقراطيون والشيوعيون ؛ يحتفظ بهم في السجن وداخل المعسكرات، ولم يجر تحريرهم إلاّ بعد سبعة شهور بأمر من إيزنهاور في شهر ماي 1943، تحت ضغط متوحد للرأي العام في الجزائر وفي الولايات المتحدة الأمريكية.

مبادرة للمنتخبين المسلمين مدعومة بالتعاطف الشعبي تقدم مذكرة سياسية إلى الحكومات المتحالفة كبيان من الشعب الجزائري. الوهم الإصلاحي مايزال يتغذى مرة أخرى من وعود ... مشفوهة وسرية من مورفي، ومن بن روسقيلت ... إنه تنسم رائحة جزائر متحصلة على حكمها الذاتي من غير عمل ثوري ... لا دم. لا دم !

لكن الإستعمار الفرنسي سيظهر أن طبيعته الدموية لم تتغير منذ عمليات الإبادة المتتابعة المروية من طرف الجنرالات الخبثاء، إستعمال الأدخنة في المغارات، إحراق القرى، إغتصاب، سرقة، قطع آذان النساء، إتلاف الأشجار المثمرة، القطعان ، الغابات ... كل هذا منذ 1830 التوجه الوراثي نفسه لفعل الأذى في حق « الجنس العربي القذر» الذي يجب تدميره كليًا إذا أمكن هذا، إنها المذبحة البشعة لعام 1945. بضحاياها الـ 45000 في القطاع القسنطيني، قصف بالمدافع بالأسطول بالطيران، حديد، نار، أفران جير، مذابح على ساحات البلديات، إغتيال كشافة أطفال...

الإنسانية ليست «تخصصا» نازيًا، الفظاعات الفرنسية في الهند الصينية في المغرب في السوادان، في تونس في سوريا. جزائريون كانوا الشهود...

لقد نقش أحمد شوقي في ذاكرة الشعوب العربية الذكرى الرهيبة لقنبلة دمشق عام 1925 من طرف الجيش الفرنسي المحتل في قصيدته المؤثرة !

وللمستعمرين وإن ألا نوا   قلوب كالحجارة لا ترق[9].

القمع البوليسي والقضائي ينزل بفظاظة على المناضلين... المحكوم عليهم يلتحقون بالأدغال ويتمرنون على الحياة القاسية، أو يلجأون إلى السرية في المدن

9. بيت من قصيدة «نكبة دمشق» لأمير الشعراء أحمد شوقي.

الكبيرة أو في الجبال... التعصب الأعمى أو المستفز ينطلق ؛ صوب مستعرب معاد للإستعمار، سكرتير، فرع الحزب الشيوعي الجزائري في سطيف السيد : ديني يصبح معاقًا ببشاعة القبضتان مقطوعتان، في بجاية وفي قالمة أعضاء من الحزب الشيوعي الجزائري يصيرون أعضاء في الميليشيات الأوروبية؛ أين جُنِّد أسرى حرب إيطاليون يشتغلون لدى المعمرين الذين كانوا يعاملونهم أفضل من عمال الفلاحة. آخرون برهنوا على دم بارد، وسمو الروح.

جنود فرنسيون قدماء أدغال (F.T.P) كانوا قد دمروا التجمعات السكينة النازية (de la rochelle) تم نقلهم بالطائرة لـ «مواصلة العمل الوطني للتطهير» لكنهم في الجزائر يرفضون إبادة الأبرياء، الإخوة، الآباء أو أطفال «الرماة، الجزائريون» الذين أعانوا على إنقاذ فرنسا. رفضوا الإشتراك في حملة «صيد البرنوس» لن يكون لهذا التآخي التلقائي الصادق الرائع أي مظهرا إشهاري ... شيوعيون فرنسيون يأخذون أماكنهم في الحكومة.

الفرنسيون الخبثاء يعزلون في مزرعة كبيرة بالسرسوا، (الهضاب العليا) دون خمر ودون ماء. لا ندري ماذا صاربهم، إنه سر الدولة.

«التمرد العربي» يغرق في طوفان قيام الساعة، بؤس الشعب الجزائري يصبح أكثر فظاعة، القمح والشعير المحتكران من طرف المعمرين الكبار، والقياد المجوّعين للسكان يبلغ في السوق السوداء أسعارًا مذهلة : عشرة آلاف فرنك للقنطار الواحد. في الريف إنها المجاعة، بطاقات الحصص، سبع كيلوغرامات حبوب وفي الشهر لا تكفي، إضافة إلى نقص اللباس، الذي صار أسوأ من بردعه بغل القايد... الفلاح يتوفر على حصة شعير أقل من تلك المتلفة سهوًا من طعام دجاجة ضابط إداري.

قبيلة بني مسرة (البليدة تابلاط) لم تتحصل على ذرة قمح ولا دقيق طوال ستة شهور.

أختفت النباتات البقلية التي كانت تباع من أسواق الفقراء في المدن الكبيرة، لم نعد نجد السلق، الحلحال، القرنينة، المجير، الفليو، هذه الحشائش البرية ذات السيقان الطرية، هذه البقول الخضراء للمتسولين التي كانت تنبت في المستنقعات تلاشى كل شيء حتى الحرِّيق، ونبتة الحمار! التراب مكشوط بالكامل كمرج أتى عليه الجراد المرّاد، المروج صدئة عارية جرداء كرأس أصلع في ساعة القيلولة حيث يحتمي المرء من الهاجرة، نرى الأطفال كما لو كانوا نملا عملاقا يحفرون

الأرض لإستخراج جذور « تالغودة» السامة أحياناً مثل القمح الملعون (قمح عفن) أو البشنة الناقرة. ما أجمل أن يرحب المرء بالعيش النازل من السماء لتغذية خلائق في أمس الحاجة للرحمة مثل اليهود المنقذين بمائدة السماء !

لكن السماوات السبع مسدودة، السموم ... الريح الحارة القاتلة، لم تنزل النفده (مطر قليل يبلل بعض الأماكن) فحسب ولكن أيضاً السحاب الممتاز ذاك الذي يزين الجو الجميل.

كان في ميسور عالم السلالات أن يلحظ ظاهرة إجتماعية غير مألوفة في الجزائر في فترة عقم جهنمي، لم نعد نصادف حركة طواف التائبين المتطوعين الملوحين بـ «بوغنجة» مغرفة خشبية كبيرة تبدو بهيئة رأس بشرية مزينة وكسوة تذكر بالصولجان المسخري الطيشي. إنه مظهر للترتيل كان ينشد في مجموعة صوتية تضرعا إلى الله كي «يبلل الرأس» العارية للشخصية النفعية التي تتعرى لإستقبال المطر الخيري.

إن التذكير بهذه العادة لا يكمن في الفضول الفولكلوري بالتعمق في الأمر ليس هذا من أصالة الشعب الجزائري العربي المسلم.

في غرافيسون، في تولوز، وأماكن أخرى بجنوب فرنسا، كانت تجري جولات بهيئة القديس ماسيلين.أ. القديس أنتهيم هيئة ذات نصف بشري أعلى، وإذا لم يستطع القديس الإتيان بالسحب رغم الإلحاحات المتضرعة وعملية سكب خمرة الورع، فإن التائبين يعاقبونه بغمره ثلاث مرات في الماء[10]

لم يكن هذا تفاهة خرافية لدى ريفيين أجلاف في قرية، في باريس - عاصمة فرنسا - كان لهذا الحفل ذهنية أكثر إحتفائية، كان يوضع تحت التوجيه المزدوج للكنيسة والبرلمان !

تَمّ إجراء طواف حول مثوى القديسة جونوفياڤ (لطلب بزوغ الشمس أو هطول المطر) خمسا وعشرين سنة ما بين 1500 و 1600 بينما لم تخرج إلا سبع مرات من 1233 إلى 1496.

إن هذا الطواف المتبتل ذو مغزىً بليغ لظروف إستثنائية، بالفعل، إذ لا يجري تنظيم هذا الإحتفال إلا بعد اتخاذ قرار مزدوج للبرلمان في باريس[11].

---

10. فريدريك ميسترال: ذاكرة الحكايات 16.

11. صحيفة لوموند LE MONDE 24 مارس 1961.

اليوم يعبر اللاهوتيون عن الفائدة المرضية للكاثوليك لأباطيل أخرى مثل منح الثقة للزاعمين بالغيب، وقارئي الأكف... لكن توجد في روما صرامة أقل مع المنجمين الذين تغلبوا بالسخرية على العقلانيين ورجال العلم. في فرنسا أحتلوا الصحافة والإذاعة.

نعلم أن هذا التبجيل لتعويذة إمطارية هو حياة أخرى لشعيرة زراعية يتصل بالعصر الغابر عندما كانت البشرية تكتشف الزراعة وصناعة الأواني الطينية.

كان الرجال يعشقون الألوهية المرهبة أو الصائنة المتحكمة في الزوبعة والرعد، القطعان، البذر، الأشجار، البساتين.

حتى زمن حديث كان البعض ما يزال يبجل الأشجار المقدسة، حيث تقدم الدجاجات السّود، التيوس، الصلوات، الشموع. هبات طعام أو نقود، بالطبع تحولت هذه الممارسات من الأصنام الوثنية إلى الأصنام المرابطية.

لقد ظل موسم سيدي بلال سنويا فاتنا للزنوج المسلمين في مدينة الجزائر وفي غيرها في كل ربيع بعد الجني الأول للفول، الذي تؤكل قرونه الطرية. يبدأ الطواف بتجوال راقص بالطبول في حشد يتوسطه ثور أسود مقاد مسربل بالمناديل والشرائط، والقواقع، وجلود الزواحف إلخ. إنطلاقا من مقر الجماعة : نهج سيدي عبد الله إلى مكان التضحية على حافة البحر في خلفية الميناء بآغا.

إن هذا الموسم يرمز جانبيا إلى عملية وَسْمِ بهيمة بعلامة، وترك القطيع ينطلق إلى المرعى، إنه بقية من وثنية، فقد حكم القرآن على الممارسات الوثنية للعرب الذين كانوا يقدمون القرابين إلى الآلهة الزائفة، والمعبودات الموسومة بالحماية للمواشي والمحاصيل.

إنه السحر الأبيض الذي ألصق بالإسلام، ويصر على إخضاع الظواهر الطبيعية المانحة للوفرة إلى إرادة الإنسان. ومن كان الأفضل تأهيلاً لهذه المهمة من سيدنا بلال، العبد الأفريقي المعتوق.

صاحب النبي (صلعم) ومؤذنه الرسمي بطل ومواظب على الصلاة، خازن حاجيات المسلمين.

الناس سواسية فيما بينهم كأسنان مشط الحائك ؟ لا فرق بين أبيض وأسود ولا بين عربي وعجمي إلاّ بتقوى الله (حديث).

الإسم الرمزي لبلال بن رباح كان يتردد مع توجه المساواة للشعب الأسود ويعتبر شاهداً على إيمانه المستقيم، تغيير عبقري يتذكر العالم المسلم كل يوم المؤذن الأول.

يضاف إلى ذلك عسل وعطر إخاء المدينة المنورة فعلا إن بلال يقترن حتماً بالأذان الذي يهز الروح المجلجلة فوق المآذن للإعلان عن الصلوات اليومية الخمس :

«الله أكبر، أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، حيّ على الصلاه، حيّ على الفلاح، الله أكبر لا إله إلاّ الله».

إلى المستعمرين المتأخرين كما إلى «النفوس المتعالية» من الذين يزدروننا بنكران للإحسان لا يقاوم، نشير إلى أن موسم سيدي بلال يحتفل به أيضا على الجانب الآخر للبحر الأبيض المتوسط، يجري الإحتفال بذلك مرة كل عام في شهر أفريل وبعجل أسود مزين بالأشرطة الملونة قرون وحوافر مذهبة الجمهور يتابع راقصًا على المكان إيقاعًا (تام تام) سودانيا.

بعد توقف أمام الكنيسة يتجه الطواف صوب البحر الذي يضحىَّ بالعجل على حافته، كما في موسم سيدي بلال. اللحم يوزع على المعوزين كما لدى الجزائريين ذوي الجلد الأسود. الأمعاء تكون مع الملحقات (رئة كبد، قلب) والبوزلوف (رأس، لسان أكرع) القطع الأكثر تقديرًا.

يجري هذا في إحدى ضواحي فار، ويعرف الإحتفال تحت مسميين يحمل الأول إسم قديس أوقديسة في منظومة التقويم المسيحي، والثاني عبارة عن إستمارة تعبيرية هي : رقصة الـ : ترييبت ! أصل هذه العادة المبهمة في فرنسا لم يتم إثباتها، زوس، عجل الذهب أو نزوة المريخيين ؟ الوصف المفصل تم إنجازه بواسطة مجلة دراسات occitances المنشورة من طرف كلية مونبوليي وتولوز، لكن اللغز ظل دون حسم. وليس هناك أحد لا يعترف بالإسهام العربي في الثقافة الكونية.

قل لا أقول لكم عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملاك إني أتبع إلاّ ما يوحى إليَّ قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون.

(قرآن كريم سورة الأنعام الآية 50)

رقصة ترييبت كما موسم سيدي بلال، وطواف القديسة جونڤياف، أو طواف بوغنجة، إنها الأثار الباقية للأمراض الصبيانية للبشرية.

يمكن أن نثبت في الجزائر الوجود المتزامن للآثار الإقتصادية السياسية والإيديولوجية المتبقية من الحقبة الإقطاعية التامة للرأسمالية الجدة المصابة بوهن الشيخوخة المبكر، وبالإشتراكية المستقبلية الدافعة ببراعمها.

في كل مجموعة إجتماعية يمكن معرفة وشم الوجود الجدلي المتزامن لكل من يولدون وينمون ومن يموتون ويندثرون.

هكذا تأتي الإجابة عن لماذا لم يعر أولئك الذين يعرفون أن التصوف يأخذ الشمولية ويتدعم في الفترات المضطربة ويعرفون أن هذه الآلية النفسية تنطلق تلقائيا على مستوى كل جمع غير موجه بفعل عجز لم يعيروا الإنتباه إلى تعديل عقلية فلاحينا المنهكين بفعل التعاسة.

بوضعنا لبوغنجة ضمن مدينة الأشباح للخرافات المسخرية نعرف أن الشعب الجزائري كان يتبنّى وضعًا يكشف حالة مسخ نفسي سياسي يقفز على القرون.

ليس هناك أصوب من هذا إن الجزائريين الذين كانوا يهملون أساليب الفكر السلبي، ظلوا مثلا يخلعون الخضوع للعدالة الإستعمارية، مثل القطط المنبوذة أو المؤذية التي نتخلص منها برميها حرة إلى سفح الهاوية بالجزائر القديمة، كان الجزائريون يبتعدون باشمئزاز عن المحكمة، ومجلس العدالة، باللجوء إلى تحكيم جماعة أو شيخ تقي أو اليمين (القسم) الحاسم بالقرآن.

إلى هنا كان هذا تنبيهًا للغافل، قبل الهجوم النهائي الذي سيتناول الجيفة الإستعمارية؛ لقد استفاق الجزائريون على ضعف العدو، فقد كانوا شهودًا على هزيمة 1940، لقد رأى الجنود الخاضعون للإستعمار بعيونهم ضباطهم المستعمرين وقد أستبد بهم الذعر عام 1943. كان الجزائريون مستشعرين للإعجاب الذي أحدثوه لدى الحلفاء في ظل مآثر المحاربين المغاربيين في إيطاليا على هضبة كاسينو وغيرها، فهم يعرفون أن عصا الماريشال جوان هي ثمرة شجاعتهم، وتضحياتهم، وإسهامهم في سحق الفاشية.

لقد أخذ الجزائريون بجدية أهداف الحرب لدى المعسكر الديمقراطي، مثل كل الشعوب المحرومة من إستقلالها، كانوا ينتظرون إستلام حصتهم المشروعة في حياة حرة.

أنظر لماذا كل هذا البؤس، القمع، خرق القوانين الأساسية للنظام «الجمهوري» من جانب هؤلاء الذين كانوا هم أنفسهم مكلفين بتطبيقها : كل هذا بقي بعيدًا عن أن يسقطنا، بل شحذ حقدنا على الحكم الجائر المتوحش ناكر الجميل.

فعلاً فبدل موت كل حياة سياسية في بلد خائر ونازف حتى البياض، ضامن لفترة هدوء مدة عشرين سنة بالنسبة للنظام القمعي، عايشنا عكس هذا إهتزازًا كبيرًا للرأي العام : حملة لا تقاوم من أجل الهدنة.

الجزائر تنجو من القالب حيث كانت النار الإستعمارية الصاهرة تسعى لصبها مرة أخرى.

في تلك الفترة كان هنالك عامل قديم لقطاع الجزائر، هو السيد : بيريلي وقد شعر بالتغيير النوعي، يعيد إنصاف المقيم العام المقبل والقديم في تونس المعروف بوضوحه الصارخ الذي كان يتجلى في هذا الإقرار التاريخي المر والحنيني: «تعاني فرنسا من شهر مهول ؛ المسلمون يستجدون حقوقهم، اليوم يوجبون تحصيلها».[12]

12. تصريح جرى في مدينة الجزائر للسيد : بيرليوز النائب الفرنسي المسجون في الحراش تحت حكم فيشي - الماريشال بيتان.

الفصـل الرابع

قصر بوربون قبر الإصلاح الوطني

لقد انتبه الشعب الجزائري إلى قوته، على ضوء تجربته الذاتية، فلم يعد يستجدي حقه في الكرامة. وأخذ العزم على الكفاح بجميع الوسائل لتحصيله. كان أيضا مقتنعًا بأن الحرية، الأرض والتقدم أمور لا يمكن أن تنتزع ولا أن يحافظ عليها إلاّ باختفاء النظـام المحتل.

سبيل سلمي جديد وغير مرتاد، كان يفتح أمامنا مع الأمل في العمل البرلماني في قلب فرنسا نفسها، كانت هزيمة الهيتليرية قد أحدثت تصدعات في التشكيل الإستيطاني.

الشعب الجزائري الذي لم يكن يرغب في سماع تطلعاته المعبر عنها في الجزائر. بصوت خافت أو بصرخات الغضب، صار يدعى لإستعمال التصويت الذكوري بانتخاب ممثليه إلى غرفة النوأب، ثم في مجلس الشيوخ الفرنسي.[1]

كان الوضع يبدو ملائمًا لإزالة الإستعمار من الجزائر بواسطة الطريق البرلماني الجنرال كاترو الحاكم العام للجزائر، لم يستلهم ما جاء به مؤتمر برازافيل فيعلن «لقد أكتمل عصر الهيمنة المعمرة» ؟ سوريا ولبنان يفتتحان طريق الإستقـلال.

الإستعمار البريطاني من جانبه يتخلى عن الإدارة المباشرة، لم يعد يتشبث بالسيطرة السياسية، آخذا في الحسبان حركة تحرير لا تقاوم، بدأ الإستعمار الإنجليزي يتأقلم مع الوضع الجديد ولم يعد يبحث إلاّ عن المحافظة على شكل مموه

---

1. بفضل تعليمة 7 مارس 1944 أصبح نظام الإنتخاب المسلم فعلا إقتراحًا عالميا للذكور ولم تصبح النساء المسلمات ذوات أحقية إنتخابية إلا مع قانون الجزائر المعتمد من قبل البرلمان عام 1947. لكن هذه الإجراءات مثل بقية الترتيبات الديمقراطية المتضمنة في القانون لم تلحق أبدًا بالتطبيقات.

للهيمنة الإقتصادية، ليس هناك أي شخص في الجزائر يظن بإمكانية مشاهدة المعمرين السمان يتخلون بمحض إرادتهم عن إمتيازاتهم. ولكن كان من الممكن «أسلمتهم» إذا لم يخسروا أفضليتهم مع إنحطاط النظام البيتيني (بيتان) بالطبع لم يغيروا عاداتهم الإستعلائية تجاه المسلمين، المقاومة الفرنسية وحدها بقيت تزعجهم ببيانها لتجديد الأسس والطبائع السياسية.

الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية التي بقيت متواجدة التمثيل في الجزائر، راحت تقدم الدلائل على توجهها التطهيري، إنها عملية التطهير السليمة التي راحت تضرب فرديا على الرأس بالنسبة لـ «البطون الضخمة».

بوشو وزير الداخلية والوصي على الجزائر تحت نظام فيشي، ألم يقتل رميا بالرصاص ؟

بوردريس رئيس المجالس المالية، الشخصية السياسية الأولى في تشكيلة الإستيطان الضخم، ألم يتعرض للإذلال وعملية تفتيش داخل إقامته الريفية الواقعة في البلدية التي كان رئيسا لها ؟ ألم يرمَ به مثل عربي في معسكر لثلاثة أشهر مثل غشاش دنيء ومتسبب في التجويع ؟ بورجو نفسه ألم يقف منتظرا متضرعا لدى رئيس صحيفة ليبرتي لتوضيح أن المزود بالفلين الذي يغطي دبابات رومل من الداخل لم يكن هو نفسه ولكن الفاعل هو أخوه ؟

كان المؤمل هو حلول فرنسا جديدة، لو دمرت قوات المحافظين الإجتماعيين، أو شلت على الأقل. كان في ميسور المقاومة الفرنسية تكريس ديمقراطية متجددة، حيث كانت سلاسل الإستعمار المقطعة والمرمية في الخردوات، ويمكن تعويضها بروابط أخوة، فقد كان هناك مثال يوغوسلافيا وكذا مثال الإتحاد السوفياتي؛ يقينا أن كل العالم كان يعرف أن تصفية الامبريالة . الإبتزازية كانت مرتبطة بالإنتصار المزدوج والكامل للشعب الروسي المعادي للإمبريالية.

لقد تحققت أخوة شعوب الإتحاد السوفياتي في الحرب الكبرى المعادية للهيتليرية عام 1944، في عمق الأتون، الجمهوريات السوفياتية المسلمة مخولة بتشكيل جيوش وطنية لا يقودها جنرالات روس، بل جنرالات وطنيون؛ عند الإستيلاء على برلين، يثبت علم النصر السوفياتي فوق مبنى الريختشاغ من طرفي جنديين روسي وقوقازي، حتما حدثت بعض الإنطباعات في السياسة الستالينية للجنسيات، بشأن بعض المتعاونين مع العدو بعد الإبعاد الجماعي للألمان من القولقا. كان هناك جماعات مشتبه بتعاونهم مع الغزو النازي، وحدث كذلك عام 1944 في آسيا

الوسطى ترحيل بعض الشعوب الصغيرة في القوقاز، والتي كانت مع ذلك قدرت دعم الحكم بإرسال عمال روس إلى المنطقة لنزع صفة روسيتهم، عكس الجزائريين الذي كان الإستعمار يريد «فرنستهم» بالقوة وهو يخنق اللغة العربية التي صارت«لغة أجنبية» الشعوب المسلمة، شيشان أنغوش، تركستان... إلخ، كانت مزودة بلغات أدبية وطنية تحل محل اللهجات العامية، الأدب المسموع فقد تركت المكان لأدب مكتوب بأبجدية متناقلة دوراً بعد دور ذات حروف عربية. ثم بحروف لاتنية، تأخذ أراضي هذه الشعوب بداية من 1922 طابع مناطق محكومة ذاتيا ثم تحولت عام 1936 إلى جمهوريات إشتراكية سوفياتية محكومة ذاتياً.

1- قبر الإصلاح الوطني

هذه الجمهوريات الملغاة عام 1946 يعاد تشكيلها مع نهاية 1956، ويعاد تأهيل جميع المبعدين، ويسمح لهم بالعودة إلى أوطانهم. إن إزالة مظاهر الإستعمار ممكنة أيضا في نظام رأسمالي وتمثل سويسرة أحسن مثال على ذلك. فقد عرف هذا البلد المتعدد الجنسيات كيف يجد حلاً عادلا من الوجهة القانونية مستقراً ودائماً بفضل المساواة الحقيقية للأفراد والشعوب.

كان بإمكان الوحدة الفرنسية ألاّ تكون طوباوية بالتحول إلى إتحاد كونفدرالي لشعوب متساوية.

كان هذا إذا تجربة يمكن محاولة تحقيقها. لا يجب إبعاد هذه الوسيلة للكفاح السلمي، ولا ينبغي التراجع في وجه المزايدة السياسية للمستعجلين الذين يريدون حرق المسافات، ولا أمام مزايدة الإصلاحيين الذين يفضلون الحلول المتطرفة .. برفضهم وحدة العمل للثوريين التي تبدو أكثر أعتدالاً لأنها أكثر واقعية.

بالنسبة لثوري ما فإن العمل البرلماني لا يمكن إلاّ أن يكون إنعكاساً لعلاقة القوى الإجتماعية ؛ لذلك صار من الواجب حشد الجموع لرفع الضغط الشعبي بغية موازنة المعارضة الحتمية للإستعمار، إحتكارات فرنسا والإقطاعية الأرضية والمالية في الجزائر.

إن الثوريين لا يتناسون الجذور الإقتصادية للإمبريالية، إنهم يعرفون أن السيطرة السياسية التي تتلوا العزو العسكري، تكون وسيلة إكراه لتكرار الدخول بالنسبة للمواد الأولية، وبيع المنتوجات المصنعة : كيمياويات، منسوجات، سكر ... إلخ.

الثوريون إذن متخفزون لاستخدام جميع الإمكانيات التي تفرضها مقاومة العدو، في المقابل الإصلاحيون الوطنيون، أعداء بالسبق في إستعمال العنف البركاني،

ظلوا ينزلون تصفية الإستعمار إلى مستوى مسألة قانونية سياسية قسرًا، محتفظين بوهم سهولة تصالح قانون الأقوى مع العدالة الطبيعية بدعم باريس.

بدا لهم من السهل أن يهربوا من الهيمنة الإقتصادية السياسية للجالية الأوربية اللاتينية بالجزائر، فقد نجحت هذه الأخيرة في إحتكار كل المواقع السياسية الإقتصادية، دافعت ضد حكم باريس من أجل الإبقاء على إمتيازاتها؛ لقد تمردت ضد الملكية عام 1848 ضد فكرة المملكة العربية لنابوليون الثالث، ضد مرسوم cremieux بعد الإضطرابات المعادية لليهود عام 1898 الموجهة من جانب رئيس بلدية الجزائر ماكس ريجيس. باريس تصبح مجبرة على الإستجابة للإستقلالية المالية للكتلة الاستيطانية الضخمة التي تملي قانونها بمعية المجالس المالية، ورقابة الميزانية الجزائرية. تكرس هذه الطائفة النزعة العرقية للجزائر اللاتينو أوروبية في كل الحياة الإقتصادية الإدارية والسياسية.

مثلا كان يتم بناء سدود كبيرة لري أراضي الجماعات الإستيطانية الكبرى، لكن مع تناسي حفر آبار للحفاظ على تربية الأغنام ذات الأصل العربي الأصيل والمتعودة على الآبار.

عندما تصبح ميزانية الجزائر عاجزة. يُنتخب على رسوم جديدة تمس السكر والبن والشاي، وهذا يعني تعميق الضريبة غير المباشرة التي تجعل الفقراء يدفعون، مع تحاشي المساس بالأغنياء عن طريق إلغاء أفضليات الأملاك الكبيرة المعفاة من الضريبة مثال من أجل تجهيز يد عاملة فلاحية طافحة ورخيصة تمنع الهجرة إلى فرنسا، وتجبر الخطوط الحديدية والأشغال العمومية على عدم دفع أجور إلى عمال السكك والطرق تكون أعلى من أجور عمال الفلاحة.

عام 1935 كانت هزة رؤساء المجالس البلدية من أصحاب الكروم، عام 1936 نزاع الجبهة الشعبية، 1940 مواجهة المقاومة ضد الهيتليرية، وضد بيتان، كانت تجربة قصر بوربون ضرورية لكشف البهلوانيات المشفوهة للديموقراطية الإجتماعية، التي كانت تزود الإستعمار بهؤلاء الحكام الأكثر إندفاعا الأكثر نفاقا الأكثر ضراوة؛ لضمان رفاهية وطمأنينة المعمرين الكبار.

إن الحكام الإشتراكيين لم ينشئوا مشاريع الإبعاد الجماعي لجزائريين بدون أرض، وبدون جنسية من أجل «إستعمار حلقة النيجر» أو إعادة إعمار الأراضي غير المزروعة في جنوب غربي فرنسا المهملة من طرف الريفيين الفرنسيين ؟ لم يكن ذلك مصادفة عارضة بل في صلب حقيقة الإستعمار الإجتماعي لأمثال : موللي - لوجون - لاكوست.

إن الوطن «فكرة متجاوزة» الإرتباط بأرض الأسلاف عبادة قبور«لا معقولة» الإصلاح الزراعي «إستحالة تقنية» الأراضي كلها مشغولة.

كانت تجربة قصر بوربون ضرورية لتبيان أن العدو الإستعماريّ كان في باريس وفي الوقت نفسه بالجزائر، لإثبات أن التناقضات الداخلية كانت تتلاشى أمام الوحدة المقدسة المعادية للعرب.

وللبرهان على الإجبارية المحتملة للإحتكام إلى القوة من أجل تحرير الوطن من العدو المزدوج.

لم يكن الإستعمار الفرنسي حصانَ مسَوّط فقط، ولكن كان أيضا ذئبا .. عديم الإحساس للفاتحة بأيد موحدة، ولا الأيدي الملتفتة صوب السماء، نبذة تاريخية من قانون الجزائر ستثبت لنا كيف سيجرح التصلب الفرنسي وإلى الأبد ضمائر حساسة، وسيقتل دون أن يأبه أمل العثور بعدئذ على قوة ثالثة ..

1. لدى إصدار منشور 7 مارس 1944 المقر «للفرنسيين المسلمين» بالمساواة الكاملة مع فرنسيي الجزائر دون إهمال للتشريع، القرآني على الورق، كان ذلك إجراءً مقدامًا لأنه يجعل حدًا ـ على الورق ـ للامساواة من جانب الحالة المدنية بين سكان بلد واحد، فيما يخص بطاقة التعريف، لم يكن الجزائري معروفًا إلا تحت التسمية المحقرة ذات الإشارات : MA (مسلم جزائري) ثم : M (فقير مسلم) ثم IMNNF (فقير، مسلم غير متحول، فرنسي).

نعلم أن الثورة الجزائرية تسببت في تعديل الإشارات التي أصبحت فيما بعد بالرمزين FM (فرنسي مسلم).

هناك يشار له بـ : (F.S.N.A) فرنسي ذو أصل شمال أفريقي، و هناك (FAPE) فرنسي مخالف كلية.

كان نفاق الإستعمار زاخرا لنفي صفة «مواطن فرنسي» والجنسية الجزائرية في الوقت نفسه.

لم يكن للجزائريين الفرنسيين المزيفين حقوق أقل من الفرنسيين الجدد، ذوي الأصل اللاتيني ؟ كان حملة الأسماء العربية المطبعين (المتحولين) مجبرين على تشكيل تجمعاتهم للدفاع عن كيانهم «المواطنون الفرنسيون ذوُوا الأصل الفقير» أو «أصل مغربي» من أجل أن يستطيع أبناؤهم تأدية الخدمة العسكرية ضمن الفيالق «الفرنسية» أو بغاية الإستفادة من التوزيع المجاني للأرض (عرش) المسروقة من العشائر. مرسوم 7 مارس، مبادرة حكومية نافثة للفساد، كانت مستوحاة من إرادة

تقوية سياسة التماثل. لكن هذه السياسة التي تلين للحفاظ على السيطرة الفرنسية بوضع مكبح لهيمنة كبار المعمرين قد تم تخريبها فوراً.

إستطاع اللوبي الإستعماري في الماضي أن ينجح في منع الإصلاحات الأكثر ابتذالا، مثل ذلك، مشروع بلوم فيوليت الذي كان يصب في مجمع المواطنين عشرين ألف مقترع مسلم. لوبي ملوك كروم عنب الخمر؛ هؤلاء لم يكونوا ليقبلوا بفكرة رؤية رئيس بلدية عربي، محافظ شرطة عربي، كولونيل (عقيد) عربي، طيار عربي، ربان بحر عربي.

هذه البنية الذهنية للجنوبيين، لم تكن إحتكار الإنتهازيين الممتازين للنزعة المعادية للعرب، إنها تعبر عن نفسها في فرنسا في كتب جادة، أو ضمن مصنفات مدرسية؛ مع خشونة أقل، لكن مع فاعلية أكثر. هذا هو الذي كان يبرر إغلاق أبواب المعاهد التقنية، فنون، حرف، الطرق، والجسور، المدرسة البحرية؛ في وجوه الجزائريين .. العربي عموماً . والجزائري على وجه الخصوص . كان عاجزاً عن فهم الماركسية، أو أخذ بطاقة نقابية، كان عاجزا عن التعلم وغير قادر على قيادة قاطرة أو قيادة سفينة هذا ما نكتشفه عام 1960 إنه عاجز عن «حمل لوح» أو «دفع عجلة بناء».(sic)

ليس هذا مزحاً، إنه رأي السيد: ج أنطوان رئيس بعثة الدراسة في الشرق الجزائري.

ما هو محزن أكثر هو الأسلوب التيكنوعرقي الذي يحمل هذه الشارة المتأخرة لمجلة كاثوليكية شعبية. خمس سنوات بعد حرب بلا رحمة، تتواجد في باريس مدرسة عصرية للحثالات، لمنح ذهنية دينية إلى إستعماري دنيء محكوم عليه مسبقاً[1bis]

فهل ينبغي الإندهاش لارتيابنا اليقظ لكيلا نترك أنفسنا «للرهافة تأخذنا» بخداع قضائي ؟ لقد كانت المساواة الصادقة خرافة في إطار النظام الإستيطاني، فمرسوم 7 مارس لا يمكن إلاّ أن يكون سلاحاً مشروعاً للعودة ضد تكريس قدسية«سيادة فرنسية» للإستيطان. سيد البلاد، المستعد دائماً للعلو. المساواة مجدداً، موعود بها . على الورق - ستكون بهتانا أكثر مكراً من ذلك المتمثل في النقش الثالوثي البائن على أعلى المدخل في مدارس نادرة لبيع المهاودة أو محافظات عديدة «لممر التبغ» في قمة الحرب ضد الهيتليرية، من أجل تحرير فرنسا المحتلة، الرواتب، المنح العائلية،

1 . مكرر (bis) مجلة العمل الشعبي عدد خاص «الجزائر اليوم » باريس شهر ديسمبر 1959 ص 16و12.

معاشات المعطوبين، وأرامل الموتى في ساحة الشرف، ظلت أدنى مقابل الدم اليهودي المسيحي الأكثر تثمينا. ثانياً كان في ميسورهم الإستفادة من أفضلية اللحم المصنف بالدرجة الثالثة، لأن الغالبية العظمى من ذوي الحقوق لم يتقاضوا ما كان مستحقا لهم إلا مؤخرا، بفضل الثورة الجزائرية... أما أبناء أبطال كاسينو، ولرهين، والدانوب، التلاميذ الذين لديهم أفضلية إستلام خبز الروح القدس بالفرنسية، لم يكن لهم الحق في حصة الشوكولاطة الموزعة على التلاميذ الأوروبيين، إنه غذاء مخصص حصراً «للجنس الممتاز» فقد كان وقتها نادرًا في الأسواق.

قصر بوربون

منذ أكثر من قرنين قبل هذا كان ديديروت يدون قائلاً : «حيازة العبيد لاتهم، إن ما لا يتسامح بشأنه، هو حيازة عبيد يدعون مواطنين».

2 . إن الدرس الكبير للتلون البرلماني - الفرنسي - سيقدَّم من طرف الأهمية الرقمية للتمثيل البرلماني.

لقد قضى النظام التأسيسي الأول في القانون الإنتخابي الذي لم يطبق بضرورة إلحاق عدد النواب الممثلين لعشرة ملايين من السكان من 14 إلى 21، وتم الإحتفاظ بعدد 14 نائب لعشرة ملايين ساكن، وهو ما يعني نائبًا واحدًا لـ 475000 مسلم، ونائبًا واحدًا لـ 71500 أوروبي.

النظام التأسيسي الثاني بستة شهور بعدها. وجد مبالغة في هذا التفوق الذي يجب تخفيضه ولو رمزيا بشأن أفضلية الرجحان الفرنسي في الجزائر فرفع عدد النواب إذن إلى ما بين 30 أو 35 ملبيا بسخاء بالعدد : 15، لمليونين من المقترعين من الصنف الثاني (المسلمين) والعدد : لـ 600000 مقترع للصنف الأول (اللاتينو أوربيون).

3 . الدرس البرلماني الكبير اللاحق، هو المعركة القضائية المذهبية في موضوع الأفق التحرري الركود التشريعي للجزائر.

يعرف الجميع أن دستور الجمهورية الرابعة كان يميل إلى تحويل بنية الإمبريالية المستعمرة الموروثة عن الجمهورية الثالثة إلى إتحاد فرنسي إرتقائي، نعرف تحديد المادة 6 الذائعة الصيت.

تتشكل فرنسا من جهة بالجمهورية الشاملة فرنسا الأم، الولايات وأراضي ما وراء البحر، ومن جهة أخرى من الأراضي والدول المضمومة».

ما نعرفه أقل هو جوهر ماء الحياة المزيل للإستعمار الذي يتواصل.

سنقدم إذا على مفاجأة قرائنا مدافعين عما يستحق أن يعرف أحسن ؛ عديدون هم القضاة المتشددون الذين يجهلون بالفعل ذلك الذي يكلمونه بنبرة سلطوية.

هذا الجهل الصادق أو المراوغ يمتد مرات ليعشعش لدى رجال لا يشك في جزائريتهم. بالنسبة للأستاذ : جاك لا مبيرت في كلية الحقوق بالجزائر؛ المادة : 60 ذات مدلول كامل :

«إن الجزائر لشدة ما هي خليقة أصيلة وكثرة ما هي سخية فإن الدستور الذي لم يرد أن يتوقع في المادة 60 إلا مواقع الدرجات المطلقة تركها تفلت ليقدم هذه المفارقة الفردية بإغفاله النهائي للجزائر في تعريفه للإتحاد الفرنسي».

يزايد رئيس بلدية الجزائر على هذا التقدير الخاطئ في كتابه السالف الذكر بالتالي :

«إن هذا التغييب الجد مؤسف لتحديد مكانة مصير، الجزائر تراكم منذ عشر سنوات، وكون ذريعة للملابسات والمحاجات (العنيفة، نحن الجزائريون) (ص 17)».

إذا لا فالجزائر لم تنس.

(ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) (سورة البقرة الآية 42)

إن الإستشارة المزدوجة ـ القضائية السياسية ـ الآنفة الذكر تحمل ذنبًا مزدوجًا حيث الطيش والعراك بالجهل للفعل والحق [2].

يزيد هذا من مفاجأتنا أكثر إذ أن إشكالنا ليس مع «مغفل لا يوسم، يجهل القانون» مثل الأمين السياسي للحزب الشيوعي الجزائري، المتعاون بالصدف مع صحيفة الكومونيست (الشيوعي) فقدقدم لنفسه الفخفخة لكتابة إفتتاحيتين في صحيفة ليبرتي (الحرية) حول قانون الجزائر،الموضوع الإرتقائي، والثاني تناقضي في الأول كان الأمر عبارة عن هدية سلبية بالكامل، في الموضوع الثاني يتعلق الأمر بصدقة ثورية.

---

2. أظهر الجنرال ديغول نفس الزلة، وهو يتكلم عن ميثاق الأمم المتحدة، صحيفة : لوفيغارو (LE FIGARO) بتاريخ 15. 04. 1961، تكتب بشأن الندوة الصحفية حول موعد إيفيان «من المحزن أن تقرير الإتهام المعلن من طرف رئيس الدولة ضد الأمم المتحدة قد جرى إضعافه بأخطاء الواقع.

السيدان لامبيرت، وشوفاليي كانا متضلعين في علم القانون، وفي علم الإجتهاد في تفسير القوانين وشرحها، كانت هذه مهنتهما الاستاذ كونه مستشارا قانونيا ؛ والقاضي البلدي أصلاً، كان مشرعا ثم وزيرا، عوض أن يندهش المرء لعدم وجود تحديد مكانة الجزائر في المادة 60 المشار إليها سابقا. حيث تذكر فرنسا وحدها.، كان أولى بالمشرع أن يكلف نفسه عناء التصرف بنمط القضاء والسياسات التي تتحرك بجدية وأمانة، يمكن إعطاء الصفاء والحياة لجسد جامد، بنص قانون ساعيًا إلى إكتشاف روحه في نية المشرع.

من جهة أخرى، التكليف بمهام الأعمال للجنة الإستشارة لم تكن لتنتهي إلى محضر سيء للفقرة ؛ عكس ذلك.

لم تكن الجزائر غائبة لقد تم تحديدها رغم هذا، وضد التعتيم الحكومي كلما كنا نستطيع إيجاد العلل الطارئة، كنا نستعمل تشريح الدستور رقم 4، كما لو كنا نفتح جثة بهدف بحث طبي شرعي، ونشق جوف سر ما ! إن قانون الجزائر لم يتوفّ بموت طبيعي ولكنه سمم !

المدخل يثبت التعمد بثلاث وقائع رئيسية :

1 . نص المادة 60 جرى تحريره من قبل السيد م.ج (M.G) بغية تنقيح المشروع الحكومي وتكملته بإضافة رتبة الأراضي المنضمة (المشتركة).

كان يجب لهذه المرتبة في ذهنية المدسترين أن تأخذ في الحسبان بفارق التدرج بين الدول المحمية (المغرب . تونس . الفيتنام) وولايات ما وراء البحار (المارتنيك . قوادالوبي) أوأراضي ماوراء البحار (السينغال، إلخ)

لم يكن هذا إذن زخرفة مصطنعة لتجميل معماري للذهن، كان ذلك إشارة للأرض المنضوية بدون الحصول على صفة دولة بمعنى القانون الدولي متمتعة بالحكم الذاتي الداخلي، فهذا إذن هدف دقيق وعملي.

2 . لقد إبتدعت الأرض المنضوية كذلك لبتر الخلاف العميق الذي كان يعزل فيما يخص القانون المستقبلي للجزائر، غالبية المحافظين المدسترين للحكومة، كان هذا الأخير يعتبر الجزائر «كولايات فرنسية» تشكل جزءًا من الجمهورية.

كلما صارت الجزائر ولاية فرنسية، كلما كنا نسير باتجاه الإنعتاق الجزائري ... «يضيف وزير فرنسا لما وراء البحر».

لا شيء بالمرة جاور خساسة وزير فرنسي من أجل إبقاء الشعب الجزائري مقيدا إنها ذهنية التشبيه المتفوقة دائما. تشبيه، نقاوة، بلاغة، شكل للهيمنة الإستيطانية

المنافقة، ولكن دائما كان نفس الخطاب الأجوف: «نظام تشكيل الولايات»، من غير أن يمنح لغالبية الجزائريين كأفراد أو مجموعات الحقوق نفسها على المستوى السياسي، الإقتصادي أو الإجتماعي. (رواتب، تأمين إجتماعي، منح).

لم يكن المدسترون في غالبيتهم السياسية المنتبهة منخدعين بالعلقم المعسول لوزير إستعماري كاذب، لذلك رد السيد بيير كوت الأطروحة الحكومية، الأمر متروك للشعب الجزائري لإختيار مصيره.

«يجب علينا إذن أن ننشئ درجة ثالثة، هذه الدرجة «سأريدها جد عريضة، لمواجهة كل المستجدات، وتلقي «الحالة المستحقة للجزائر في يوم ما إذا كانت هذه الأخيرة تفضل الفيديرالية على التشبيه» [3]

هذه الفكرة الموجهة لم تنجح الحكومة في خنقها. لقد هيمنت على نقاش اللجنة، إننا نجدها سليمة تحت صيغ مختلفة وهي دائما صافية لدى الوزير القديم للجو، إنها تأخذ طعما خاصا عندما نعترف على مسافة خمسة عشر عامًا بالمبدأ نفسه لتقرير المصير يقبل! يا للحسرة! بعد إمتحان رهيب.

«... الجزائر ومدغشقر اللذان يجب أن يعتبرا كجمهوريتين مستقلتين ذاتيا ضمن الإتحاد الفرنسي، إذا كان ممثلوهما موافقين، نستطيع ترتيب قوانينهما بقوانين تنظمية، ويجب إستشارة الشعبين بعدها. (جلسة 31 جويلية 1946)

هكذا يثبت بشكل لا ريب فيه أن الدستور كان قد توقع وضع الأرض المنضوية للسماح للجزائر بالخروج من سجنها المتمثل في الجمهورية الفرنسية، والتوجه صوب الإنعتاق الوطني المتنامي.

إن إسترجاع الحقيقة حول الصفاء وكفاءة معظم المحافظين المدسترين، هو طريقتنا في تحية الوطنيين الفرنسيين الذين كانوا يخدمون بلادهم دون الإقتناع بوجوب كره وطنيتنا؛ إنها طريقتنا في البوح بامتناننا المخلص للديمقراطيين الأوفياء، لروح المقاومة الذين حاولوا مساعدة الجزائر للتحرر من القيد الإستيطاني.

3 ـ عام 1947 فإن البرلمان الفرنسي هو الذي نال من شرف فرنسا، في الوقت الذي كان يحضر فيه قانون الجزائر، يرفض البرلمان أن يأخذ الإعتبار بمشروعي الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (U.D.M.A) والحزب الشيوعي الجزائري المستوحيين من فكرة الأرض المنضوية إطارًا متوقعا من جانب الدستور لكل من الجزائر ومدغشقر.

---

3. تقرير حصري تحليلي لجلسات لجنة الدستور 12. 09. 1946 ص 513.

بالتنكر لمبدأ من مبادئ دستورها، فإن فرنسا الإمبريالية تحنث بمنح الجزائر ما وعدت به وتقر «مجموعة الولايات قانونا مهجنا ذا صيغة تشريعية تجديدية غير موجود في المادة 60 المحددة للإتحاد الفرنسي.

لقد تعرض الدستور الفرنسي للخيانة وهو الذي كان هدفه مكونا من فكرة «وضع نهاية قضائية للنظام الإستيطاني».

إرادة غالبية الشعب الجزائري المعبر عنها بحصة الإجماع المطلق لنوابه المنتخبين بطريقة التصويت العالمية تنتهي إلى السخرية.

إن هذا التلصص بالبرلماني يثبت الإخلال المعتاد للحكومات للتظاهر بأنها على الأقل مسعورة.

جعلت من المستحيل أي تقدم سلمي لبلدنا المتعطش إلى الحرية والإستقلال. فعوض المرور التدريجي من درجة لأخرى حسب السير المتوقع بالمادة 75 للأرض المنضوية، إلى الدولة المنضوية ؟ فإن البرلمان الفرنسي اختار القانون وبدل الإستفادة حسب رغبة المدسترين من نصف حرية في داخل بلد محكوم ذاتيا منضو إلى فرنسا؛ فإننا نجد جزائرنا يرمى بها في قفص قضائي... دون إنفتاح دستوري، تاركين الحرية الحمراء تطير.

كان ذلك تمهيدا ميكيافيليا، لقفص ضخم للأسود التي راح الإستعمار آكلُ لحومِ البشر يروضها على نفس وطننا اللامستأنس. الأسلاك الشائكة المكهربة ؛ وحقول الألغام، خطوط موريس وخط شال على جانبي تونس والمغرب ؛ شبكة حساب مثلثات (إحداثيات) بحرية مترامية للأسطول في البحر الأبيض المتوسط، حاجز مراقب للحركة آليا مع رادارات وطيران في الصحراء.

مع مكر، أو عنف، كان هذا دائما حسابا خاطئا للساسة المنغصين، محلفي قصر بوربون، فندق ماتيغنون، والإيليزي.

ورد في القرآن : «عسا أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسا أن تحبوا شيئا وهو شر لكم[4]».

(سورة البقرة آية 213)

الإستعمار الفرنسي يقدم على إقتراف خطأ يستحيل إصلاحه وهو بالحاق الإهانة المتوحشة في حق نواب البيان الجزائري، ألحق بإيديولوجية الإصلاح

---

4. سورة البقرة الآية 213

الوطني ضربة قاتلة فقد ذكر أولئك الراكنين إلى النسيان أو التسامح مع بربرية البطش الذي خلف 45000 قتيل في الجزائر و 90.000 قتيل في مدغشقر.

هذا هو القسم الدستوري لفرنسا، الإستعمار الفرنسي الأعمى المتعطش للدم ... كان يحفز الجزائريين على الكفاح المسلح ...

يبقى الكفاح المسلح حتى الموت هو الحل الأخير،

إزدواجية الوجهة الإستعمارية الفرنسية، تتسلح بكل الوسائل للإبقاء على الشعوب المستخدمة؛ النوايا السيئة في حق الجزائر تتفجر في اليوم الكبير .عندما نعلم أن درجة «أرض منضوية» المرفوضة للجزائر تم إقرارها رسميا للكاميرون المستعمرة الألمانية القديمة، التي وضعت تحت نظام الوصاية للأمم المتحدة.

لإستباق الإستحقاق الحتمي لإعلان الإستقلال من طرف الأمم المتحدة، تتعجل الإمبريالية الفرنسية في الإجراء عام 1946 لتعلن أن الكاميرون بات «أرضا منضوية ضمن الإتحاد الفرنسي.

يلغى المبدأ العالمي لحق الشعوب في ترتيب أمورها بنفسها .. يدفن حق تقرير المصير «الأمبراطورية» تهمل من أجل «الإتحاد»، لكن المسخ ليس إلاّ إستعاضة مشفوهة للإتحاد الفرنسي وسيظل بالنسبة للشعوب المستعمرة هو «السجن» الفرنسي.

إن دهاء هيئة الإستشارة القضائية للإحتفاظ بالكاميرون على أمل وضع الأمم المتحدة أمام الأمر الواقع، حيث يتجلى سوء النية المزدوج بواسطة (coercition) وحش الجيفة؛ لا يرغب في التخلي عن فريسته، لقهر الجزائر.

التقدم السلمي - بمراحل. المتخيل لدستور كان يمكن أن يرضي المهووسين في الهيئة الإحتكامية الأكثر نزوقا، ولكنَّ ما كان يمكن وقوعه بلا عنف هو التخلي تحت الإكراه للعدوى الثورية. عام 1957 يشكل في الكاميرون دولة تحت الوصاية تتمتع بالحكم الداخلي بحكومة مسؤولة أمام المجلس التشريعي في ياوندي، لاحقا تمنح السيادة الخارجية لجميع البلدان الأفريقية السوداء، التي قدر دستور 1946 بأنها خليقة بالاصطفاف خلف الجزائر ومدغشقر ضمن قافلة الإنعتاق الوطني.

الكثير التقبيل سيء العناق كما يقال، إن الضربة السيئة التي ألحقت بالجزائر زعزعت الأسس الواهية للإتحاد الفرنسي، الجالية الفرنسية أو الجالية «المتجددة».

كان إفلاس العمل البرلماني تجربة محتومة؛ فقد كانت هذه التجربة تبدد الوهم

بتغطية ذئب بجلد نعجة، لأنها كانت تجمع بشكل نهائي الفكرة التي تجذرت في قلب المثقفين الجزائريين العاملين سلميا في إطار النظام الإستيطاني.

من دون هذه التجربة البرلمانية، لم يكن في مستطاع الإيديولوجية الثورية أن تنتصر على الأيديولوجية الإصلاحية، ومن غير هزيمة للإصلاحيين لم تكن هناك ثورة ظافرة.

كان مثقفونا يجهلون فاعلية العنف لا بعامل أصولهم الإجتماعية فحسب ولكن أيضا بحكم تكوينهم بالتعليم الفرنسي فقد كانوا يتخيلون أن فرنسا 89 التي كانت تزرع «الجمهوريات» في أوروبا سوف تواصل مهمتها الديمقراطية بواسطة تقدم التاريخ نفسه؛ وعليه، كان إذا يكفي التشهير بالإستعمار.

إنه تقهقر من أجل أن لا تبقى «العدالة المستمرة في الجريمة» لا تبقى شعارا مثبتا في اللوفر أوعلى قوس النصر للنجمة ؛ لكي يفهم كيف استنفذَ صبر الشعب الجزائري مع التجربة البرلمانية، يجب أن نعرف أن هذا الشكل من العمل كان يعتبر كعلاج عالمي معاد للإستعمار، كان تمثيل المحرومين الجزائريين في البرلمان الفرنسي، كلمة إجماع مرسلة بواسطة نواب «متعربين» غداة الحرب 1914. 1918.

إن عوامل إنتصار فرنسا على ألمانيا غيلياوم الثاني حديثا، زائد إخفاق الإنتفاضتين المسلحتين عام 1916 في الأوراس، وفي ناحية بني شقران (معسكر) لمعارضة قانون التجنيد، إضافة إلى غياب منظمة سياسية؛ هذه العوامل جاءت لتعميق شعور العجز والإعتماد على النفس للتخلص من النير الإستعبادي.

لإظهار«إعتراف » فرنسا بشرعية الأعيان (الوجهاء)، إستجابت الحكومة إلى الحضر المسلمين بحق الإنتخاب بالتصويت الحصْري لتعيين مستشارين بلديين بعدد لا يجب أبدا أن يجاوز ربع عدد الأوروبيين.

كان الرئيس والنواب أو المندوبون تحديدا من الأوروبيين، حتى المأمور بالمقابر المسلمة.

تسيير البلدية كان كله موجهًا بالكامل لصالح السكان الأوروبيين.

ملخص للتشريع يشير إلى أولويات الميزانية المعتمدة من جانب الحكومة الفرنسية المخصصة لصالح المعوزين، ويورد كمثل بلدية تيزي وزو التي حولت المبلغ الموجه لإسعاف البطالين المسلمين، لتمنحه إلى فرقة موسيقية نحاسية أوروبية محلية محتاجة إلى نحاسيات وآلات نفخ.

الجزائريون إذن يدعون بالطبع إلى تعيين الفارق بين «الجيد» و«القبيح» بين فرنسي فرنسا، وفرنسي الجزائر.

البحث عن حليف في باريس ضد العدو في مدينة الجزائر سيغدو هذا فيما بعد تكتيكا مقبولاً.

تمثيل الجزائر بين المسلمين في غرفة النواب يصبح المطلب الأساسي القطب للحركة المعادية للإستعمار بعد الحرب العالمية الأولى. كان لهذا التيار الوطني الإصلاحي جذور شعبية عميقة في المدن وفي الأرياف كان منشطه الأمير خالد ؛ إنه ضابط قديم في الجيش الفرنسي برتبة نقيب، كانت له صحيفة دورية بعنوان الإقدام، إنه الجزائري الذي كان يمشي على رأس الشعب كان الأول في الهجوم ضد الظلم، والإذلال والبؤس، إنه وجه كبير للجزائر.

إنه أمير شريف وجيه هو أحد أحفاد الأمير عبد القادر الجزائري، كان مثل جده؛ جرى نفيه إلى فرنسا أين يواصل دعاية مكثفة بمواضيع صحفية، باجتماعات عمومية، زيارات لدى رجال السياسة، إتهمه إدوارد هيريو بقبول دعم الشيوعيين الفرنسيين، فرد الأمير خالد برسالة مدوية ظلت متداولة زمنا طويلاً في الجزائر متنقلة من اليد إلى اليد كوصية سياسية.

عامان بعدها، بمناسبة الإنتخابات البلدية للجزائر العاصمة، يتبوأ رأس القائمة كمترشح للعفو الشامل، فينتخب الأمير خالد بانتصار عظيم مع قائمة الإتحاد الوطني المعادي للإستعمار، الذي جمع لأول مرة أثرياء بورجوازيين، حرفيين، مثقفين، وعمالا منضويين في النقابة أو أعضاء من الحزب الشيوعي، صارت الحملة الإنتخابية إستفتاء شعبيا منقطع النظير.

حمّى الإنتخاب لم تستولِ على قبضة الأعيان المسجلين على القوائم الهيكلية للتجمع «لانديجان» المعوزين (المضايقين) فقط، بل شمل الحماس جميع سكان العاصمة والضواحي ؛ عند الخروج من المساجد حيث كان التأثير استثنائيا، راحت تتشكل مواكب تجوب طرق القصبة، الواجهة البحرية، أو بلكورت، كانت كلمة الإجماع المدوية الموزونة الصادرة من حناجر المتظاهرين هي " الله ينصر سي خالد "

كانت هذه الجملة من حناجر المارة في داخل المتاجر، والزبائن الأطفال ولاعبي الدومينو الخارجين من المقاهي الأهلية. الإستعمار الفرنسي يجن جنوحه للتيار الشعبي ويعتبر الأمير خالد«غير مؤهل للإنتخاب».

بلغ هذا بمزية محاربة المحرومية (الأنديجان) التي تحرم آليا الحقوق المدنية والتي تمس كل جزائري معتقل مبعد أو منفي.

طبعا بلغ هذا دون الإخذ في الحسبان صفته كمحارب قديم في الحرب 1914 - 1918، ولا صفته كضابط فرنسي، ولا وسام الشرف المتحصل عليه بالمجازفة بحياته ... ولا كان ذلك بفضل تدخل النائب المسلم للسنغال ؛ بل عكس ذلك هذه الحالات اللامعة من العمل، كانت ظرفا متفاقما في عيون الإستعمار التي لم تكن لتقبل «تمرد مرتزق عربي مسلم».

إن الضغط الإستعماري في عاصمة الجزائر إلى جانب الأمبريالية الباريسية، يتجسد بتضخيم الإجراء الإداري الذي ظل يضرب الأمير خالد، المكافح الجزائري المنفي عن وطنه المبعد من فرنسا، مثل جده، لقد جرى إبعاده إلى سوريا التي أضحت محمية فرنسية. حتى وهو مبعد إلى دمشق يظل اسمه في الجزائر، الرمز الذي لا ينسى للمقاومة وللضغط الوطني. شهور طويلة بعد الإنتخاب المخزَّن في الذاكرة يبقى تلامذة مدارس الجزائر العاصمة أوفياء لمظاهرتهم التقليدية، وهم يخرجون من الأقسام مغادرين عند الساعة 11 والساعة 4 عائدين إلى بيوتهم في مواكب متذكرة صائحين باللازمة المعادية للإستعمار : الله ينصر سي خالد !

لقد ظلت ذكرى الأمير خالد محفوظة أيضا مع جدية مستمرة من طرف فيكتور سبيالمان، معمر صغير مهزوز بالحقد الإنتقامي للمعمرين الكبار ؛ والذي تحول إلى كاتب صحفي بسيط مروج إلى أن مات عام 40 أو 1941 بالعاصمة فيكتور سبيلمان هذا لم يتوقف أبدًا عن نشر واستعراض كتابات وخطب المجاهد المنفي عن وطنه في الإفتتاحيات.

ظل اسم الأمير خالد مجللاً ساطعًا بمجد جده المتشامخ، الأمير عبد القادر؛ وقد أستعمل زمنا طويلا راية للمعاديين للإستعمار، وطنيين أو إشتراكيين ثوريين لتلك الحقبة التاريخية.

إن برنامجه ذا النقاط العشر، ظل يشكل ميثاق الشعب الجزائري في مجموعه ؛ فقد كان إلى جانب التمثيل البرلماني، يمثل كلمات الإجماع للكفاح ضد الفقر، وقوانين استثناء أراضي الصحراء.

- دليل الغابات قوانين ذات مفهوم إقطاعي، قامع للرعي في الغابات، مكرس للسخرة، فيما يتعلق بالحراسة المجانية وتبعية الغرامة الجماعية في حالات وقوع الحرائق...

- الاستملاك الدائم للأراضي المشاعة (عرش) للجماعات أو الخواص، المستلبة من الفلاحين لصالح الإستيطان الرسمي، أو لرئيس بلدية نصاب بحسب

إجراء قانوني يقرر «المنفعة العمومية» تحت الصيغ المختلفة قابل للشرعية، أو شرعي بالكامل أو جهارا غير قانوني.[5]

لنحترس من الطائفية الجاهلة التي تريد رؤية أنصار الأمير خالد بعيون تروتسكية، أو استعمال ميزان التاريخ لتشبيه وضعية بطولية مخالفة ومكتملة بتوظيف الموازين الخاطئة للإستدلال.

في الفترة نفسها ينشئ الحزب الشيوعي الجزائري نجم الشمال الأفريقي، منظمة سياسية ووطنية ثورية، موجهة لتجميع المغاربيين العاملين بفرنسا، لم يكن لديها حضور كبير رغم كلمة الإجماع لـ "الإستقلال لشمال إفريقيا التي كانت تطلقها مع الحزب الشيوعي الفرنسي، والإتحادية العامة للعمال الموحدة.

دائما وفي الفترة نفسها كان من الأسهل المطالبة باستقلال الجزائر في فرنسا، بدل المطالبة بالتمثيل البرلماني للمسلمين الفرنسيين إنطلاقا من الجزائر.

إذا أخذنا بالحسبان الفرق بين الحرية المتاحة للجزائريين داخل البلدين؛ فإنه كان من الأسهل أن يكون المرء«إنفصاليا » في باريس، على أن يكون مناصراً للتماثلية في الجزائر.

كان في ميسور الحاج علي عبد القادر مؤسس نجم الشمال الأفريقي، أن يسمح لنفسه بحق إنطلاق حملته الإنتخابية جهاراً كمترشح شيوعي للمجلس البلدي لباريس، مطالبا باستقلال الجزائر، المغرب، تونس : لكن مؤسسا آخر من مؤسسي نجم الشمال الأفريقي، معروف هو محمد المناضل المتموقع في النقابة والذي كان يعقد تجمعاته بحرية في فرنسا يوقف في ميناء الجزائر عند نزوله من المركب، ويرسل إلى إقامة جبرية بالصحراء دون أن يقوم بفتح فمه !

هل إنَّ القول جهاراً: السيد مارسيل كاشين رجل ذكي ! يعتبر سببا كافيا للمحكمة القمعية في سكيكدة، بتسليط عشرة شهور جبساً نافذا بحق المعجب بمدير صحيفة لومانيتي ؟ (L'humanité) كان من الأسهل المناداة بالإضراب العام في فرنسا ضد حرب المغرب، من الظهور في الجزائر بمظهر المناوئ للتحية

---

5. في الحقبة الأخيرة (40 سنة) ارتفعت مساحة أملاك الاستيطان بالثلث، يعني هذا قرابة مليون هكتار.
لقد سهرت الإدارة الإستيطانية على منح إعادة شراء أراضي «اللاتينيين» من قبل الفلاحين الجزائريين. ولم تكن تتردد في الإبتهال بأسبقية حكم الشفاعة لدى المسلمين لصالح الأوروبيين، كان التحويل إذن يسير في إتجاه واحد لفائدة الأوروبيين المستعمرين بإتجاه التركيز الرأسمالي.

المفروضة من طرف كل حامل للبذلة الفرنسية الرامزة للدولة، لأن هذا يعد مساسًا بالهيبة المقدسة للسيادة الفرنسية.

إن الدليل القانوني المتعلق بالفقر الإستعبادي المطالب به في الجزائر تحت الديكتاتورية الإستيطانية، والتمثيل الإستيطاني في برلمان الدولة المستعمرة كان في تلك الفترة يدل على تقديم البرهان على الإقدام السياسي والتفاني.

إن المطلب المنتشر شعبينا بواسطة الأمير خالد قد احتفظ بأنصار ذوي وطنية وشجاعة ثابتة.

لا يجب الإستغراب عند مشاهدة الديماغوجية الفاشية تبدي الإهتمام بشؤوننا عام 1941، فقد كان بيتين بحسن مماطلة البورجوازية العربية باستدعائه أربعة وجهاء للإجتماع في المجلس الوطني لفيشي.

لا يجب الإستغراب عند مشاهدة الإصلاح الوطني يتلقف شبابا جديدا مع الإنتخابات إلى اللجنة التأسيسية، التي ظهرت بالضبط غداة «الوثبة العربية» في ماي 1945.

غارقة في حمام دم، الشيء الذي سهل المغازلة مع الإديولوجية الإجتماعية الديمقراطية، إرهاص غلمان ماركسيين، حراس متهافتين على (السراي) القصر الإستعماري.

كل عطلة فيها خير، لا شك أن الإستعمار الفرنسي الذي اختبل بطرش معنوي، قد رمى الآن بخشونة مسابقة الجزائريين المتهيئين لاتباع النهج البرلماني من أجل جعل بلدهم يتقدم دون صدام حتى الإزالة الكاملة للإستعمار.

ليست هناك جمهورية جزائرية ولا جمعية تأسيسية جزائرية ولا حتى مجرد «حكومة جزائرية تعنى بالشؤون الداخلية» يكون تعديلها تماثليا من طرف بعض المختارين المتلهفين إلى خيانة.

إنها كراهية الخنازير؛ الجميع بيديها عبر هذه المعركة البرلمانية. نعم أولاً لقانون مطابق لروح ولرسالة الدستور، إنها تثبت الوضوح، التعليق، وحل الثوريين. إنها تردم الشرخ الإديولوجي الذي كان ما يزال يفرق بين مختلف الإتجاهات للوطنية الجزائرية، بالإجهاز على إنحراف الإصلاح.

حتى هذا الحد ورغم الأخطاء التكتيكية المتراكمة منذ ثلاثين سنة، فإن سياسة الرفض للسيطرة الإستيطانية ظلت تستمر رغم التجربة المحزنة برفض المطالب واحدًا بعد واحد، إنها الأسباب التي كانت قد أدت إلى الإفلاس.

المفروضة من طرف كل حامل للبذلة الفرنسية الرامزة للدولة، لأن هذا يعد مساساً بالهيبة المقدسة للسيادة الفرنسية.

إن الدليل القانوني المتعلق بالفقر الإستعبادي المطالب به في الجزائر تحت الديكتاتورية الإستيطانية، والتمثيل الإستيطاني في برلمان الدولة المستعمرة كان في تلك الفترة يدل على تقديم البرهان على الاقدام السياسي والتفاني.

إن المطلب المنتشر شعبينا بواسطة الأمير خالد قد احتفظ بأنصار ذوي وطنية وشجاعة ثابتة.

لا يجب الإستغراب عند مشاهدة الديماغوجية الفاشية تبدي الإهتمام بشؤوننا عام 1941، فقد كان بيتين بحسن ممالقة البورجوازية العربية باستدعائه أربعة وجهاء للإجتماع في المجلس الوطني لفيشي.

لا يجب الإستغراب عند مشاهدة الإصلاح الوطني يتلقف شبابا جديدا مع الإنتخابات إلى اللجنة التأسيسية، التي ظهرت بالضبط غداة «الوثبة العربية» في ماي 1945.

غارقة في حمام دم، الشيء الذي سهل المغازلة مع الإديولوجية الإجتماعية الديمقراطية، إرهاص غلمان ماركسيين، حراس متهافتين على (السراي) القصر الإستعماري.

كل عطلة فيها خير، لا شك أن الإستعمار الفرنسي الذي اختبل بطرش معنوي، قد رمى الآن بخشونة مسابقة الجزائريين المتهيئين لاتباع النهج البرلماني من أجل جعل بلدهم يتقدم دون صدام حتى الإزالة الكاملة للإستعمار.

ليست هناك جمهورية جزائرية ولا جمعية تأسيسية جزائرية ولا حتى مجرد «حكومة جزائرية تعنى بالشؤون الداخلية» يكون تعديلها تماثليا من طرف بعض المختارين المتلهفين إلى خيانة.

إنها كراهية الخنازير: الجميع يبديها عبر هذه المعركة البرلمانية. نعم أولاً لقانون مطابق لروح ولرسالة الدستور، إنها تثبت الوضوح، التعليق، وحل الثوريين. إنها تردم الشرح الإديولوجي الذي كان ما يزال يفرق بين مختلف الإتجاهات للوطنية الجزائرية، بالإجهاز على إنحراف الإصلاح.

حتى هذا الحد ورغم الأخطاء التكتيكية المتراكمة منذ ثلاثين سنة، فإن سياسة الرفض للسيطرة الإستيطانية ظلت تستمر رغم التجربة المحزنة برفض المطالب واحداً بعد واحد، إنها الأسباب التي كانت قد أدت إلى الإفلاس.

إن رقاد الذاكرة لم يمنح ذكرى تلك المبادرة لدائرة التقدم، وهي تنظم مظاهرة مع استعراض متبوع بعلم ضخم، أزرق أبيض أحمر للإحتفاء بوصول المنحوس: ريقني وزير الداخلية، إلى الجزائر، بالقرب من البريد المركزي، المتظاهرون صائحون«تحيا فرنسا» يتعرضون للهراوات والصرع... ويداسون بالأقدام في الوقت نفسه مع العلم الفرنسي المنزوع الممزق المدنس من طرف الشرطة «الفرنسية» المتعربة.

كان ذلك عام 1935، لاديبيش ألجيريان، (البرقية الجزائرية) اليومية الكبيرة للإستيطان الضخم، كانت قد خصصت كل الصفحة الأولى لإعادة نشر وثيقة داخلية للحزب الشيوعي الجزائري، «المنشور: (موقع بارتهيل) الذي يوضح بأن «الجزائر ليست فرنسا» البطالة تنخفض بفضل الأعمال التقشفية للذكرى المؤية (فندق أليتي، كازينو دار البلدية) الموقف يتعمم، نساء، أطفال، ينقصهم الخبز ... في الوقت نفسه كان ملوك الخمور يبدون إمتعاضهم من حكومة «فرنغاوي» الحامية لأرباب الكروم في منطقة ميدي (فرنسا) مهددين بغلق البلديات بواسطة إضراب إداري غير محدود.

الحكومة تؤخذ بين نارين، وترسل وزيرها للإستخبار، تحكيمه قد تم تحويله إلى شكل جلي بشجاعة الرئيس: مولية عام 1956 أمام حبات طماطم المتيجة.كان ينبغي قهر العرب والشيوعيين، بإكرام الجزائر بواسطة أمر ريقنيي، الذي راح يتشدد في قانون ذوي الإحتياج برفع عقوبة أي مساس بتبجيل قدسية السيادة الإستطانية من سنتين إلى خمس سنوات. عام 1945 لم نكن نعرف أن هناك مناضلا عنابيا حكم عليه بعامين سجنا بسبب نظرة سيئة إلى رئيس دائرة.

عام 1947 ينتبه المتخلفون لسياسة الإستجداء بتجربتهم الذاتية إلى أن سياسة الدبزة والدبوزة وحدها تكون قادرة على إنتزاع الكرامة الموعود بها والمرفوضة أبدأ من جانب الإستعمار.

إن تجربة قصر بوربون لم تكن غير مجدية، كل فعل إستعماري، كل مماطلة كانت تشكل كمّا ضروريا من الحلقات لإكمال سلسلة التعليم السياسي الإجتماعي للشعب الجزائري، إن تكرار الأحداث كان ذا قيمة بيداغوجية أكثر إخصابا من الدعاية وحدها.

إن التقنع التنكري الإستيطاني الجمهوري قد بين أن :

1 . الفعل البرلماني ليس علاجًا عالميًا . ليس له ميزة محددة على الأرجح، ليس أكثر من الأشكال الأخرى للعمل التجزيئي، كالنشاط النقابي، الإقتصادي، الإسلامي، الإنتخابي والكشفي إلخ.

مثل جميع «الإختصاصات» لا يمكن أن يكون مقبولاً إلا إذا أخذ في الحسبان نشاطات القطاعات الأخرى طبقا لمخطط شمولي.

2 . إن العمل البرلماني عبارة عن منصة مدرسة تسهل مرور طور الدعاية إلى النقد المكثف والبناء، إنه تريص حتمي لتكوين رجال دولة. يمكننا التآلف مع دواليب الحكم وآلية الديمقراطية بشرف داخل برلمان بوجوازي.

يمكننا أن نتعلم فضح القوى المسيرة، غير البائنة. لكن الواقع أن كل مظاهر التناقضات الداخلية الخفية قد جرى خنقها، الأغلبية البرلمانية تم تحويلها إلى قطيع خراف. كان رئيس الحكومة «يجمع اللوبيات من الملوك الصغار للبورجوازية، قبالة إقطاعيين كبار، مجردين تقريبا من السـلاح».

يمكننا إذن أن نتمرن على قياس تأثير جماعات «ضغط» الغلو البرلماني وإستباق الحس بالإرتشاء المالي الإقتصادي المعنوي البوليسي.

طبعًا نحن نعرف عفن النظام الإستيطاني، القهوة أو ملح اليد ؛ إنها تعابير جارية ومعبرة لشراء مؤازرة موظف أو منتخب من بني وي وي (المصوتون دائما بنعم)، أو شرطي من أجل السماح بالمرور، القايد من أجل عقد إزدياد؛ ضابط من أجل إعفاء من الخدمة العسكرية ؛ قاض من أجل ربح قضية صالحة أو سيئة.

كان الإرتشاء حاضرًا وجد مهم لإستمالة إداري كبير، أو رئيس دائرة؛ ويكون ذلك أحيانا بحلية مميزة مرغوبة، ومحل طمع امرأة العامل (الوالي) أو امرأة الحاكم غداة عيد عربي.

كان جميع الناس يعرفون أن السيد : ميرانت مدير قضايا الأهالي (الأنديجان) الذي لا يعزل من مركزه، كان يبيع البرنس الأحمر، رمز تحصيل وظيفة القايد بتسعيرة متعارف عليها قيمتها مائة ألف فرنك! هذا لا يفاجئنا عندما كنا نستطيع معرفة أن إبن رئيس الجمهورية الفرنسية كان يبيع مباشرة صلبان أوسمة الشرف، أو تراخيص قاعات القمار ...

ما كان يصدم المستعمَرَة أرضه، هو وجود الظواهر نفسها في باريس ؛ ولكن بحجم أكبر وعلى مستوى أعلى. البقشيش القديم على النمط التركي، فرديا وإحترافيا يتحول إلى مؤسسة قانونية جماعية، وهائلة على النسق الأمريكي، إن قصر بوربون عالم غريب «لا نميز فيه قطا من جرذ» النواب، الوزراء، الصحافيون، الناس من ذوي المناصب «المهمة» مشتركون في سوق للذمم، كما لو أن الأمر كان يتعلق بالمواقع المؤجرة للمعرض في الأودية، يتعلق الأمر مرّات بزمرة حقيقية للصوص مع قضية الخمور، كان الأمر مفضوحًا.

تساقي نخب الصفقات يجري على الأقل في سرية، ولكن الواقع عكس ذلك، وهو ما كان يثير فضائح قديمة مثل : بنما أو ستاقيسكي، مع مظاهر البراءة الحانقة ؛ الأمر لا يتجاوز حادثا لا نهاية له[6].

لم يهمل الإستعمار بالمرة استعمال هذه الإرتشاءات البرلمانية في كل مناسبة. كان يعرف أنها تشكل «ميزانية حرب » ممونة برسم مأخوذ على كل هيكتوليتر خمر، أو كل قنطار قمح، مشروع فيوليت، الأمر 7 مارس 1944 . كلما تضمن قانون الجزائر خطرًا يهدد مصالح المستأثرين في النظام المستعمر، يلجأ هؤلاء إلى الدفاع بالتمرد أو الرشوة.

فهل يجب الإستغراب عند مشاهدة الجزائر المستعمرة تملي قانونها على باريس الأم[7]؟

3 ـ إن العمل البرلماني ليس بكيمياء تلد قوانين، حسب أبهة وبلاغة متكلم محكمة، أو الأهلية التقنية لديبلوماسية المخمرة. الإتحاد يصنع القوة، مبدأ صالح حتى داخل بهو لجمعية تشريعية أجنبية، حركة إنتصار الحريات الديمقراطية، إتحاد الديموقراطيين المسلمين الجزائريين، والحزب الشيوعي الجزائري.

لم تستطيع هذه الأحزاب تحقيق وحدة العمل مع الإحتفاظ بمواقع التحزب؛ إنقساماتها في المعركة لم تكن لتجنبها الإخفاق المشترك.

4 ـ العمل البرلماني يعكس علاقة القوى داخل البلد سواء في الجزائر أو في فرنسا، إن الضغط الشعبي هو العامل الأكثر تحديدًا .

كل ما تمنحه يد يمكن أن تسلبه الأخرى، ربما صارت الحكومة الفرنسية عاجزة عن تطبيق قانون وقعت عليه ونُشر في الجريدة الرسمية.

---

6 ـ بوتيمي (BOUTIMY) الوالي القديم للإحتلال هو مفرق أموال أرباب العمل، وللمنتخبين الذين يعانون من صعوبات ماليه. وهو المانح للنصائح، والمصدر للأوامر «إنتقائيات السكن أو برلمانيون في عسر، أو أصحاب حقائب جاؤوا لزيارته، صحيفة لوموند (LE MONDE) بتاريخ 9. 03. 1961 .

7 ـ تحت عنوان : لاكنوت (la gnuot) صندوق مالي لجماعة ما تكتب أسبوعية باريسية : إن جمع الأموال الذي جرى في الجزائر لتأمين الدفاع عن إقليم المتاريس، أثمر ثلاثمائة وخمسين مليون فرنكا قديما. صرف من هذا المبلغ قرابة الخمسين مليون كمصاريف للتقارير ومخالصة متاعب المحامين.. وبقيت إذن حوصلة اي مبلغ 300 مليون (إلى الأسماع 21. 04. 1961) من جهتها صحيفة لوكانارد أونشيني (البطلة المسلسلة)، تشير بشأن مال منظمة الجيش السري (OAS) إلى أن المبالغ المجموعة من لدن وجهاء القطاع الوهراني ومن جهات أخرى، حولت على الوطن الأم لخدمة من لهم الحق فيها ، وترتفع على مليارين من الفرنكات المدفوعة وأن أمين خزانة هذه الجماعة تمكن من السكن في بيزيي BEZIERS 03. 05. 1961 .

أ) إن قانون الجزائر الذي تضمن رتبة الأرض المنضوية. قد تم إنشاؤه وترتيبه لا دستوريا خصيصا ضمن درجة مهجنة بهدف التأمين الاصطناعي لدوام الجزائر «الفرنسية».

ب) إن قانون الجزائر الممنوح تحت شكل إنعكاسي، قد قدر أنه زائد الجرأة وخطير؛ لذلك فإن الإستعماري اصطنع إنتخابات الجمعية الجزائرية، بغية التحصيل على نايجيلين حصة من من بني وي وي ضامنا لأغلبية رجعية.

ج) قانون الجزائر المصادق عليه من قبل البرلمان الفرنسي، لم يجر أبداً تطبيقه فيما يخص مواده التقدمية، المقبولة على مضض : حرية تعبد المسلم، إرجاع أملاك الحبوس، حق الإنتخاب، وأهلية النساء المسلمات، إلغاء البلديات المختلطة؛ وحالة الأراضي الصحراوية مع حرية صحافة اللغة العربية...

بالنسبة لتعليم اللغة العربية في جميع الأطوار، يجب إنتظار أكتوبر 1961[8]؟ استوجب الأمر إذن أربع عشرة سنة، بينها سبع سنوات من الحرب، للتفكير في تطبيق قرار منصوص عليه بقانون 1947، كان الأمر ما يزال متعلقا بمشروع (!) إنشاء مائة وعشرين منصب مدرس من أجل تعليم اللغة الفصحى، واللغة الدارجة في بعض المدارس الإبتدائية المتوفرة على العنصر البشري اللازم. نذكر أن الإمبريالية الفرنسية في هذا الوقت لم تعمل على إزالة الصحافة باللغة العربية فحسب، بل أغلقت أكثر من مائة مدرسة بعدة أقسام، وكذا معهد بن باديس، مشتلة مدرسي المستقبل.

هذا هو التعبير الصريح للتجاهل الذي لم يتوقف أبداً عن إنتحال عبقرية التمدين لفرنسا الإستعمارية.

في المقابل لو أن الفعل الشعبي قوي بالقدر الكافي، لاستطاع فرض حقوق مكتسبة حتى قبل أن تكون مكرسة بالقانون المدون. مثال عام 1936 تصبح قوانين الأهالي معطلة قبل أن تصير باطلة. عام 1943 أستأنفت نقابات العمال النشاط العمومي، قبل سحب القانون المانع لهم، والحاكم عليهم بالموت تحت نظام "فيشي"؛ وقد غادروا الأدغال قبل كسر حالة التغيب.

عام 1960 العلم الأخضر والأبيض يستعمل داخل المدن أو في الأحياء الأرستقراطية، قبل أن يتم سحب بيرق (راية) الأمير عبد القادر من تحت نعل تمثال الجنرال بيجو، المنتصب في ساحة إيسلي، في قلب جزائرنا الجامحة وفي عام

8 . صحيفة لوموند (LE MONDE)1961 .04 .15

1961 يتوقف المجلس التشريعي للجالية عن الوجود، قبل إلغاء العنوان 7 من دستور الجمهورية الخامسة المتبني بواسطة إستفتاء بثلاث سنوات قبل هذا.

«القوانين التنظيمية لديسمبر 1958 هي اليوم متجاوزة لإنه منذ فقدان الكفاءات المشتركة عدلت الأسس التي تستوجب تطبيقها، يمكننا مقارنتها بأفكار فرنسوا : الأول حول حملة صيد الذئاب عديمة الفائدة هي الأخرى ؛ إلا كونها تاريخية ، منذ إنقراض الذئاب في فرنسا»[9]

لقد أصبح دستور الجمهورية الخامسة الديغولية متقادمًا، مع التدرج المتسارع لأقطار أفريقية صارت دولاً مستقلة، وبفضل الثورة الجزائرية.

لقد حطمت الحقيقة التاريخية المزلاج القضائي.

9. لوموند LE MONDE 1961 .04 .12.

الفصـل الخامس

جبهة التحرير الوطني

أيها الراقـدون «تحت التراب
أه ... الو تسمعـون ...»

انتهت وصلة الطرب المصرية، مذيع راديو طنجة يواصل : «كنتم تستمعون إلى أغنية للأستاذ عبد الوهاب، كانت مهداة للجزائريين».

داخل المقاهي الأهلية وسط ضباب التبغ وصيحات لاعبي الروندة[1] (ورق إسباني) الشطرنج، أو الشيش بيش[1]، يبدو ليس هناك من يعير الإهتمام إلى «الإجلال الجماعي» الذي لا يصدق للجهاز الطنجي؛ مع أن حتى أولئك الذين لايحصل لهم أن رأوا مشهد المقبرة في فيلم، «دموع الحب»، يوقفون سخرية التذكير بلازمة اللحن «دموع الحب» التي تدمج بشكل إنفرادي الجزائريين بالأموات المكفنين في مقبـرة بلوتـون.

كنا نترقب كل مساء تقريبا الإهداء الإذاعي للجزائريين ... التسلية المحزنة والمزدرية كانت تنسخنا إلى زامبيين «جثث حية» لأسطورة ڤودو: العبيد السود في جزر الأنتيل الذين تحولوا وحوفظ عليهم في حالة الروبوهات (الأجساد الإصطناعية) إما بالتنويم الإصطناعي أوبواسطة المخدرات»، المقاتل الشديد في الحروب الإمبريالية : الزواوي القديم الذي صار (zouave) زواف : العسكري التركي القديم في حرب القرم الذي أصبح تيرايور (Tirailleur) جندي الفنطزية، الفارس الجزائري الذي أضحى صبيحيًا، إن الجزائري الذي نخرته «الفرنسة» لا يمكن أن يكون مغواراً، لا كمرتزق مخمور بالكحول ؟ ولا متروك لنفسه، دون إسعاف من جانب مستغله أفلا يستحق العثور على طريق الخلاص ؟ وتجاوز عتبة عالم الشعوب المنعتقة ؟

---

1. لعبة ورق إسبانية، الشيش بيش لعبة شرقية بواسطة مكعبين من 1 إلى 6 وخانات منهجية، هي مزيج من الشطرنج والمكعب السداسي تلعب بين شخصين على طاولة ثنائية.

أكيد أن الإستقلال الوطني لا يتحقق إلاّ لمن يعقد العزم على تحصيله ريّا بالدم...

يبلّغ شوقي بذلك :

وللحرية الحمراء بــاب   بكل يد مضرجة يـدق

وعلى الشاعر العربي المتألق يرد الشاعر الألماني الخالد : غوته.

«إن كنت في عداد الأبطال   فأيــن جراحــك»

بالنسبة للشاعر العبقري الألماني، فإن تضحية المجاهد هي إجازة المرور إلى إستحقاق الشرف وتحقيق الخلود.

الجزائري المطبوع في العمق بالخلق الإسلامي يتحرر بسهولة أكثر من القلق والموت.

بدأ منذ طفولته اللينة يتعلم ألاّ ينام قبل ذكر إيمانه لإستقبال الموت «الأبيض» أو الطبيعي بصفاء، ثم يواجه الموت الأحمر بلا وجل فيما بعد بالحسام للدفاع عن شرفه (الحرية) الشيء المقدس لا يسمح بمساسه، مثل : «تهيليست» كلمة بربرية تعين رمزيا الفتاة الثيب ؛ حيث الإشارة العازلة لقطعتي أرض.

أفيصبح عندما يتعلق الأمر بشرف وطنه، دودة أرض عاجزة عن فعل شيء أخر خلاف الزحف ؟ أفيصبح غير قادر على النهوض بوثبة نافلة في مستوى الفراشة المنشدة من طرف «غوتة» نفسه ؟ :

«الكائن الحي الذي يبحث عن الحيـاة وسـط " اللهـب"».

العالم بكامله يتسـاءل :

من طنجة إلى بيكين، السبات السياسي للجزائريين كان غير مفهوم، في مكة، في جبل عرفات، في المدينة، كان الحجاج المغاربيون مضايقين بالأسئلة المقلقة من طرف الحجاج الوافدين من مشارق الأرض ومغاربها، في عالم يجيش غليانا، حيث راحت الشعوب المستعمرة تزعزع قيد الجاثر المنبوذ ؛ أسود الأطلس التلي والصحراوي الذين كانوا يعطون الإنطباع على أنهم قبلوا بالحرمان، والخضوع والتخلي عن كل كفاح من أجل الكرامة ! ... «حوحو يشكر روحو» الإدارة تثني على نفسها، إنها تبجل أهليتها، «مهمتها التمدينية» التي تحافظ على الجزائر من التشنجات المعدية منذ عام 1957 تفتح معركة الشريدين لأول مرة في تاريخ أفريقيا، بلاد القبائل حتى الآن صامدة ضد الدنس الأجنبي.

في معزل عن التمرد العام للمقراني عام 1871 والحرب الوطنية الكبرى لعبد القادر (1830 . 1947) لم يكن للإستعمار إلاّ البطش بـ «الخونيات» تمردات عديدة، ولكن بذهنيات محلية، محددة بالبؤس، المجاعة، أو الغضب، كانت تأخذ مع هذا صفات ثورات الفلاحين الفرنسيين، والثورات الشوانية لعمال المناجم، كان الثوار فلاحين وإخوانا في جمعيات بر.

وكان ضباط المكاتب العربية يتبادلون المدائح لدى الإحساس بظهور «النفاف» تمرد مسلح يماثل رواد الكولونيل لاورانس، ولكنه لا يشاطره قضية المتمردين. كان حكام البلدية المختلطة «يتحولون» إلى الإسلام منضوين ضمن جمعيات مرابطية، مستأثرين غالبا بالفخفخة بانتحال شخصية رجل الإطفاء، بإثارة التمرد في نواحيهم، ويعمدون إلى تفجيرها قبل الأوان، ويعمل على إدمائها كَوَرَمٍ، ترسيخ مفيد مجد، شارة رتبة وإستقرار ...

لم ينته الأمر بالفلاحين بعد للتعود على الإحترام الفطري للسيادة الفرنسية ؟ كما تقول العبارة، ويقول المثل بالقبائلية : «إكري يوغال دهال حولي» أتحول التيس إلى خروف مخصي ومخيف ؟

ألم يكن سكان المدن بحد ذاتهم مستائين متعبين ومضطربين عام 1954، بسبب ديماغوجية الوطنية المشفوهة.

يبدو أن الحياة السياسية انحدرت إلى عراكات أسبوعية بين «الإخوة الأعداء» كان ذلك باستمرار نجاح فضول وفائدة القراء بالنسبة لجريدة الانفصاليين «المركزيين» عناصر كوماندوس «مصاليون» يهاجمون بالمدى (أمواس) مروجي الحجة غير المطابقة للوطنيين، الذين لم تكن وطنيتهم تلغي التفكير ؛ لكن عند واجهات المقاهي الأهلية، وفي الشوارع لا أحد يتدخل لصالح هذه المجموعة أو تلك ؛ ليس هناك أي وسيط – رغم الوجوب المعنوي – يستطيع الوقوف لإحلال المصالحة، لدعوة الغرماء إلى لعن الشيطان.

كان كل وطني مقروحًا بهذا الحفل الحزين، الذي يبدو أنه لم يكن يفيد إلا الإستعمار العدو المشترك؛ ظاهريا كان ذلك عارًا بالنسبة للجزائر الوطنية، المعركة العمومية لهذه الزمر الغريمة المتقاتلة بسبب دوافع سيئة الإيضاح.

لكن الملاحظ من غير رأفة، لا يستطيع الإمتناع عن الحكم المسبق على حالة اللبس لدى مقدسي ذي اللحية بتخدير سياسي في حالته البدائية، لأن الحشاشين المعاصرين، بخلاف القتلة الملهمين من طرف شيخ الجبل ظلوا يبدون شجاعة

الإتجاه الوحيد الفاقدة للفعل نفسه، مع الظهور المتأخر دائما للشرطة الفرنسية العدوة ... والمتواطئة.

من كان يستطيع التفكير خلال وضع في غاية النحس، أن يحرك عملا معاديا للإستعمار على نطاق واسع، وإعداد ثورة أو الإسهام في تكوينها ؟

كانت الجزائر كثابت عبر الزمن دائما البلد الرائع المغمور بالنور، الغني بالألوان، وبالفواكه الطيبة، متوفرة على مناخ لطيف، حيث يمدد الصيف اللطيف العطل المثلى، متخليا للخريف عن الروعة المتوسطية؛ مانحًا للطائفة الأوروبية سعادتها المترفة، وفرص الإسترخاء في الخلاء على الشطآن الناعمة الرمال، مراكب شراعية، زوارق ميكانيكية، تنس، بهاء الطبيعة، مراقص، مخيمات وسط الغابات، فروسية، مصارعات، كازينوهات.

الجزائر بلد التناقضات الحقيقية، إنها واحة ساحرة للأجانب الوافدين من الخارج، وهي محتشد غائر تخلى عنه الله للأهالي الأصليين للبلاد، المقتلعين من أرض الوطن[2]، لا إنتماء لهم.

الجزائر الفرنسية ... أو فرانزايز ... فرينشيز!. الأريستوقراطية العمالية الأوروبية تجد ضمن النظام الإستيطاني حياة مطمئنة. وتفاضلية ؟ فهل تطمح إلى الأفضل بتغيير النظام في جزائر مستقلة ؟

حتى لاجؤوا حرب إسبانيا نصيرة التحرر بالعنف والمعادية للعسكرة، أضاعوا ذاكرة المدلول الثوري، لقد نسوا تماماً تضامن الجزائريين المعاديين للفاشية الذين ماتوا في منطقة الأراغون قبالة جبل طارق من أجل حرية الآخر، مثل فلياشي البسكري قابض الطراماواي الجزائري.

في فيالق اللفيف الأجنبي يتعلم الفرد خنق حرية الآخرين، وحريته مثل الـ «ميكيليت» جنود حراسة الحكام في إسبانيا، (فلاحون مرتزقة الحركيون في إسبانيا قديمًا)، شكل من أشكال فقدان الذاكرة يمحو دكتاتورية فرانكو، الكتائبيون الحرس المدني، بؤس المدن، الجوع في «لاسييرا» (المناطق الجبلية المتحدثة بالإسبانية) إننا نتذكر أحيانا عندما نلتقي «سواحًا» بنعال باعة متجولين من جيل آخر وقد أضاعوا طريقهم مقترحين بسذاجة غراريف طينية راشحة مبردة للماء على مواطنيهم القدماء، الذين تخلوا عن آنية القرغوليتا الوطنية مقابل الثلاجة.

---

2. البحر جد هادئ في الجزائر العاصمة مثل بحيرة ليماف أمام إيفيان ... المسلمون ينحنون فوقه عند منعطف شارع واجهة البحر . الأوروبيون في تلاحق لا ينتهي من السيارات المتوجهة صباحًا ومساء صوب الشطآن ... صحيفة لوموند LE MONDE 11. 06. 1961.

الإستعمار الفرنسي ليس شرًا بحد ذاته، الغجري (الخياطانو) المولود على الأرض الجزائرية، يرتقي رسميا إلى العرق المختار، يمكنه أن يغادر طريق البجع الضيق العفن بالحركة المقرفة الذي يلف مكان تجمع الغجر في مدينة الجزائر قرب نهج: كاتروجيل في حي «عوينة الرومية»[3].

يجد الغجري سكنا مجانيا في عمارات H.L.M ليشتغل كبواب، وبما أنه عون شرطة مع حق توزيع الصفعات والركلات على البيكو (الأهالي) وسلطة جر المنتخب البلدي الذي إجترأ على الإحتجاج ضد العنف العمومي ! إن في إمكان إبن حالق الكلاب أن يتابع الدروس بالمدارس التقنية الكبيرة، بل يذهب حتى «لسانت سير» ليصير جنرالاً ذا خمس نجوم !.

إن هذا المهاجر الأراغوني، أو القاليسي، الأندلسي أو المايوركي، في ميسوره الإحتفاظ مؤقتا أونهائيا بالصفة القانونية كأجنبي؛ هذه على أية حال هي الحياة الجيدة، أحسن من العيش في أيبيريا، وأعلى فخفخة من «جذوع أشجار التين» إنها الحياة الراقية دون ثورة.

الإستعمار الفرنسي خبير في فن منع التنافس لدى الأهالي (المورو) ! وبعد إنها الزوبعة غير المنتظرة لأول نوفمبر 1954! اليوم الأول لإنبعاث جماعي...

فهل هذا سراب أو معجزة ؟ إنها قوقعة الرعد في سماء مكشوفة صافية من غير سحب، مرفوقة بظاهرة غريبة لنشور عام، وعودة الحياة الجديدة إلى أجساد غائصة في سبات موت أوموت حقيقي.

يظهر أن الجزائريين الراقدين تحت التراب يثبتون مرة أخرى أنهم لم يكونوا أبدًا عبيدًا طيبين هاضمين لإهانة المستعمر في عمق صلابة الجثة ! إنهم يرتمون مرة أخرى في غمرة كفاح غير متكافئ، مفضلين العنف، إرهاب، عمليات، حرائق...

كفاح أحمق لا يزعج الإدارة الإستيطانية حملة بسيطة للشرطة تأتي بسهولة على رأس قبضة الخارجيين على القانون.

الرأي نفسه لدى المختصين في الثورات، قادة الأحزاب، كبار الموهوبين من رجال المكتب المنظرين في النوادي، لن يكون هذا إلاّ عراكًا داميًا؛ حيث ستضرب الذراع الحياتية للإستعمار، الأدعياء ذوي النفوس المتخيلة المستهدفة لغاية خارج

3. عوينة الرومية (بورن فونتين لدى الأوروبيين) تسمية لحي الدعارة، مشار إليه كذلك بالعربية بـ : المكان القذر وبـ مقطع بداية الفخذ، الذي حوّله التشويه الفرنسي على نهج "كاتروجيل"

متناولها، هؤلاء المرشحين البائسين إلى التألق العابر في الصحافة المتحسسة إلى الموت المحتوم... مع عدم إكتراث شعب مستهجن.

لكن من أين أقبل هؤلاء «الروبين دي بوا» (بطل فلم المغامرات المشهور) هؤلاء المنتمون إلى الأغوار السحيقة ؟

ماذا يريدون، ما هذا الـ «FLN» (جبهة التحرير الوطني) الشارة الجديدة المنبعثة من العدم ؟

القارئ للمنشور السري الأول، حيث تطمح جبهة التحرير الوطني إلى تبرير السيناريو المتواضع لفيلم «واستيرن» مهتز وصخاب. لنحاول قراءة بيان أول نوفمبر.

إن القارئ لوثيقة جبهة التحرير يتزود بشعور الإرتياح بالإعتزاز وبالإغتباط، الزعماء يمددون أعناقهم، إن التنبؤات الموصولة برد الفعل العلمي الأولي أثبتت أنه : من السهل الإعلان عن الذات بطريقة دقيقة بشأن الآفاق المتفائلة والقريبة. التي تنتظر شعراء الثورة وجبهة تحريرهم الوطني، هذا المنبثق الجديد من الشرنقة غير الناضجة والغريبة.

إن غرابة تفكير، وفعل جبهة التحرير الوطني هي نفسها التي حددتها في ذات تناقضها.

1. الأونة هي أسوأ إختيار :

التمرد «من أجل إخراج الحركة الوطنية من المأزق» ينطلق تعاكسيا مع فترة هي فيها.

- صريعة بسبب سنوات الركود (الجمود)،
- سيئة التوجيه،
- محرومة من دعم الرأي العام الشعبي،
- متجاوزة بالأحداث،
- تتجزأ بالتدريج ...

2. عزلة الأقلية الفعالة

إن جبهة التحرير المشحونة بالميل إلى تغيير التشكيلات السياسية المؤهلة، لا تتراجع أمام الغفلة والتهور، والملل، لوقف التضامن بين «الجماعتين المتخاصمتين من أجل الحكم» ويعني هذا الحركة الوطنية الأكثر تأثيرا، رغم انقسامها ضد نفسها.

لكن قادة الأحزاب الوطنية الثلاثة الذين كانوا قد تعودوا على توجيه فعل الشعب الجزائري بشكل أحادي ؛ أو بطريقة مضبوطة في جبهة مؤقتة واحدة، لم يكونوا يفكرون في تمييز أنفسهم بهذا الحق الثابت.

3. غياب الدعم الشعبي يساوي «عملية إنتحارية»

بطبيعة الحال لم يكن الأمر يتعلق بالحكم على التمرد في حد ذاته، كشكل عمل للهروب من خزي الهيمنة الإستيطانية.

لم يكن المشكل في الإختيار بين النهج البرلماني والعمل المسلح، المسألة جرى حسمها بمساخر قصر بوربون، بمساخر الجمعية الجزائرية، بعدم تطبيق القانون المانح، بإختراق القوانين العالمية للتصويت، بتعويض المنتخبين الأميين ذوي القنانير[4] (عمامات ضخمة) والسراويل الفضفاضة، بمنتخبين متعلمين ذوي شهادات، وذوي الرؤوس العالية والبدل العصرية.

عندما يتعلق الأمر بالفوائد في الجزائر، فإن الإستعمار يظل كما هو كحال الكلب الذي يرفض التخلي عن عظمه باللطف ؛ فيصبح إستعمال القوة وحده قادراً على إرغام تاجر العبيد السود على الإعتراف للعبيد البيض أو السمر بالحق في الإنعتاق الوطني.

حتى الـ بني وي وي المنبثقين عن الإنتخابات المرتبة سلفًا، يرجعون إلى طريق الوطن المنسي، بالبحث عن تكريس بقية وجودهم في محو ذنوبهم في خدمة السيد مصاص الدماء.

إن الإصلاح في شكله الوطني كان قد عاش الإصلاح بشكله الإجتماعي، وهو ينتقل إلى المرتبة الثانية.

فعلاً ما تؤاخذ عليه جبهة التحرير الوطني، ليس باعتبار اختيار العنف كوسيلة كفاح، ولكن كسوء تقدير أنسب لظروف استعماله.

أكثر من هذا نؤاخذ جبهة التحرير الوطني أيضا، على التناقض مع نفسها، والذي يزخرف الجنون ؛ حيث أطلق التمرد المسلح في الوقت نفسه الذي تبين فيه غياب عامل حاسم لإقتلاع النصر «الدعم الأساسي للرأي العام الشعبي» إن الثورة شيء جسيم، لا تخرج من الأرض كاملة جاهزة، لا تسقط من السماء كاملة مهيأة، لا تصنع حسب

4. عمامات ضخمة مرتفعة ملفوفة الشكل صلبة ملفوف عليها شريط صوفي قاتم طويل، هي من لباس الرأس لدى أثرياء الفلاحين والأعيان.

الطلب بطريقة إصطناعية ؛ ليست مادة تستجلب من الخارج، ليست وصفة دواء، نجري إعدادها في مختبر... ولا هي وصفة تحضير «بورط»[5] و(حساء شمندر روسيء)، أو طبخة تشكتشوكا، يمكننا تحضيرها بنفوسنا بواسطة كتاب جيد في الطبخ.

بداية إنه وضع ثوري ينضجُ ضمن المجتمع، حسب شروط لا تتجاوز إرادة الرجال والطبقات والأحزاب.

لكن أية وضعية ثورية لا تتحول إلى ثورة من أجل أن تنفجر؛ بل يجب أن تكون الوضعية الثورية ملقحة بكفاءة وعزيمة شريحة إجتماعية متقدمة، ومصممة على قلب الشريحة المسيطرة.

وبطبيعة الحال فإن عامل تحديد الآونة السانحة لا يكفي، لأن الأمر لا يتعلق تحديداً بقضية مجموعة رجال يستشيرون «نقاشا» زاعما للغيب يكشف كل ما هو خاف باستعمال خط الرَّمْل الذي يرسمه بالإبهام على مربع من الحصى منشور بعناية على منديل جيب...

بعد اختيار الآونة بوضوح، تستوجب الشجاعة السياسية المتولدة عن الثقة بالقوى الذاتية في الإنتصار على العدو المستعمر، دون الإعتماد على العون الخارجي، لكن دون نسيان الإعداد للتضامن العالمي.

وليس هذا كل شيء بل يجب تأمين الإمتداد المستمر، والنجاح النهائي !... وليس هذا مهمة ضخمة فوق طوباوية ... «قزميات» اللجنة الثورية للوحدة والعمل؟ فلم تكن هذه اللجنة محاولة لإعادة تشكيل المنظمة السرية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية عام 1953، المفككة بواسطة مؤامرة عام 1950، حتى قبل التوقف السياسي ؟ ألم تكن إعادة ترتيب الهيكل العظمي هذه واعية بعدم قدرتها بفعل نفس وساطتها لمحاولة إنقاذ وحدة حركة إنتصار الحريات الديمقراطية عن طريق الصلح بين الجماعتين : الإطارات، والديماغوجيين ؟.

وإذا كانت الحركة الوطنية المعادية للإستعمار منقسمة قبل هذا إلى أربع توجهات متمايزة، الحركة من أجل إنتصار الحريات الديمقراطية، إتحاد الديمقراطيين المسلمين الجزائريين، الحزب الشيوعي الجزائري، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كانت تتجزأ أكثر إلى قيادة أركان بدون وحدات وجنود من غير قائد.

فهل يعقل اندلاع تمرد مسلح من غير حزب وطني جيد التنظيم ؟

5. بورتش حساء شمندر روسي. تشكتشوكة، أكلة متوسطية تحضر بالفلفل، والطماطم والبصل والبيض.

فعلا هل يمكننا تصور مشروع جد طموح ؟ الإستقلال المطلق دون مراحل، متبوع بالوسيلة الأكثر مخاطرة، الإرهاب، دون التوفر قبل ذلك على حزب يكون معادلاً للحزب الدستوري الجديد (تونس) أو حزب الإستقلال (المغرب)؟ إن تجاهل الأحزاب السياسية المتواجدة في البلاد ! المغروسة في الطبقات العميقة للشعب، ليس تظاهرا بالوقاحة فحسب، بل هو حالة وضع المحراث قبل الثور. لكن «قياد» السياسة الملهمين في إختراق الحدث لم يفهموا الظاهرة التي كانت تحصل تحت عيونهم، لم يسحبوا برج الغيب المتعلق بالوضعية الثورية؛ وحاولوا كذلك أن يعزوا لها دوافع ظرفية محضة.

. الثورة الجزائرية الوطنية الأكثر تطرفا، الأكثر غلوا، الأكثر جهالة، بمبادرة مناضلين قدماء، متابعين داخل السرية، مفصولين عن الحياة السياسية، وعن الواقع الإجتماعي.

. عصيان بروليتاريا غير منظمة ضد الحكم الإستيطاني، ممثل على الساحة السياسية ما هو كائن على الساحة الإقتصادية، الإضراب المطالبي «وحشية جماعية»، حنق فوضوي للعمال الزراعيين غير المنخرطين في النقابة أمام «قطاع» طرق ومندفعين مثل أسلافهم، خدم الرومان الملتفين حول أصحاب المؤن.

. إنتفاضة الفلاحين المستلبين الذين يصل حبهم للأرض المغتصبة أحيانا حد التأرجح مع الجغرافيا، عادة السرية القدسية مع الأرض، لدرجة كمش قبضة وأكلها، حركة تذكر بإجلال العامل للخبز، الغذاء المقدس الذي يجمعه من الطريق ليحميه من كل إهانة.

. شغب الجوع يجر حتما بشكل مكرر ناقصي التغذية إلى الإفلات من الموت الطبيعي بسبب التجاهل، بأكل البلوط، الذي يزاحمون فيه حيوانات الغابة.

أو أكل «البومخلوط» حثالة غربلة المطاحن والكاشطات المعاد طحنها ومعالجتها، فضالة الشعير والبشنة، الذرة، ومخلفات السنابل ... ليس الحبة ولكن الغشاء الذي يحفظ الحبة في السنبلة مع السفاة، وهو ما يجعل الكسكس أو الكسرة بعد الإعداد تتميز بتلك الشعيرات الشبيهة بالإبر الدقيقة، التي تخز اللسان وتخدش الحلق.

. تمرد مثار من جانب محرضين غامضين في خدمة الأجنبي، مهيج لاستياء جماهير طافية مستعدة دائما للتنويه بـ «غيقنول المهرج الذي ينهال ضربا على المحافظ».

. ومن يعرف... ؟ إستفزاز حيث يتجانس التحالف المتناقض «للغونغستيرزم» (التلصص) السياسي، والنصب البوليسي. المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي ينشر في 9 نوفمبر 1954 هذا التحذير.

«وفاء لتعاليم لينين، فإن الحزب الشيوعي الفرنسي، الذي لا يؤيد اللجوء إلى أفعال فردية، قابلة لأن تدخل في لعبة أشد المستعمرين .. إذا لم يكن مصطنعا من قبلهم[6]...»

هكذا لم تنجح كل المحاولات للتفسير العقائدي، الهاتكة لأم الدماغ، متلفة بالفوسفور خلايا رمادية منهكة، إلاّ أحاديث تبجح بالإستعارة العلمية.

أليس المنطق الديكارتي غير غريب على ذهنية : أرض لأرض، لمحركي فنطازية أول نوفمبر المستمدة من فروسية دينكيشوط ؟ ومع ذلك...

فإن المصيبة النبوية المقدرة المتنبأ بها، المتوقعة المحسوبة المنتظرة، لم تعلن عن نفسها... وأن العملية «الإنتحارية» لم تنته، لا بعد ثلاثة أسابيع، ولا بعد ثلاثة أشهر، ولا بعد ثلاث سنوات...

التمرد الجزائري المنجز «بأفعال فردية» غالطت كل التدابير التخمينية.

«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله «والله مع الصابرين» (سورة البقرة الآية 249).

هل سينقص التمرد الجزائري التحليل التاريخي لمنهجية لينين ؟

ليس هناك إشكال ذهني. ما ينقض هنا ليس المادية التاريخية، ولكن التحليل السطحي الذي يتطلب نظرية تجزيئية مبعدة عن الواقع، مثلما يُبعد بخل العقلية الدولية عن الوطن، كان بيروقراطيو «الفريق الإستيطاني» قد بددوا صفوة «التجمع الديمقراطي الأفريقي» ومثل أصحاب شهادات العلوم السياسية، تناسوا بالنسبة للجزائر وجود مبدأ أساسي وعالمي :

«إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد للّيل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر[7]»

مرة أخرى إنه شاعر تونسي معروف : أبو القاسم الشابي الذي يأتي لإثبات حقيقة ماركس: الفكرة التي تسلح الأذرع تصير قوة تاريخية ضابطة سلفًا لمستقبل مصير الوجود الإنساني، هذا هو المفتاح المستعمل لإكتشاف الروح الجماعية للشعب وفي الكون قوة لا يقدر على ترويضها أي عبقري مهما أتي من جبروت.

---

6. لومانيتي 10 نوفمبر 1954.

7. قصيدة أبي القاسم الشابي المشهورة المترجمة بـ سيقرس باريس 1959

هنا يكمن سر التضعضع الوطني. الإستقلال: كلمة ساحرة مازجة للأمثَل والواقعي، إنها تغري المضطهدين، وتتوقف عن كونها عامل نظام فكري، إنها إماتة نفسية، تمرين فخفخة بالنسبة للحالمين بالحرية.

لقد أصبحت هذه الكلمة العمق المشترك للوطن، المحرك الثوري الذي يقتلع المترددين من الاذعان، ليقذف بهم وسط العمل.

البركة في الحركة تبدو الجموع الجزائرية ظاهريًا أسيرة إفلاس، وسخافات تأملية، تتحول لا إلى إدارة وطاقة فحسب ولكن إلى سلطة تنيب نفسها محل الحكم الاستيطاني الهدام.

الإسلام ليس إذن "وعاء وزن وراثي" متمهل، ولا هو كابح إيديولوجي جامد في الترتيبات العالية، ولكنه عصب محرك أكثر ضرورة للثورة من العوامل المحددة للأسس القاعدية.

كما يوصي به حديث للنبي محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا[8].

إنّ هذا الشعب الجزائري المُجهل المُحقر المُزدرى، يراهن على أنّه قادر على الهيجان من أجل الخبز اليومي...، وقادر أيضًا على تشكيل ثورته الكبرى.

الشعب الجزائري ياله من صانع متألق للمعجزات !

عند ملامسة الجماهير المغمورة في خضم المعاناة، تتغير هيئة الأشياء، ويمكننا رؤية الحقيقة حية متحركة، ومغيرة ما لم يكن لدينا فكرة عنها في رأي بعض الأوساط السياسية، التي فوجئت بأنّها لم تستشر من قبل: ملاحين مبحرين إنها رحلة دون خرائط.

إنّها الحياة التي تصحح خطأ الاستراتيجي المتواجد داخل غرفة العمليات بحثًا عن الحقيقة، مثل وسيط يهذي بعيدًا عن الواقع؛ مثل مُدَّعٍ لتذوق الجماليات، وقد راح يتمرن يدويًا بطمأنينة على معالجة الثورة عن دائرة عقائدية كُتُبية.

أنّ الأكثر صفاء هو المناضل المتواضع، المتواجد في قلب الشعب، العصامي الذي لا يعزل دراسة العمل عن مهامه، الثوري ذو التكوين، وذو المهنية الذي يستخدم النظرية المجسدة كأداة تدقيق لإيقاف الأفعال المريبة، حتى في الفترة الصعبة،

---

8. لوموند ميور (LE MONDE MEILLEUR) العالم الخيّر الترجمة الحرفية «أعمل لأجل القبر».

حيث تنقص شروط التقدم السلمي للعمل "الشرعي والبرلماني". كانت اللجنة الثورية للوحدة والعمل تعد قوات الكفاح المسلح دون كلل ؛ للحالة التي تستوجب اختيار استخدام العنف كوسيلة.

هل يجب الاستغراب من التشبث بجلاء من أنّ رجال الأدغال (المجاهدين) كانوا هم أوّل من قاس الطريق المنتهج صمتًا من جانب الشعب الجزائري ؟

في خضم شروخ العوامل الاقتصادية، الاجتماعية، الإدارية والسياسية، فإنّ شعب المدن والأرياف كان يؤدي عمله التركيبي: استفاقة جماعية للوحدة الوطنية، وكان النضج قد سجل في ساعة المكتوب لصالح العزيمة البشرية، كان الجمود المغالط يخفي في الحقيقة حيرة معلقة عن قصد في انتظار الضوء الأخضر إشارة العمل.

ليس هناك إلا العيوب ؛ الأظلة، الأخطاء فقط داخل المجتمع الجزائري، لقد وجد هذا المنظار محوره الأمثل، العين تبحث عن تمزقات (شروخ) النظام الاستيطاني، تضبط التغير المفيد للتقدم النوعي للبسيكولوجية الشعبية، الاتجاه المعاكس يمكن أنّ يصير حقيقة متروية.

ما قدَّر أنّه شر يمكن أن يتحول إلى خير؛ الهراء يصبح جسارة الحماقة، الصفاء، الجهل، العلم.

مثال ذلك ... عدم اختلاف الجماهير بالنسبة للأحزاب التقليدية ؟

ليس هذا تقهقرا في التربية المدنية ولكنه حدة الحساسية الموجعة لدى المقهورين المتحرقين إلى التحرر إنه تنصل النفس من جهوية الجماعة التي تعرقل تحقيق جبهة وحيدة معادية للمستعمر.

أتفقوا على ألا يتفقوا لن يتفاهموا لن يتحدوا.

هذه العبارة مستعملة للإشارة إلى مظهر قول مأثور سلبي المغزى ومتشائم، لكن بفضل جمالها فيما يخص النسق الصوتي، الصورة والمعنى اتخذت في السنوات 1946 ـ 1954 ميزة ديناميكية في الأحاديث الشعبية، لقد كانت تستعمل بمعناها المعارض مثلما نقول : العافية أي بمعنى «صحة جيدة» عفوا بمعنى الأمن، للإشارة بالمعنى التضميني إلى النار بالعامية، هكذا إذن نعوض بالتعبير عن الأسف الإنفعالي. تفرض علينا هذه العبارة نفسها بفضل نبرتها العزائية الساخرة من أجل التحفيز على الوحدة المعادية للإستعمار، خارج وفوق الأحزاب المنحرفة.

العزوف عن الزعيم ؟

ليس هذا لؤما من جانب حشد متقلب الطباع، مثل من يقتلون أبطالهم ويحرقون ما يحبون، ولكن بالعكس، إنه فعل بلوغ الذهنية. الشعب لم يعد يتخذ من الخطباء أوثانا تعبد، بل يدير فعلا ظهره لطواحين الكلمات، بحارة مزودون بالبوصلة ولكنهم يفتقدون إلى الإقدام لخوض البحر في العاصفة، إنهم يذوون مع القرآن. المنافقون والذين في قلوبهم مرض، الذين يشل الخوف من القتال قبلوبهم.

إشارة إلى بعض ما ورد في الآية 51 من سورة المائدة (فترى الذين في قلوبهم مرض الخ)

أزمة : حركة انتصار الحريات الديمقوقراطية ؟

لم يكن هذا كارثة بل عملية تطهير تحتمتها الضرورة. قدمت خدمة لا تقدر بثمن إلى الثورة الناضجة واضعة نهاية للإشكال.

بالفعل قام المعارضون «المركزيون بخدش الورم الذي كان يشل الجناح السائر للحركة الوطنية، لقد برهنوا على شجاعة سياسية عضلية ومعنوية. كثيرون منهم ظلوا متفانين في النضال خلال تلك الفترة، مع قيمة التحذيرات المملاة بواسطة تجربة طويلة، كانوا يصارعون من أجل إعداد عقيدة، بغية تنظيم حزب معاصر، لإحترام ديمقراطية داخلية بالمكان الأول، وسط حركة إنتصار الحريات الديمقراطية نفسها.

تتواصل المعركة في الخارج، ينقل الحوار للساحة العمومية. نجعل الشعب حكما دون تراجع أمام الإنشقاق ، و النفاق التصالحي و الديماغوجية .

وعلى وجه الخصوص، تدان عبادة الشخصية ، نفضح التهريج السياسي بالإعداد لإزاحة الإرتهان بالمهدي الزائف ، الرجل ذي الكناية السماوية. دمية القراقوش المضادة للثورة، المكلل بالخساسة الإستعمارية، «آخر ورقة» للعدو !

" في الواقع الله لا يحب الخونة " قرآن كريم سورة 8 آية 60.

غياب حزب سياسي مضبوط سلفا ؟

ليس هذا نكبة، بل حظ سيسمح للثورة بتشكيل نظام صحيح مرن تحت الحرارة، جيد التأسيس مع انضباط صلب، وطاقة وطنية واقية لا تنضب.

وكذا أسبقية حاسمة في الفترة المثلى : تأمين شبكات، تضليل الشرطة. الحركة التمردية لم يقطع رأسها. لآول مرة يضلل الجهاز القمعي بصورة كاملة. فعالية

متجلية ؛ صفر السِّجلّ المعلوماتي المركزي للولايات، فلم يعد إلا مجرد عملة سياسية مزورة، بدقة أكثر، ليس أكثر من كتلة أوراق عقيمة القيمة في بنك سياسي إجتماعي، الجرفة الواسعة بالشبكة لم تأت إلا بضعاف الإرادة، وطنيين معروفين ولكنهم غير مؤذين، الجبهويون مخيفون لدى اعتقالهم ولكنهم غير معروفين، إنهم ينشطون في الظل كأشباح مجسدين في كابوس.

يظهر أن الحملة البوليسية كانت هي الأخرى خائبة ، لأنها أتت بالقرنبيط الثابت بدل النباتات المتسلقة. لقد امتدت هذه الحالة الماسة للعمل السري في الجزائر الكبرى طوال فترة عام ونصف .

هكذا وبهذا الشكل راحت منظمة جبهة التحرير تحضر نشاطهاالأساسي، وتضاعف أعداد زبائنها المعتادين، لا في مخبأ الكائدين تحت الأرض، و لكن في المكان العمومي، مقهى أهلي هادئ " هنيني نهنيك "، كان قد اتخذه المؤمنون المترددون على المسجد الكبير للقاءاتهم "رياضيون من الطليعة . يعيشون في فضاء كبير"، نقابيون "مستقلون " أو من غير ارتباطات سياسية، صيادو أسماك محترفون، أو هواة ذووا ميول للموسيقى والمسرح والرسم " والليمون المعصور "المستاؤون المغادرون للأحزاب" على رؤوس أصابع أرجلهم " يجدون ضالتهم في أحلام اليقظة ومد اليد إلى آخر العارفين بالنرجيله الملونة عديمة الصوت، عابثين بالمرقوش «أنبوب طويل عديد الألوان» الذي يسحب بواسطته دخان التبغ المنتشر الرائحة عبر الماء المتحرك ذي الدوامات، بامتصاص الهواء من أسفل مجمر الفحم المحترق مع التبغ .

في هذا الجو من التأثر وبهذه العادة المستجلبة نجد حتى جزائريين من أصول أوروبية قد جاؤا يبحثون عن الهروب من حقبة مضطربة، و كذا عملاء الشرطة في ملابس مدينة، أو متنكرين حتى هم أنفسهم قد تملكهم الإحساس بالإكتئاب التعربي المنفوث بهذا الحبور ، فكانوا يرخون أذانهم جيدا، ليس هناك أي تلميح إلى "الأحداث"

لقد كانوا يحاولون مطولا استدراج حوار ما حول احتمال وقوع عمليات حضرية، أو كمائن في جبال، كان انعدام الفضول لدى الناس يبعد كل هجوم أو ما يشابهه.

كان هذا الإحتياط العام الحذر الكاتم، يبدو طبيعيا و مطمئنا بالنسبة "للخراف." كان ذلك مركزا لـ" كل راحة " رقابة. تجمع دوري رتيب ملون، لكنه بريء. تنوع من المتشمسين من آكلي الظل ، تحت الأقواس ، يشتكون بمرارة بليغة من غياب النسمة البحرية أكثر، من الحاجة إلى الحرية الوطنية.

هل ستكون الوطنية فجأة ممجوجة ؟ المقهى الأهلي، ألم يكن تحديدا . وبالعرف . مكان لقاء تسلية و تناقضات من كل نوع ؟

قديمًا كما الآن، كانت السياسة تشكل كل نقاش غذائي أكاديمي، أو ميال إلى الأهواء.

كانت المؤسسة خلال الحرب العالمية الأولى، قد بدأت تتحول إلى ناد؛ حيث يستخدم المطلعون لهجة متفقا عليها كل جمعة تحديداً بعد صلاة الظهر؛ الأنصار مزينون بأناقة عمامة المذنب المنسقة بذيل مُتَساقط، وقد أتوا لإلتقاط أخبار تمكنت من إختراق جدار البهتان الإمبريالي، يبلغون ما يرد في الرسائل الوافدة من الأقارب والأصدقاء الذين كانوا قد هاجروا إلى المشرق عام 1911 أو 1912 حتى لا يرتدوا البذلة الدنسة للخدمة العسكرية المفروضة على الأشخاص الجزائريين المسلمين، كانت الإدارة قد رخصت بالرحيل الجماعي للأوائل من هؤلاء «المعترضين الواعين» الذين سيلتحقون بمهاجري عام 1871، العصاة المهزومين الذين لا يستطيعون الإذعان ليعيشوا كعبيد على أرض ورثوها حرة عن أسلافهم» كان الإستعمار مغتبطا للتخلص بتصفية حساب جيدة مع هذه العناصر الملفوظة المبعدة طواعية بشكل جماعي.

رغم فتح «صمام الأمان» سيظل هذا الشعور المعادي للإستعمار نشطا، وسيتظاهر طوال حرب 1914 . 1918 ضد التجنيد الجبري للفتيان البالغين 15 . 16 سنة ؛ لحم إلى مدافع منتصبة وبرخص خيالي، ويكون التظاهر بالثورة المسلحة عام 1916 في بني شقران (معسكر)، أو بالمقاومة التراسلية للحث على الفرار أمام الخطوط الألمانية أو التركية.

ظل التراسل متبادلا بالعربية برغم حالة الحرب مع بعض المخاطر، لأن المراسلة التي كانت تفلت من الرقابة الفرنسية تتعرض في بعض المرات إلى الحجز من طرف مصالح الإستخبارات، وتعاد إلى المكتب الثاني، وهذا ما يؤدي إلى التوقيف؛ مثلا يعتقل المرسل إليه بالقاهرة، والمرسل في مدينة الجزائر، وقد وقعت هذه الحالة الأخيرة لشخص عمر راسم الذي احتجز في سجن بربروس حتى نهاية معارك الحرب[9].

9. عمر راسم شخصية غريبة للمثقف التحرري الصحافي الجزائري الأول باللغة العربية. أنشأ مطبوعا دوريا محررا منسقا منمقا مرسوما ومطبوعا بيديه العنوان المختار هو : ذو الفقار، وقد كان هذا العنوان ذا رمزية خاصة. فقد كان يرمز إلى الإسم الفخري المطلق على السيف الأسطوري للسيد علي بن أبي طالب، الخليفة التقدمي، منعت الصحيفة بعد ظهور أربعة أعداد، ولم يمتنع الفنان الجدلي من مواصلة المعركة المعادية للمستعمر وحده، بالتعاون خصوصا مع الصحف والمجلات الفوضوية في فرنسا وقد اشتهر على وجه الخصوص كرسام منمنمات ومؤرخ للفن الأندلسي، وأستاذ لرسوم أشكال المصوغات المغاربية، وكان قارئا مرتلا للقرآن الكريم في الإذاعة وصار فيما بعد صديقا شخصيا لأندري مارتي الزعيم المشهور لثورة البحارة الفرنسيين في البحر الأحمر.

بالطبع لن يفك هذا الحادث الرمزي بتاتا إخواننا المعاديين للفرنسيين» من أسطورتهم المتأسلمة. مع ارتشاف القهوة «موز» (قليلة التسكير) مواصلين استمتاعهم بمنظر مشهد الخليج الفوسفوري، وهم يترقبون في الأفق ظهور الأسطول المحرر لـ «سيدنا» الإمبراطور المبجل في إسطنبول... مدعومًا بالغواصات الفاتكة للقيصر التي ستقصف عنابة وسكيكدة.

لكن تغيرت الأزمنة. الأجيال الجديدة للنصف الثاني من القرن الـ 20 أكثر تكتما، الهموم الخفيفة يقال عنها ثرثرة، والإهتمامات الكبرى مكتومة.

لقد تعلم معاصرونا أن إنقاذ الوطن المأسور، ماهو إلاّ قضية الجزائريين، إنه معركة الجميع على التراب الوطني.

منذ اليوم الأول للكفاح المسلح بدأ كل مواطن مستعمر يحس وأن قلبه ينتفخ بأمل عارم، بعد الثلاثي الأول، الإختبار الأول لإتساع الثورة، كان كل وطني يعي بأنه معني ومشارك.

كان كل جزائري «متمرد» بقوة، يكفي الإتصال به... رغم بعض التوقيفات الأولى؛ راحت الشرطة المتحَسسة تحاول رسم ترتيب أولويات برنامجها الشامل الخاص بالجزائر الكبرى، دون نجاح في إختراق حاجز التكتم، أو الصعود مع شبكة التنظيم الثوري، يستمر هذا سبعة عشر شهرًا.

يبدو أن جبهة التحرير تفهمت الشرطة المعاقة، وجعلتها في وضع لاعب: «داده العميا» المعصوبة العينين الساعية للقبض على الخصوم المتحركين بتخف، لأن تعليمات جبهة التحرير تمرر في هذا المقهى الأهلي المهمل من خلال الموسيقى والألعاب والتبغ؛ وسط هذه الشريحة الوسطى وغير المكترثة، ألف عملية غير متوقعة تحدث كل مساء بسرية كاملة. تنسج ألف وَصلَة ربط شبكة جماعية، تشل التنين الإستعماري قبل أن تقطع رؤوسه السبعة.

هنا جرى تنصيب المركز القيادي لحرب المدينة من بوانت بسكاد (الرايس حميدو) حتى ميزون كاري (الحراش) ومن الميناء إلى بوزريعة، كان النشاط ذا طابع سياسي عسكري، تجنيد، جمع أموال، شراء أو حجز مسدسات، تنظيم وتدريب الأفواج المسلحة، إصلاح أسلحة معطلة بالصدأ أو الغبار، ضبط القنابل التي يحتمل أن تنفجر في الأيدي، تهيئة الذخائر في مخازن الحي، إقتناء الرشاشات من تجار الأسلحة، ذخائر أجهزة تفجير، ربط إتصالات بين الأحياء والجبال لاستقبال الجنود الجرحى، تهيئة الملاجئ، إسعاف وعلاجات بواسطة أطباء جراحين ممرضين، تجميع الأدوية، تنظيم عمليات هروب للعساكر بأسلحتهم،

سرقة أكياس قنابل، أوبنادق رشاشة من الثكنات، أو من أماكن التخزين، شراء مناظير الميدان، آلات ضبط الوقت، أجهزة راديو، أحذية عسكرية ... بطاقات تعريف مزورة، أجهزة طبع المناشير، ورق كتابة آلات كاتبة، آلات نسخ ساحبة، إصلاح ونشر أجهزة الدعاية، إغواء الإطارات من أجل خلق مركزية نقابية عمالية ... البحث عن أطباء جزائريين قابلين بالتردد على الجبال تناوبًا لمعالجة المجاهدين في عين المكان، التكوين المتسارع للممرضين للإنخراط في جيش التحرير؛ الدفاع القضائي عن المسجونين، إعانات للعائلات والأيتام.

إن هذا المثال الطريف - يظهر - ويثبت كيف كانت جبهة التحرير الخفية حاضرة وسط الجموع وفي كل مكان في الوقت نفسه.

إرادة استنفار الجماهير كانت أيضا صارمة في الريف والدشرة، والقبيلة أو في «تهدارت» (منابت الكروم) على القمم. كانت الأمور تصبح فائرة بظاهرة بيوكيميائية إجتماعية مماثلة للإنبعاث المتجدد «للأنغيلولا» كائن حي مجهري، يعود إلى الحياة بفضل قطرة ماء، بعد جفافه وبقائه هكذا في حالة الموت الظاهري طوال سنوات.

كان لدى جيش التحرير أيضا سر استنفاد طاقاته إلى الحد الذي لا ينضب معه ينبوع الشعب.

كان لجيش التحرير الوطني حرية إختيار الأحسن، فكان لا ينتقي إلا المحاربين من ذوي الميزات الإستثنائية، ومن المتطوعين القابلين بالموت.

إنه الذهول الذي أصاب الإستعمار. أكثر الكولونيلات الفرنسيين تألقًا في الجيش الفرنسي المتفوق عتادًا وأعدادًا، لم يكن أبدا يتخيل الرقيب السابق في جيشهم والذي عرضت رأسه للبيع، سيستقبل في إيفيان سبع سنوات فيما بعد، كممثل لأقوى جيش ثوري في القارة الإفريقية، كانت الجدة متفائلة تلك التي كانت تساعد في إحدى الغرف بالقصبة ذلك البعد الرومنسي على التنكر، إلاّ أنها لم تحجم عن القول (بالقبائلية)، «أمكاتسارزام»[10] وهي ترسل نظرة شفقة إلى المسدس ذي البكرة المعبأة بخمس طلقات (مع أُخريتين مدحرجتين في الجيب).

لقد أنجب الجبل دائمًا ذلك الرجل المعبأ بالطاقة، الصبور، الصلب، القادر على سلوك الدروب الجبلية الصعبة دون تعب ولا خوف من الدوخة المطبقة في الفجاج العويصة، مهد وملجأ الحرية. لقد احتضن الجبل دومًا لصوص الشرف، مازلنا

10. وكيف تدمرون قدرة فرنسا.

نتغنى بانتصارات أرزقي .1. بشير، وعبدون، مروضي وحش الظلم، المطاردين للوحش الشرير، وبقية أنواع النمور، والفهود في بوهفان وسط «غابات الخنازير المتوحشة» حيث الذئاب البشرية، قايد ودركي، على شوك تامقوت.

كان ذلك عالم سحر روائي حالم يذكرنا بـ«لا قونديتا» عملية مطاردة جماعية لقاتل أو لص في كورسيكا أو صقلية، لكن مع هذا يوجد لون محلي ذو طبيعة مختلفة نظرًا للضغط الوطني؛ فعندنا بخشونة أكثر، كان أبطالنا في الواقع متكلمين باسم شعب كله مهان، لأنهم يكررون الكفاح ضد اللعبة الإستعمارية الحامية للمستأثرين الأوروبيين، بمنع العِرق العربي المسلم من الإرتفاع ما فوق وضعه المنحط، لكن الكفاح الجماعي المتوقف مؤقتا يُستأنف بقوة أكثر عنفوانا.

لقد ولّى زمن جابري العظام والعلاج بدعك الفقرات.

الأمة الجزائرية تتخلّى عن الشعوذة الفردية، تحولت إلى طبيب معالج لشرفه.

يتحقق ذلك عندما يكون الشعب موحدًا خلف كلمة الإجماع للإستقلال، وللعمل؛ وهذا ما كان يحدده بيان أول نوفمبر 1954.

إن المشروع القدري يعدم بإيمان أعمى من طرف فريق لذوي الرؤوس الصلبة، التي يمكن أن تبلغ عظمة ثورة لا تقهر.

إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن تكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون. (القرآن سورة 08 آية 65)

نبوءة ربانية ملهمة، أو تحديد علمي، فقد صار للثورة الجزائرية كمنطلق تقني لجنة مبادرات تضم اثنين وعشرين مشاركًا في الجلسة الإعدادية المنعقدة خفية في فيلا بأحد أحياء العاصمة.

علينا حينئذ أن نشرح هذا في عجالة بيانية كحتمية مطلقة، أو قانون ثابت لطبيعة الظاهرة، في معزل عن عزيمة الرجال، ولا كونها نتيجة فريدة لتدخّل أبطال ملهمين بقدرة خارقة للعادة، أو تقنية معصومة قادرة على التحكم في سيرة الشعب ودفعه إلى أية وجهة.

إن روح الأمة ليست آلة ميكانيكية، نجعلها تشتغل كما يدير الكباس ذراع المحور في المحرك.

نجاح القائمين بالثورة الجزائرية لم يكن فعل قرار إعتباطي ممهور بجملة، على باب الله، أبدا لم يكن في ميسور التمرد أن يتمدد ويدوم، لو لم يكن اللاعب الرئيسيّ

- الشعب الجزائري - ناضجًا ليضطلع بأعمال «هيركويل» يكافح، يكابد، وينتصر.

إن أكبر إستحقاق تاريخي للجنة الثورية للوحدة والعمل : هو تمكنها من توفير الظروف المهمة لخلق جبهة التحرير الوطني : القوة الثورية الصحيحة الوحيدة والفعالة.

1. لقد حشدت اللجنة الثورية للوحدة والعمل كتيبة الأنصار المقاتلين للصدام، المشتتة إثر تفكيك المنظمة السرية، فقد أتلفت إدارة حركة إنتصار الحريات الديمقراطية رأس رمح الكفاح المعادي للمستعمر. قط دافئ يخشى الماء البارد. فهل كان هذا المنكس الثاني للبلبلة والإضطراب المتلاحقين، للرد على قمع دسيسة 1950 ؟ كانت هذه القضية قد ضخمت بشكل إصطناعي، وتم إستغلالها من طرف الشرطة السياسية. المكيدة التي أعدت لـ «تدمير الحكومة الفرنسية»، لم تكن في الأصل بعثة عقابية للمنظمة السرية ضد مناضل قديم في تبسة هو الذي فضح منفذي ضربة اليد...

لا شيء كان قادرًا على تبرير إلغاء المنظمة السرية، كانت المنظمة هي الجهاز الشبه عسكري، أو ربما كان التنحي أمام الصعوبات، مثل إنعدام الثقة داخل القوات الشعبية، وإزدراء الرجال! ولدينا الإثبات أمام الفرقة واللامبالاة المعلن عنها، بعكس رأس مال بشري هو الأغلى ثمنا بالنسبة لثورة المستقبل.

من الذي يحاكم من أفراد كتيبة اللاشرعيين في المنظمة السرية، والذي سنجده في مكتب المبادرة لدى اللجنة الثورية للوحدة والعمل.

إننا ننكس علم الجزائر المستقلة أمام أرواح الشهداء الذين تنير أسماؤهم المتألقة دربنا.

مصطفى بن بوالعيد،

محمد العربي بن مهيد،

مختار باجي،

رمضان بن عبد المالك،

بشير شيحاني،

مراد ديدوش

رشيد ملاح

بوجمعة سويداني

يوسف زيروت .. الخ

المنضوون في المنظمة السرية المفككة بيروقراطيًا، يلاحقون من طرف الشرطة فَيضطرون لمغادرة إقاماتهم وأشغالهم ونواحيهم، تكفلت إدارة حركة انتصار الحريات الديمقراطية ببعضهم فأوجدت لهم مهام سياسية تحت بطاقات تعريف مزيفة في النواحي التي تجهلهم فيها الشرطة، لكن الآخرين الأكثر عددًا يصبحون مهملين بالكامل، دون مساعدة ودون مصادر عيش، مثل حمال الماء الذي لم تعد في حاجة إليه، أو الحمار المستريح الطليق الذي لم نعد ننشغل بمصدر بقائه، «يدبر راسو» . يتدبر أمره - في الجبال في المدن الكبيرة، في الأوراس، في بلاد القبائل يضيع الفدائي الذي يقدم كفدية لإسترجاع إستقلال الوطن.

إستخفاف حركة إنتصار الحريات الديمقراطية يلتحق بجبنية الحزب الشيوعي الجزائري، مبددين قسما آخر من العمق الثوري المتطوعين القدماء، الألوية العالمية في إسبانيا، وقدماء إتحاد العمال ؟ (F.T.P) في فرنسا . الجهاز اللاشرعي للحزب الشيوعي الجزائري لم يكن لديه هدف هجومي. فكان يدور في الفراغ، كان نشاط مناضليه «التحت مائيين» (كما الغواصة) يتحدد في صيانة المطابع السرية، الإتصالات، الملاجئ، الأسلحة اليدوية للدفاع الذاتي عن المحلات والمسؤولين النخبويين.

هذا شيء طبيعي عندما لا نؤمن بالثورة المنتصرة، فَلمَ إضاعة الوقت والمال في منظمة مضايقة ومزعجة ؟ ما الفائدة من إحصاء وتدريب، وتربية قادة مستقبليين لحرب عصابات، ومفجرين مؤهلين.

يجب أن ننتظر عام 1953 لكي نرى المبادرة، وليدة الشجاعة والإيمان والعمل تنبثق من الأسفل، ثم تنتصر على العدمية من الأعلى بغية أن تخلق طليعة تجد تعبيرها الأصلي خارج الأحزاب التقليدية المتصلبة.

2 . أرسلت اللجنة الثورية للوحدة والعمل بريقا في الوقت الملائم رافضة أن تستمع إلى المؤجلين من الفريقين المتعادين؛ الفرقاء يتواصلون؛ رسل الجماعتين يتبنون عند وصولهم إلى القاهرة موقفا موازيا لكنه متطابق.

يتكلمون على إنفراد ولكنهم متمسكون بخطاب مشترك، فعلاً إنه التوجه المعادي للثورة، إنه على إتفاق متناقض مع الرأي الإنتهازي:

أ) من أجل العمل على «تأخير العملية الإنتحارية»

ب) من أجل عدم إطلاق الهبَّة المسلحة إلاّ «بعد إعادة توحيد حركة انتصار الحريات الديمقراطية».

كان هذا يعني إضافة سبحة حسرات على معبد الفرص الضائعة بالعودة إلى حتمية العتامة،الطعن الإديولوجي، إعادة عملية الجبر بالجص «أسود - أبيض» خلقة

لا فقرية، إننا نصل إلى إنتصار العقلية الإستسلامية التي كانت ستضرب الوضعية الثورية بالعقم، وكان سيعمل على إجهاض الثورة في طور رهافتها. لحسن الحظ كان الوضوح دامغًا.

3. نظمت اللجنة الثورية للوحدة والعمل لقاء للقطيعة مع الماضي، والإديولوجية السياسية المرابطية للوطنية التوافقية.

تحول تاريخي غريب، استمراري و ريث للمنظمة الخاصة، متغذ بعصارة حركة انتصار الحريات الديمقراطية، إنه تنظيم اللجنة الثورية للوحدة والعمل، لم يعد هذا التشكيل منعكسًا لتوجه حزب لبعض الشخصيات الوطنية ذات الأفق الضيق.

بينما لم يكن مناضلوا المنظمة السرية الدولاب التقني لحركة انتصار الحريات الديمقراطية في غالبيتهم بل مجرد عتلات بسيطة لدفع الأحجار، فإن مناضلي اللجنة الثورية للوحدة والعمل مركز محرك جبهة التحرير الوطني، يصبحون جميعهم داخل قيادة الأركان للجزائر المحاربة.

يعسر على العديد من الملاحظين أن يقبلوا بأن قادة جبهة التحرير، هم منتسبون للحركة (ح.ن.ح.د) وفي آن واحد هم نفس الوطنيين، وثوريون مختلفون، ومع ذلك يعرف المحنكون القدماء ما مدى التأثير الراسخ الذي كان يمارسه حزب الشعب الجزائري، أو حركة انتصار الحريات الديمقراطية على المنخرطين فيهما، إن البصمة الأكثر إثارة والأكثر فضولا هي عدوى تقليد الأصوات والحركات التي كانت تتملك الخطباء.

وبالتشدق بنفسه مثل مغنيي مدرسة الشعبي، وذلك بخنق أصواتهم؛ مقلدين في ذلك التشنج الصوتي لمجدد طريقة المغربي الشعبي.

المؤكد أن أي واحد لم يصر قديسا. من السهل الإعتراف بآثار ضيق الذهنية الشخصية أوالحزبية في التركيبة الشخصية للبعض وهذا طبع البشر.

المفاجئ أكثر هو هذا التغير الجماعي المتسرع الشامل، لا نستطيع تخيل تعديل بهذه الشِّرعة، الزمن يتمدد ببطء خلال سنتين أو ثلاث.

لقد حضرنا في الماضي إلى تحول نجم شامل إفريقيا إلى نجم مجيد، ثم تحول النجم إلى حزب الشعب الجزائري، فحركة انتصار الحريات الديمقراطية.

إنها حالة تحول نفسي إسمية للوطنية المقهورة، عند صدور كل مرسوم وزاري يعلن عن الوفاة الرسمية للمنظمة المجرَّمة.

كنا نبحث في القانون المصنف للمخالفات عن مكانة ملائمة قانونية للإجراء النمطي تحدد قانونيا التبعة المترتبة على مخالفة التنظيم السابق، لتحاشيها، فلم يكن هناك إلاّ الإضطرار لتغيير الشعار والواجهة ...

الأمر الآن أكثر عمقا، يتعلق ذلك بتمايز نوعي يعزل الوطنية الرتيبة عن الوطنية المنهجية، تعتبر هذه الحقيقة الجديدة نتيجة للتطور اللامتكافئ للضمير الثوري.

وماذا تفعلون بالقرابة الأصلية ؟ إن التروتسكيين الباريسيين الذين استلهموا الوطنية التقليدية حتى الإفلاس، يكابرون ملوحين بهيدورة (جلد الخروف) نظرياتهم الضبابية كجسم خروف مسلوخ.

إن القرابة الأصلية التي تميز الوطنية الرتيبة عن الوطنية العقلانية تذكرنا بظاهرة التحويل الكيميائي، التي تخرج الفوسفور الأحمر من الفوسفور الأبيض بعد رفع درجته مدة 2400 ساعة فيبدو بعدها مخالفا للأول في اللون، الكثافة، الصلابة، عدم القابلية للإنصهار، مع عدم سموميته.

إن الفاعل الأنشط في كيمياء الأحياء الإجتماعية هاته هو الشعب الذي أنضج نفسه بنفسه وبمحض تجربته.

لا يجب الإستغراب أيضا من الركود الدائري للوطنية البدائية المشلولة بإدارة مصابة بمركزية الكون، قابعة على هامش التقدم العام للشعب الجزائري، تشكيل تحولي غير متكامل من نجم شمال أفريقيا وحزب الشعب الجزائري، إن معاداة الإستعمار المعوية كانت تلتف في شرنقة الجهوية كخادرة، فقد بقيت في موقع المطالبة خالطة بين اللعنة والإستجداء في وجه إستعمار بدون قلب، بقيت جامدة عل الطريقة الإعتقادية، خالطة اقتصار الوطنية على تحريم الخصوم للبابوية السياسية. بالمقابل انبسطت اللجنة الثورية للوحدة والعمل ضمن جبهة التحرير الوطني، مثل فراشة في طور التحول الكامل، وقد زهت الحركة الوطنية تلوينة. ننعت الآن بكلمة وطني بالمعنى الحقيقي من ينتمي إلى كل الأمة وليس إلى حزب أو جزيء من الوطنية المتعددة الأشكال.

إن جبهة التحرير الوطني هي القوة المحركة للثورة الكبرى من أجل تحرير الجزائر غير المجزأة، تقود بنجاح سيلاً بشريا زاحفا منذ سبع سنوات في وجه كل عوائق استعمار حديث.

إنها تجمع شعبي لنموذج أمثل مقام وسط نار العمل الإفتتاحي نفسه، الذي برز في المعركة المتواصلة كأداة فعالة، تجمع قيادي جديد حيث كل شيء جديد، الروح، التنظيم، العمل، الطريقة، النمط، الرجال و النساء !

كل شيء ما يزال أبدًا صالحًا، المبادئ المبنية في أرضية 20 أوت 1956 للمؤتمر التاريخي بالصومام، فلنحاول التدقيق أكثر.

* ذهنية جبهة التحرير الوطني

* وعيا منها بمسؤوليتها الكبيرة في قدر مستقبل الشعب الجزائري، إستعملت جبهة التحرير الوطني راية الوحدة القومية الوطنية والثورية على نطاق واسع.

إن الثورة المضادة للإستعمار هي المسألة الجماعية لكل الوطنيين دون مفاضلة سياسية، إجتماعية، لغوية، دينية.

بيان أول نوفمبر 1954، يقدم " لجميع الوطنيين الجزائريين من كل الشرائح الإجتماعية، لجميع الأحزاب والحركات الجزائرية المحضة إمكانية الإنضواء في الكفاح التحرري من غير إعتبار آخر ".

لا جهوية سياسية، إن جبهة التحرير الوطني ، تقدر أن من الخطأ الرجوع بالوطنية الجزائرية إلى مصب واحد.

إن المذهب الوطني الثوري للجزائر المحاربة موروث مشترك لجميع الوطنيين، مهما كان السبيل المنتهج بواسطة عملهم الإجتماعي، جبهة التحرير الوطني هي البوتقة التي تندمج داخلها الوطنية المتشددة للخالدي القديم ، النجمي القديم، والمناضل القديم في حزب الشعب الجزائري، وكذا المناضل السابق في الإتحاد الديمقراطي للمسلمين الجزائريين، ونصير جمعية العلماء، والشيوعي القديم، النقابي القديم في الإتحادية العامة للعمال المستقلة، أوالإتحادية الفرنسية للعمل، الكشاف المسلم سابقا، كذلك المستطلع الفرنسي من قدماء بني وي وي، المسلم الفرنسي، المتحول السابق، البربري القديم ، العروبي السابق ... ومناضل حركة إنتصار الحريات الديمقراطية ، مهما كانت وجهة القادم!، ليس هناك يسارية إجتماعية.

كانت جبهة التحرير الوطني تعرف كيف لا تطلب إلا ما يمكنها أن تعطيه.

لذلك كان للثورة الجزائرية عقلية وطنية أساسية في الأفق الآني لحرب إستعادة الإستقلال.

"يجب أن يكون الكل مرتبطا بسحق العدو الأوحد : إنه الإستعمار الفرنسي، لهذه الغاية توجهنا بالنداء إلى جميع الجزائريين المنتفعين من زوال الحكم الإستيطاني، كيفما كانت أوضاعهم الإجتماعية.

الجزائر المستقلة ، الجمهورية المعاصرة، الديمقراطية الوطنية ، غايات مشتركة، للعمال وأرباب العمل، للمثقفين، وللتجار، للعمال والفلاحين، لأصحاب الحرف الحرة، للطلبة : كما هي غاية سكان الأرياف والفلاحين عديمي الأراضي، أو أثرياء الأرياف.

إجراء ذو مغزى إجتماعي ، حتمي لا مناص منه ، إنه الإصلاح الزراعي ، سيكون في الوقت نفسه إصلاحا وطنيا سياسيا إقتصاديا وديمقراطيا ، يتحقق بنزع ملكيات كبار المعمرين ، الشركات الفلاحية ، والقياد والباش أغوات المتعاونين ، إجراء سيدمر القاعدة الإقتصادية للنظام الإستيطاني، والأساس المعنوي للنظام النصف إقطاعي ، يقوي ذلك الإستقلال الوطني والديمقراطية ، وسيسهل الخروج من التخلف ، بالمرور إلى إقتصاد معاصر ، حيث ستأخذ الصناعة بالتالي مكانها في صف النماء ، بالتناغم مع التخطيط التشاوري للمغرب الكبير الموحد، لا تزمت، ولا تعصب أو تعصب معاكس، إن جبهة التحرير تسهر على ضرورة التوازن الوطني، لتقوية الثورة المضادة للمستعمر ، وتأمين انتصارها ومستقبلها.

ولا يجب أن يخنق الرجحان العددي للوطنية المسلمة جزائرية الأقلية الأوروبية.

" قانون تاريخي يقضي أن شعبنا يستعيد وعيه بوحدته، يبحث أولا " عن إستعادة ملكية تاريخه وإحصاء المحاولات، الإكتشافات، " مزايا تفوق رجال جنسه[11] "

ليس هناك شيئ طبيعي أكثر من إعادة اكتشاف عناوين النبل، والأسلحة المتحدثة عن الأمة الجزائرية ، عندئذ يصبح كل شيء يعظم مجد الماضي المغربي، الذي يحصن الحماس الثوري لدى المجاهدين.

إن جبهة التحرير الوطني لم تترك نفسها أبدا تنجر إلى نبذ كل ما هو ليس بعربي مسلم ، رغم العمى العدواني للعنصرية المعادية للعرب.*

* لقد أوقفنا نزعات التزمت المتبقية التي تحاول الإنبعاث ثانية بسبب رد الفعل "الإبادات" عكسنا تيار الأحقاد باتجاه التجار المزابيين واليهود.

فقد صححنا ضغينة التجار المسلمين ضد غير المسلمين وحولناها إلى مقاطعة تجار الجملة الإستعماريين أمثال "دورّوكس، دو سيرغني (طحين - دقيق) أو : أنسجة بورجو.

لقد كافحنا حتى داخل صفوف جيش التحرير، التدين غير المتسامح أو النفاق ببلاغة الحكمة والموعظة المحمدية.

إن هذه السياسة المستنيرة، البعيدة النظر، قد سمحت لجبهة التحرير بإصلاح الأخطاء الملازمة لعدم الإعداد وللإرتجال، لتلطيف أو تصحيح الأخطاء التي كان يمكن تحاشيها وكذا إبطال مكائد العدو.

---

11. أندري لاترايل (André Latraille) مذهب ودبلوماسية صحيفة لوموند (Le monde) تاريخ 11. 07. 1961.

النتيجة خير الأحكام

لم يتوقف جزائريو وادي ميزاب عن مضاعفة الدلائل على الوحدة الوطنية غير القابلة للهدم، روح مشتركة، بلد مشترك، وطنية مشتركة.

إن الإستعمار الفرنسي اللاَّعب على النزعة البربرية خرافة تبرر التوسط الخارجي ، يظل دائما يجهد نفسه لفصل الجزائريين من أصول ميزابية عن الأمة، كانت فرنسا قبل الثورة قد فتشت عن كيفية استغلال نزوع هجرتهم صوب الشمال، فتصرفهم باتجاه الجنوب.

إنه مشروع استعمار منعطف النيجر نفسه، الذي كان أيضا يزمع على تهجير جماعي لجزائريين من أصول قبائلية مجلوبين من أوروبا، مع وعود بترولية، إلغاء الحكم العسكري في أراضي الجنوب كان محاولة لتحويل قانون الجزائر المصادق عليه عام 1947، إلى تقسيم ثنائي للأرض، لصحراء بسكانها تتسمى " فرنسية "

في عام 1955 ، يقترح سوستيل الحاكم ، العالم في السلالة الميكسيكية ، بطيبة قلب على تجار العاصمة تزيدهم بالأسلحة " للدفاع عن أنفسهم ضد العرب" في وقت كان يعلم فيه جميع الناس أن المقاطعة والعمليات كانت تصدر عن الحركة الوطنية الجزائرية ، مختبرا استفزازات سياسية بوليسية.*

ليس هناك أي توقع إستعماري تأسس على نظرية " الخصوصية، الأنانية والإقصاء الديني " لم يتحقق خارج الإختلافات الفولكلورية التي تخفي الهوية الوطنية الجزائرية عن الملاحظين، السطحيين، فغرداية الصحراوية، قدمت إسهامها، العريض في الثورة الكبرى، حاضرة في كل مدينة بالتل، دفعت بمجموعتها من المناضلين إلى جبهة التحرير، إلى الإتحاد العام للعمال الجزائريين، الإتحاد العام للتجار الجزائريين، بينهم نائب رئيس على مستوى الوطن، قدمت حصتها من المعذبين والمحبوسين والذين تعرضوا للتفجيرات البلاستيكية، وكان لها نبل وواجب فدائيين وجنود بجيش التحرير الوطني في العمل العسكري، والتموين بقوافل الجمال مظهرين زهوهم بالعمل في وجه المطامع الإستعمارية من أجل اقتلاع الهوية السياسية والترابية لميزاب الجزائري والصحراء الجزائرية [12]

12. تقرير حصيلة جلسة المحكمة العسكرية لمدينة الجزائر (جورنال دالجي) بتاريخ 25. 07. 1961.
من ناحية أخرى نورد ذكر الإشتباك الهام قرب غرداية عاصمة ميزاب صحيفة لوموند 23. 07. 1961 تكتب : لقد كنا باستمرار نطمئن الناس على أن هذه الخاصية تجعل السكان الميزابيين أقل نفاذا لتأثير جبهة التحرير الوطني، فاثبتت عدة أحداث منذ بضعة شهور أن الحركة الوطنية قد نجحت هذه الأثناء في الإنزراع ضمن هذه الناحية.

أما الجزائريون من أصول أوروبية فقد كان إسهام بعضهم في الغالب يقترن بالقمع الإستعماري الشرس ، مثال ذلك ما أصاب راهب مونتنياك في ضواحي تلمسان، الذي يؤخذ كرمز القي به في السجن ثم طرد من الجزائر، فواصل رسالته الثانية المبشرة بالثورة الجزائرية الأخوية عبر امريكا الجنوبية، اختبار نية آخر له قيمته في الخلق العالمي. إنه موقف جبهة التحرير الوطني بشأن الجزائريين المتدينين باليهودية. أبناء الوطن نفسه، وليس هذا موقفا ظرفيا.

لم تكن العادة المسلمة أبدا لتمارس العنصرية المنظمة المؤسسة على وحدة العقيدة القرآنية.

«ليس هناك ما يستغرب، فعلا في كون اليهود قد عرفوا في الإسلام الوسيط ظرفا سعيدا في معظمه ولا فائدة من إدعاء قرابة عرقية، إفتراضية هنا بين شعبين، ساميين، لأن الجاليات اليهودية في سوريا، في فلسطين، وفي مصر المقهورة تحت ظل المسيحيين استقبلت الغزاة، المسلمين كمحررين، وهكذا شارك اليهود في التحولات الإجتماعية العميقة، التي كان المسلمون يجرونها في فضاءاتهم الإقتصادية، شعب من الفلاحين قبل الغزو العربي وهاهم الآن، قد صاروا ثلاثة أو أربعة قرون فيما بعد شعبا، مدنيا من الحرفيين والتجار، كل هذا بفضل الثورة، البرجوازية للإسلام [13]».

وهذا ما كتبه بيير نورالي

إن إحترام عبادة الغير ليست الميزة الأولى ؟

فهذا المبدأ المحمدي اصلا لم يفارقنا بالمرة، حتى عندما كنا نرى مواطنينا يتناسون أن ينحنوا أمام المعمرين كمتسولين، وأن من الأحسن لهؤلاء ألا يسلكوا مع المتهورين كأرباب.

لدينا الوعي بأن هذا المشكل المؤلم والرهيف، سيستغل بعمق من طرف الإستعمار من أجل رعاية عنصرية مجلوبة تغور في الحياة اليومية. لم نقع أبدا في الشرك برغم براعة الخبث لدى الإستعمار والفاشية اللذين سعيا لتحويل الديمقراطية، النقابة العمالية والإشتراكية، إلى أمور منبوذة لدينا؛ ونسبها إلى

---

13. نقد أدبي لتاريخ معاداة السامية، الجزء الثاني «من محمد إلى ماران (يهود إسبانيا الذين اكرهوا على إعتناق الكاثوليكية وحافظوا على دينهم سرًا في فرانس أوبسير فاتور 23. 03. 1961.

العقلية اليهودية غير المقبولة شعبيا في وسط الفرنسيين الجدد، الثابت هو أننا لم نستطع منع المصادمات المأساوية، الساخنة بين يهود ومسلمين في أفريل 1956 بقسنطينة واشتباكات سبتمبر 1961 في وهران بمناسبة " رخ هشانة " رأس السنة العبرية.

إلا أن أحداث الشغب العنصرية التي نظمها الغلاة راحت تتكاثر. والملاحظ النزيه يندهش لندرة الحوادث الشبيهة ب " البوقروم " (إبادة اليهود) في أفعال المسلمين.

إن هذه الإنفجارات الحاقدة ذات التقاتل الأخوي، هي بالفعل أيضا استثنائية في الجزائر تحت نظام الحكم المعادي لليهود للماريشال بيتين، وكذا في ظل الثورة الحالية المضادة للمستعمر وللعنصرية.

تسجل صحيفة لوموند "Le monde"

"أنه ومنذ سبع سنوات من الحرب على "الأقل حسب معرفتنا. لم يحصل أبدا أن "اشتبك اليهود والمسلمون بهذا الشكل" في باتنة، في تبسة، في بوغار، تلمسان " وغرداية، وفي مدن يعيشون فيها " جنبا إلى جنب في توافق وأمن أو على "الأقل في حالات دائمة من العلاقات التجارية"

تشير اليومية الباريسية بحذر مألوف، إلى غرابة الصبر لدى يهود العاصمة على إثر هذه الفظاعة، حيث بقيت الحالة مستقرة دون إضطراب داخل وحول المعبد اليهودي بساحة راندون في قلب القصبة، ليس هناك أي لغز.

سكان العاصمة بنهج باب عزون لم يتحركوا لأنهم كانوا يدركون كما يدرك جميع سكان القصبة هذه الحقيقة التي تخفيها الصحافة الفرنسية : وهي أن انتهاك الأماكن المقدسة كانت إستفزازا استعماريا.

فعلا إنهم الزرق المرتزقة المساعدون للجيش الفرنسي، الذين جروا فتيانا إلى تدنيس أماكن العبادة لمحاولة تشويه وإفساد المظاهرات الجماهيرية الرائعة في ديسمبر 1960. بعدئذ لن يخدع أي أحد.

لأن نداءات جبهة التحرير من أجل أخوة صادقة لم توضع في حواشي ضعف الإرادة العابرة، لقد سُمعت النداءات واحتُرمَت من جانب الجزائريين ذوي الإرادة الحسنة.

مثال على ذلك مواطننا السيد : بيار عدة، الذي يشهد بشجاعة كبيرة أمام محكمة التاريخ العالمي :

«طبقا لإعلان حقوق الإنسان والمواطن، فإنه يسجل في إطار الأرضية السياسية، المجمع عليها في شهر أوت 1956 من طرف مؤتمر الصومام، فإن لجنة التنسيق والتنفيذ لجبهة التحرير الوطني، في رسالة موجهة إلى الرهبانية والمجالس الدينية الإسرائيلية بالبلاد الجزائرية قد ترجمت إلى هذه العبارات : بما أن جبهة التحرير الوطني تعتبر الإسرائليين الجزائريين كأبناء بلدنا، وأنها تأمل أن قادة الجالية اليهودية ستكون لديهم حكمة " الإسهام في بناء جزائر حرة أخوية ... فإن هذه المجاهرة الصادقة شيء جوهري. اليهود الجزائريون هم حقيقة متأصلون " في بلاد الجزائر منذ عهد سحيق خارج الذاكرة. ولكنها المرة الأولى في التاريخ " التي تطالب فيها حكومة مشكلة من مؤمنين بديانة غير اليهودية، باليهود كأبناء وطن واحد[14]».

14. حالة يهود الجزائر لوموند 1961 .03 .30 Le monde

الباب الثاني

دحض العقيدة الماركسية الذيلية

الفصل السادس

حزب «العمل» أو رابطة وطنية

لعنك الله ألف مرة يا إبليس الآفك، من يقوي الرذيلة ويهدم الإيمان، نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، الذي يسعى لأن ينفخ في صدورنا روح المسكنة حتى يصرفنا عن سلوك السراط المستقيم، لن يكون طرحنا ثأريا ولا أكاديميا، إنما سنحاول ألا نشبه اللاهوتيين الذين يبسطون صنفين من الدين، ذلك ما يلاحظه ماركس في : بؤس الفلسفة :

«كل ديانة ليست ديانتهم، فهي من إختراع البشر، أما ديانتهم الذاتية فهي تجل للإله عندئذ يجب أن نتسلح بالصبر والدم البارد. وبالسيطرة على الذات لتحمل السخريات التي يقذفنا بها التلموديون في الحزب الشيوعي الجزائري كحقائق جلية».

يجب على المتواجدين في داخل الثورة الجزائرية أن يتحملوا مضايقات من هم على الهامش ؟ هكذا يتصرف لاعبوا الشطرنج مع المتفرج المزعج الثرثار، وكذا يصنع السائق الحذر المتعب مع المسافر المتبجح بأفضل أساليب قيادة حافلة.

هذا هو المثال الذي يعطيه «تشي غيفارا الثائر الكوبي المنتصر والمفتخر، الملفوف بلا مبالاة وقحة».

«لا أنزعج بالمرة ممّا يمكن لشيوعي فرنسي

«أن يقصه علينا، بما أن الشيوعيين الفرنسيين

«ليسوا قادرين حتى على توقيف حرب الجزائر»[1]

1. إكسبريس باريس 18. 05. 1961

صمتنا المستخف برأي عبر عنه شيوعي جزائري، يمكن أن يبرر بالمنظار نفسه، خصوصا عندما يكون متناقضنا هذا مقضوما بمرارة رؤية تاريخ الجزائر . يصنع بعيدا عنه . ...

غير أن مشكلنا مختلف لأن الأدب اليدوي للحزب الشيوعي الجزائري الشبح قد جرى تكريمه من طرف : «الشيوعي» المجلة الرسمية للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الإتحاد السوفياتي.

بهذا تكون وجاهة المجلة التنظيرية لموسكو قد أعطت الوقائع التجريمية نتوء كناية علمية، وأبلغت جامع المقتطفات باعتزاز إصطناعي مثمن.

جزائريون عديدون، خصوصا الشبان، يمكن أن يتركوا أنفسهم يخدعون، مشبهين عقيدة جذابة مكونة من فلسفة، ومن طرق للعمل من أجل عالم إنساني، بهرطقة درويش دجال.

سنساعدهم إذن للتعود عل الإحتفاظ بحريتهم غير الممسوسة كي يحكموا على الأشياء، رافضين الإنسداد سلبيا على الأحكام المسبقة التي تنوم حاسة النقد بفعالية البنج المخدر.

حزب العمل أو رابطة وطنية

يبدو وهذا غريبا مخالفا ؛ نحن الجبهيون من يدافع في وجه الشيوعيين ذوي المبادئ المشرفة باللينينية حول سبل ووسائل حل المسألة الوطنية والاستيطانية.

ليس هذا وقتا ضائعا . إننا ندحض التبسيطات المغالية، وسنجد الصيغ المثلى بمنح المجهود الفردي إفادة مضاعفة، تنقية واستراحة.

مثلما قال جحا : بسم الله يا الجرية الجديدة. توظيف النفس الثاني. لقد شاهدنا الوطنية الجزائرية. فهي فيما يخص العمق نقية من الجهوية والتزمت وهنا تكمن النوعية المطلوبة. قاعدة صلبة للانطلاق من أجل ضمان الاندفاعة المتواصلة للثورة الوطنية المحررة. لكن هذا لا يكفي. هناك مبدأ ثوري معروف يذكرنا بالمناسبة مفاده : ما أن يتم إعداد الخط السياسي بشكل ملموس. حتي يسيطر التنظيم على كل شيء.

هذا الاقتران الحتمي للسلاح الإيديولوجي، وللسلاح الإمدادي تحصل عليه الثورة الجزائرية بواسطة جبهة التحرير الوطني : نموذج النظام الوطني الثوري.

هذه هي الحقيقة المجردة (إنها الحقيقة الثابتة).

انطلاقا من قاعدة ثرية وتجربة مخصبة فإن جبهة التحرير الوطني المقامة في خضم التمرد، ستعطي للجزائر المحاربة موقعها السياسي العسكري بنفس حجم صورة الشعلة المتأججة المتماسكة المتجانسة.

إن البنية المعتمدة من طرف جبهة التحرير الوطني عام 1954 يسهل تبريرها عام 1961. فقط ببرهان تماسكها.

لكن بما أنها مطروحة للتساؤل باستمرار، فإننا مضطرون للدفاع عن المبدأ نفسه.

إنها فعلا مفارقة. فنحن الجبهيون من اختارتهم المهمة صدفة للمرافعة لصالح تكتيك صار لدى الثوريين في العالم بأسره حقيقة مؤكدة.

حيث أن الجبهة الموحدة هي العمل وتنظيم عمل الجماهير، وحدة العمل في القاعدة، وهي في الوقت ذاته ضمان التحالف وأكثر الوسائل نجاعة لقيادة الشعب صوب نجاح تطلعه، هذا أمر واضح.

إن بداهة الجبهة الموحدة، توصي. وتطلب. توجيه المجهود الأساسي إلى القاعدة؛ إنه وضوح يجب تبيانه ... بالشفاء من الحماقة.

لنبدأ بالبداية

في شأن نجم الشمال الأفريقي، نرد على خطأ تاريخي لدى مؤرخ ماركسي. لينيني، سنرى كيف يمكن لتفصيل بمظهر سخيف أن يعدل حقيقة، كيف يمكن لخطأ تنظيمي أن يغالط الخط السياسي نفسه .. فكان الجبل الذي تمخض فولد فأراً.

السيد يابيف لاكوست، مشهود له بإسهامه الجديد في مجال تصويب التاريخ «الرسمي» للمغرب، يدقق في نشرية، حيث درس التقدم السياسي للجزائر ببصيرة منقوصة.

«في هذه الأثناء يبرز حدث ذو مغزى إنه أول معامل للحركة الوطنية الجزائرية، ظهور حزب عمالي «نجم الشمال الإفريقي» تم إنشاؤه عام 1926 من طرف الحاج علي عبد القادر».

«عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي...»[2]

---

2. افريقيا الشمالية. وثيقة EDSCO عدد 61-1957.

إنه خطأ مزدوج وضخم!

جهالة لا تغتفر لأنها تمس التنظيم والعقيدة مرة واحدة.

نصوب الخطأ ... إن نجم الشمال الأفريقي هو المنظمة الأم للحركة الوطنية الجزائرية، كان في الأصل تجمعًا جماهيريا معاديًا للإستعمار ذا توجه ثوري، كان نجم الشمال الأفريقي ببنيته وتوجيهه النظري، والعملي، البروز السابق لجبهة التحرير الوطني، بالنسبة لمحنكي الحركة الوطنية ذات الوجهة الشعبية، إنهم يقرون أن جبهة التحرير الوطني تَفتُّح جزء أمثل من النجم.

ولنحدد أنه لا يجب أن يكون في مستطاع النجم أن ـ يصير جزبًا ـ وبتعليل أكبر حزبا «عالميا» لأن الشيوعية العالمية كانت تمنع تكوين حزبين أو أكثر «للعمال» في نفس البلد الواحد، فيكون إذا من البدعة أن نتصور الحزب الشيوعي الفرنسي يأخذ المبادرة بتكليف جزائري عضو في لجنته المركزية لإنشاء حزب «عمالي» للشمال أفريقيين ذوي وعي غير بالغ...

مع تدفق الهجرة الأجنبية القوية سيستوجب الأمر أيضًا إنشاء الأحزاب «العمالية» إذا بالنسبة للبولونيين، الإيطاليين، وفي الحقيقة عندما كان يرتفع عدد المشتركين الأجانب بحيث لا تسمع الفرنسية، كانت المنظمة الداخلية الملينة تقنيا تحتاط لـ «مجموعات» لغات، هذا ما كان موجودا على مستوى الحزب الشيوعي الجزائري، والإتحادية العامة للعمل الموحدة، المساعدات العالمية الحمراء. لقد حدث التسامح مع حالة استثنائية واحدة بعد انتصار فرانكو؛ بالنسبة للحزب الشيوعي الإسباني ... لأنه لم يكن يتصور أن هذا التوعك المفصلي يستطيع الإمتداد خمسا وعشرين سنة.

عندئذ لماذا جرى إنشاء تشكيلة «شمال أفريقية» بما أن المنظمات الموجودة كانت مفتوحة أمام الجميع بشكل المروحة المنشورة، كان ذلك ضروريا لتجميع المهاجرين المغاربيين في فرنسا الذين لم يكونوا يحسون إلاّ بالمشكل الإستيطاني.

ما كان ضروريا في فرنسا، كان كذلك في الجزائر، في تونس، وفي المغرب، كان الحال يستوجب تجميع كل المقهورين العازمين على الكفاح من أجل الإستقلال الوطني للمغرب من غير تفرقة طبقية أو تمييز الرتبة ضمن التصنيف الإجتماعي.

كان ذلك صحيحا من الناحية العلمية، ينبغي على كل قطر من أقطار أفريقيا الشمالية أن يأخذ بالحسبان.

1 . الضغط الوطني السياسي، الإقتصادي الثقافي والديني الذي يحقن الشعب بأكمله، ظل يحنق العواطف الوطنية ضد الإستيطان الأجنبي، وكان يمنحه الأولوية على الضغط الطبقي.

2 . التخلف الإقتصادي للمستعمرة المحرومة من الصناعة كان يترجم بطبقة عمالية مرتفعة العدد قليلاً متناقضة، وبتمايز إجتماعي ناقص التأثير.

3 . البورجوازية الوطنية، والصفوة المثقفون بالعربية أو ذَوُوا التكوين الفرنسي هم موضوعيا مهتمون بزوال النير الأجنبي.

4 . الذهنية التقدمية للقوى الإجتماعية أو للأفراد، يجب أن تقيم وتثمّن بالنسبة إلى مواقعهم في مواجهة الإمبريالية ورد الفعل الإستيطاني الإقطاعي.

بالفعل، الحركة المضادة للإمبريالية للأمير خالد، أو حرب التحرير الوطنية التي قادها الأمير عبد الكريم، كلاهما ذات عمق تقدمي، رغم الذهنية البورجوازية للجزائري، والهيئة الإقطاعية للمغربي.

أكثر من ذلك أيضًا وقع مؤخرًا الأمر نفسه بالنسبة لسلطان المغرب الذي طلب من الحكومة الفرنسية ضرورة توسيع الحقوق النقابية لعمال المحميَّة، لقد كان العاهل الشريف رغم توجهه الموسُوم بسلطة الله، أكثر إقترابا من الديمقراطية بالمقارنة مع «قانسان أوريول» الرئيس الإشتراكي الذي يرفض الحريات النقابية للعمال المغاربة، ويدافع عن مكاسب الرأسماليين الفرنسيين والأجانب الكبار. فيما يلي يتضح أن أفضل الأدوات لشق طريق الإستقلال الوطني لا يمكن أن يكون حزبًا «عماليًا» بل جبهة وطنية عريضة تحشد الموظف ورب العمل، الطالب والفلاح ... مهما كان : خماسًا فقيرًا، أو ثريًا وطنيًا !.

كان يجب أن يلعب نجم الشمال الأفريقي دور تحالف وطني شعبي مثل : «توده» في إيران، والمؤتمر الهندي، والوفد المصري ... أو كتلة الباشوات المضادين للبريطانيين، يكون معوضًا بتحالف كتلة الشرائح الشعبية عند توزيع الأعباء، لشقاء الشعوب المغاربية. لم يستجب نجم الشمال الأفريقي إلى آمال المستلهمين لوسيلة فعالة للتحرير الوطني، بل عكس ذلك، تلوىّ متحولاً إلى حزب عمالي، كما لو أنه يصطف على جهوية تروتسكي الذي يتهم الشيوعية العالمية بكونها راحت تبحث عن قوى ثورية «جاهزة» خارج البلوريتاريا، في الواقع، لم يتضح التصحيح العقائدي لـ : كومينتيرن إلا في عام 1930، مع كلمة الإجماع : «طبقة ضد طبقة».

إن تعديل ذهنية «تعددية الطبقات» لنجم الشمال الأفريقي كان بإمكانها أن تنتج طبيعيا تحت تأثير الوسط الإجتماعي المهيمن.

كانت الهجرة المغاربية في تلك الفترة مشكلة من غالبية هائلة للعمال، مثّل الكل بالطبع، إن النجم ذا الأصل الشمال أفريقي يظل رغم عنوانه جزائريا يعكس

بالضرورة الهيمنة الوطنية للمشتركين. وما هو في الغالب غير مألوف، هو أنه عندما تفلت المنظمة المعادية للإستعمار من رقابة ملهميها المنظرين في موسكو وباريس، ولتيسير الفهم نعمد بالضرورة إلى مراجعة تاريخية مقتضبة.

لقد أنشئ نجم الشمال الأفريقي عا م 1924 في باريس من طرف جزائريين . كمشة . منتظمين بواسطة أحمد بالغول، عبد القادر حاج علي، علي الجزايري (مناضل تونسي) ...

انطلقت الحركة بعد نجاح الندوة الباهرة للأمير خالد، مرسلا لأول مرة في وسط باريس، الصيحة المنتقمة للمقهورين المغاربة. بالفعل إن الحركة المندفعة للإنعتاق الوطني قد استفادت من الوقار الإستثنائي لحفيد الأمير عبد القادر، ولكن مساواة مع الموافقة الشخصية، والدعم اللامشروط للأمير خالد، وقد كان هذا الأخير موافقا على مخطط الشيوعية العالمية التي كانت تسعى إلى التزامن مع الجبهة المضادة للإمبريالية في المستعمرات الفرنسية.

إن أحمد بالغول هو الذي كان يتحرك كعنصر إتصال بين الأمير الجزائري وسلطان الأطرش قائد الثورة المعادية للفرنسيين في جبل الدروز في سوريا.

وبالغول نفسه هذا هو الذي جند عام 1926 بعد سنتين من إنشاء نجم الشمال الإفريقي شخصا يدعى مصالي الحاج، مطلوبا لخلافة حاج علي الرئيس الشيوعي عام 1927.

إن السيد : إيف لاكوست Yve Lacoste يذكرنا بأن الزعيم الجديد

" وجّه نجم الشمال الأفريقي، صوب تصور مطعون فيه

" ذي قاعدة دينية أساسًا مدموجة بذهنيات وطنية

" وبروليتارية، غير مستثناة من بعض الوهمية الديماغوجية

" مانحة حصة كبيرة إلى " العمل المباشر " ومهملة للمعامل العقائدي"[3]

الإجابة مختصرة، فنحن نعلم أنها تتوجه إلى مدرسين يبحثون عن الإطلاع، لكن المؤرخ يبدع عندما ينعكس التاريخ "الرسمي " لذلك فهو يباغتنا هنا، باعطائنا انطباع الرغبة في تدليس المشكل الحقيقي.

لنتحاشى الصراخ بكلمة زجر الحمار!

---

3. الشمال الإفريقي ص O.C.P. 65

إنه حكم متهور ذلك الذي يقتصر على فك الألغاز لهذا التفسخ فقط بواسطة تغيير إدارة نجم الشمال الأفريقي. حتى وإن كانت منحرفة صوب ورع زائف من جانب الحركة الشغيلة ".

باش آغا ديماغوجي مستعمل للتفسير القرآني من أجل زراعة نبتة معاداة الشيوعية المسيلة للعاب.

إن تحليلامعمقا أكثر يستوجب تثمينا أكثر اكتمالا، أكثر سلامة ... وأكثر استقامة للرأي، لدور بطل حتى وإن كان غير مستساغ، لا يقول لنا لماذا لم يعرف الحزب الشيوعي الفرنسي كيف يحتفظ باليد العليا على نجم الشمال الأفريقي.

إن إرادة فرد لا تكفي لتعديل طبيعة جبهة موحدة، حيث يقاس التأثير بحسب تحديد المقدار المطابق للأهمية العددية والمقدور السياسي للتيارات الإيديولوجية الحاضرة.

ألم يكن من الأصوب البحث في كيفية عدم نجاح مناضلين شيوعيين ذوي تكوين شخصي جيد مثل الحاج علي عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي، في مهمتهم الثورية : وهي تطوير وعي النجميين ؟ هكذا تطرح المعادلة الموجهة للتحري باتجاه تقاسم المسؤوليات الناجم عن ظروف مادية، نفسية سياسية وتاريخية للحركة الإشتراكية الفرنسية.

إذا كان السيد إيف لا كوست (Yves Lacoste) كما عرفناه، يبدي بعض الإنزعاج من تحريك أرشيف " قسم الإستيطان " لأنه يحتوي على التدوين التفصيلي لضربات العدو القاسية بالنسبة للمعارك الرائعة التي خاضتها " لَجنة العمل ضد حرب المغرب " حيث سيجد مبررات الدفاع الذاتي للإمبريالية الفرنسية في القمع البوليسي، والإنحراف السياسي، والعمل التكسيري، والرشوة الإديولوجية أو المعنوية، والجهوية العرقية...

سيعرف أن " جوبيرت (Joubert) المدير الأول لإذاعة الجزائر قد حصل على هذا المركز كمكافأة له مقابل التزويد بسجل إطارات الأحزاب الإستيطانية، آخرون إنكشفوا وتم إقصاءهم.

إن القدح لم يستثني : بيير سيمارد (Pierre Semard) صديق الأمير عبد الكريم، المعادي للإستعمار فكرة وعملا. الدعاية المشوشة بالإلهام البوليسي كانت تظهره كمشتبه به وربما " شرطي "، بينما كان قد اختير تحديدا لخلافة الأمين العام، القائد الأكثر رفعة للحزب الشيوعي الفرنسي المطرود بسبب نزعته الإستعمارية العنصرية.

كيف نندهش لرؤية شخصيات رفيعة بشجاعة سياسية ونفسية ثابتة تنسحب من العمل على رؤوس أصابع القدم؟ مثل حاج علي عبد القادر، رفيق: هوشي منه، رئيس رابطة ما بين المستعمرات المتواجدة في باريس، قَبلَ نجم الشمال الأفريقي حيث سجن محمد بن الأكحل لأنه دافع ضد رماة الجيش الفرنسي الذين كانوا يقتلون العمال الألمان المضربين في منطقة : الروهر (ruhr) المحتلة.

لا يمكن لإيديولوجية ولو عالية أن تحافظ على سلامة حيويتها التنافسية في جو مضطرب، خصوصا عندما يضاف إلى ذلك عدم إستقامة إدراك الإنتهاجية الإنسانية، كانت هذه حال تكتيك الجبهة الوحيدة المستعملة بطريقة ميكانيكية وطائفية.

نوضح بمثال جلي، التفسير المغالط للدور القيادي للطبقة الشغيلة.

لا أحد يجهل اليوم كيف يمارس الحزب الشيوعي التأثير على المنظمات الجماهيرية، عن طريق ترجمة مندوبية المناضلين في الإتحادية العامة للعمل، ولدى إتحاد النساء في النقابات الريفية في رابطة المستأجرين، لدى أنصار السلم، ولدى جمعية الطلاب، الكتاب، المقاومين .. إلخ.

لكن الطريقة من قبل لم تكن مضبوطة بعد، فقد قُطع الإنضباط الإجتماعي القوي المكرس من قبل الحزب الشيوعي للإتحاد السوفياتي الحاكم، بطريقة عمياء. كان الحزب الشيوعي الفرنسي يريد أن يبسط في نظام حكمٍ رأسماليٍ داخل الحزب و في الخارج. هكذا شاهدنا في مدينة الجزائر مندوبا باريسيا قدم قصدا ليطرح على الإطارات النقابية من دون أحزاب الإعتراف الشخصي والجماعي في الحزب الشيوعي بحق التفكير في مواقعهم، وليصدر لهم الأوامر بالأعداد للثورة...

كان الاستفتاء رائعا لتقوية التحالف في الحزب الشيوعي الفرنسي لتخليصه من تأثير جماعات البرجوازيين الصغار، والمثقفين الاصلاحيين الفوضويين، والماسونيين الفرنسيين. لكن ذلك كان سذاجة للرغبة في الانتصار على هذه الإفرادية المركزية الديمقراطية في الشكل، ولكنها مجتاحة بمغالاة من جانب غير الشيوعيين. لقد غدا الاخفاق إذن محتوما. المناضلون النقابيون، المتعاطفون أو غيرهم مثل المناضلين الوطنيين. العمال أو الطلاب رفضوا الانحناء إلى دور الدمى المتحركة بقدرة إلهية في أقبية الأموات الأحياء. عندما كان الحزب الشيوعي يتحصل رسميا على صدارة حق شمولية العلم.

لن تكون القطيعة في الجزائر كاملة إلا فيما بعد.

نجم الشمال الأفريقي، المنظمة الوطنية في فرنسا لن يتم لها التواصل عندنا إلا في عام 1934.

في عام 1930 ينشأ الحزب الوطني الثوري، بمبادرة شيوعية. يجب أن يكون هذا منظمة عريضة للمجاهير المعادية للإستعمار، جامعة لكل أنصار استقلال الجزائر، لكن الأوضاع لم تكن جد مساعدة إلا بالنسبة لنجم الشمال الأفريقي الذي كان يستفيد من بعض الحريات الديمقراطية في فرنسا.

عندنا سيجبر القمع الضاري لقانون الأهالي، الحزب الوطني الثوري على مباشرة حياة سرية، وسيظهر ذلك خصوصا في الجزائر، البليدة، تلمسان، تحت شكل فراشات لاصقة في الليل على الجدران ورؤوس مشاعل الغاز.

بسبب لا شرعيته التي تعيق نشاطه العمومي وتقلص جلساته، راح الحزب الوطني الثوري يتعاون مع الحزب الشيوعي والإتحادية العامة للعمل الموحدة. جرى إيفاد شيوعيين عرب إلى الحزب الوطني الثوري، لتنشيط وتوجيه المنظمة الوطنية.

كان المنظِّر الأكثر تألقا هو أمين المنطقة الجزائرية في الحزب الشيوعي، موظف تراموي عربي تكوَّن سياسيا في موسكو.

كان هذا التعاون التناغمي للشيوعيين وللوطنيين مسيرا بعقيدة مشتركة، فقد ظل الحزب في تلك الحقبة موجها صوب «التعريب» التنظيمي، وصوب الإستقلال الوطني.

عام 1930 كانت الإدانة المشتركة للإحتفالات السياسية الكاثوليكية. بالذكرى المائوية لغزو وطننا، فكان الإنعقاد السري لمؤتمر العمال العرب بالجزائر عام 1934، وهذا رغم المنع الولائي. المظاهرة نجحت في ساحة الحكومة من أجل الحرية للعلماء في دروس الإرشاد بالمساجد...

في السنة نفسها يُوفد مسؤول من طرف الحزب الوطني الثوري لنقل مشاركة المنظمة الجزائرية إلى مؤتمر نجم الشمال الأفريقي بفرنسا، فتدان إزدواجية الإنتماء السياسي.

في هذه الفترة يأتي الطلاق الوطني، الشيوعي. أصل الأزمة أنَّه يقدم بعض القياس مع ذلك الذي بفرنسا، مع التغير في الأمور التي تتزامن مع الثورة الصماء للجزائرين الشيوعيين ضد الوصاية الأبوية. الكاسويستية (casuiste) نسبة على

لن تكون القطيعة في الجزائر كاملة إلا فيما بعد.

نجم الشمال الأفريقي، المنظمة الوطنية في فرنسا لن يتم لها التواصل عندنا إلا في عام 1934.

في عام 1930 ينشأ الحزب الوطني الثوري، بمبادرة شيوعية. يجب أن يكون هذا منظمة عريضة للمجاهير المعادية للإستعمار، جامعة لكل أنصار استقلال الجزائر، لكن الأوضاع لم تكن جد مساعدة إلا بالنسبة لنجم الشمال الأفريقي الذي كان يستفيد من بعض الحريات الديمقراطية في فرنسا.

عندنا سيجبر القمع الضاري لقانون الأهالي، الحزب الوطني الثوري على مباشرة حياة سرية، وسيظهر ذلك خصوصا في الجزائر، البليدة، تلمسان، تحت شكل فراشات لاصقة في الليل على الجدران ورؤوس مشاعل الغاز.

بسبب لا شرعيته التي تعيق نشاطه العمومي وتقلص جلساته، راح الحزب الوطني الثوري يتعاون مع الحزب الشيوعي والإتحادية العامة للعمل الموحدة. جرى إيفاد شيوعيين عرب إلى الحزب الوطني الثوري، لتنشيط وتوجيه المنظمة الوطنية.

كان المنظِّر الأكثر تألقا هو أمين المنطقة الجزائرية في الحزب الشيوعي، موظف ترامووي عربي تكوّن سياسيا في موسكو.

كان هذا التعاون التناغمي للشيوعيين وللوطنيين مسيرا بعقيدة مشتركة، فقد ظل الحزب في تلك الحقبة موجها صوب «التعريب» التنظيمي، وصوب الإستقلال الوطني.

عام 1930 كانت الإدانة المشتركة للإحتفالات السياسية الكاثوليكية. بالذكرى المائوية لغزو وطننا، فكان الإنعقاد السري لمؤتمر العمال العرب بالجزائر عام 1934، وهذا رغم المنع الولائي. المظاهرة نجحت في ساحة الحكومة من أجل الحرية للعلماء في دروس الإرشاد بالمساجد...

في السنة نفسها يُوفد مسؤول من طرف الحزب الوطني الثوري لنقل مشاركة المنظمة الجزائرية إلى مؤتمر نجم الشمال الأفريقي بفرنسا، فتدان إزدواجية الإنتماء السياسي.

في هذه الفترة يأتي الطلاق الوطني، الشيوعي. أصل الأزمة أنّه يقدم بعض القياس مع ذلك الذي بفرنسا، مع التغير في الأمور التي تتزامن مع الثورة الصماء للجزائريين الشيوعيين ضد الوصاية الأبوية. الكاسويستية (casuiste) نسبة على

منظر يَدَّعي علاج الضمائر لباريس. إختلاف آخر. لم يعد هذا متعلقا بالوطنيين الذين يقاطعون الشيوعيين، بل بالشيوعيين الذين يقاطعون وطنهم للبقاء في النجم. الإتحادية الجزائرية توقف إلى الأبد إستعمالها كمشتلة واحتياط لمناضلين شيوعيين في المستقبل، بل العكس.

لأول مرة تجري ظاهرة تفاعل تمثيلي نفسية سياسية في الإتجاه المعاكس بواسطة الحوار الجماعي لأعضاء الحزب الشيوعي بشأن " العقيدة الوطنية ".

حركية فضولية للكثافة الإيديولوجية، سنجدها مع تجربة الرهبان العمال غير القادرين على المقاومة ضد عدوى التخريب لوسط الكفرة البائسين، لقد بحثنا هذا من جديد بجلاء عن طريق الإخفاق المزدوج للضُّبَّاط " النفسانيين "كان فشلهم ذريعا عند إصطدام جباههم بوطنية الجزائريين، رجعوا بخفي حنين، بتعريض أنفسهم لعدوى حنق الغلاة الذين كانوا مكلفين ببلوغ مستوى مناورات الجنرال ديغول.

للهروب من خطر احتمال إلهاب حماس أولائك الذي كان يجري عن إمكانية تحويلهم عن عقيدتهم يستوجب الأمر إيجاد الوجه الصحيح للحقيقة أو تحاشي اللخطبة.

لم تقبل إدارة الحزب الشيوعي الجزائري وحدة القاعدة التي تجعل من جبهة التحرير إتحادا وطنيا لا يتزعزع، وراحت هذه الإدارة رغم المبادئ الثورية للجبهة الموحدة، رغم التجربة والوضوح تختار الشراكة بالإندماج «دبارة الفار على مولى الدار» (نصحية الفأر لصاحب البيت).

«في هذه الحالة فإن قوة إسهام حزبنا كمنظمة، للكفاح الوطني، أعلى مقارنة ونوعيا من تلك التي يحتمل أن يأتي بها مجموع رفاقنا لو كان الحزب منحلا.

لقد قررنا كذلك أن رفاقنا المنخرطين في الكفاح المسلح لن يكونوا تنظيميا مرتبطين بالحزب. فقد دعونا العمال الجزائريين لتحقيق الوحدة النقابية في إطار الإتحاد العام للعمال الجزائريين ...

«في مجال أنشطة الكفاح السياسي، فإننا نقدر أن استعدادات كهذه ليست ضرورية، وهي أيضا غير مبررة... في كل حالة للسبب نفسه وانطلاقا من اللحظة التي تكون فيها الجبهة مناوئة للإنتماء المزدوج، فإن وحدة العمل السياسي في جميع المستويات بين منظمة الجبهة وحزبنا تبدو لنا الصيغة الأكثر فعالية ...[4]»

4. اخبار جزائرية رقم 32 ماي 1961 منشور الوفد الخارجي للحزب الشيوعي الجزائري.

نبيِّن بداية أن هذا النص هو خلاصة لمقالة موجهة لمعاقبة التفرقة في الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين على عدم إسقاط حرف الميم من التسمية، الذنب الذي اقترفه الطلبة المسلمون في تشكيلة الرموز الملخصة لاسم تنظيمهم.

نقر بذلك. لا أحد حتى الآن، قدر أن الأمر خطير لهذا الدرجة. الثابت هو أن أصدقاءنا الطلاب كانوا قد تنبهوا جيدا، لو أنهم كانوا قد تتبعوا المثال : إتحاد النساء الجزائريات.

«المنظمة التي ضبطت تسميتها قبل الحرب (جمعية النساء المسلمات الجزائريات)

«لتسجيل خطوة إلى الأمام تكتمل بالأمة الجزائرية».

لكن ما هو جوهري ليس الحرف بل هو الروح، بكل الأشكال فإن الملاحظة وجيهة في البداية لا تبرر وحدها إرادة طي الحقيقة الشاملة، وتكرر نظرية الحزب الشيوعي الجزائري ..

نقول بوضوح نظرية الحزب الشيوعي الجزائري، وليس نظرية المدرسة الماركسية اللينينية التي يحسن البيروقراطيون الجزائريون تمثيلها.

لنشرح بالتفشير نثر مدونينا.

إن المقطع المنتقى. المقدم. كمقبل للشهية. يعطينا فكرة عن النية السفسطائية المضمنة في المقالة المنشورة بواسطة (Kommunist) الشيوعي، المجلة الرسمية للجنة المركزية للحزب الشيوعي للإتحاد السوفياتي.

سيكون رد فعلنا الأول، التحقق من أن الحزب الشيوعي الجزائري أو بالأحرى ما بقي من إدارته البيروقراطية. لا يود الإنحناء أمام الورطة التي لم يعرف لا توقعها، ولا تصحيحها منذ سبع سنوات. إن إقراره بعجزه في أن يلعب دورًا في الثورة الجزائرية، يتفجر في التشنج الصلف، والتصلب.

«نتبعو الزواخ حتى لباب الدار».

يقال لنا إن الحزب الشيوعي الجزائري ليس منحلا، لأنه جاء بإسهام «لا يقارن وبنوعية ممتازة» نرد على هذه البهلوانية المطلقة ببرهان ثابت فيما يخص الكفاح المسلح نأخذ مثال مدينة الجزائر. كان ذلك في شهر جوان 1956 غداة النجاح الباهر للملازم مايو. بعد المحاولة العقيمة لإقامة تشكيلة صدام مستقلة. يتنازل

الحزب الشيوعي الجزائري لجبهة التحرير عن «مقاتلية للتحرير» فيكون النفر ثلاثة عشر فدائيا بينهم إمرأتان. دانيال مين (Daniel Minne) وحده الذي وقّع تصريح تبعيته لجبهة التحرير، حساب تقني صغير سيسمح لنا بقياس مقدار هذا الإسهام الذي لا «يقارن» للحزب الشيوعي الجزائري؛ حسنا جدا، نتكلم فقط عن المنظمة في حد ذاتها، الأمر إذن لا يتعلق بمحاولة تقييم الشجاعة والوطنية وعظمة الجزائريين الشيوعيين الذين سيموتون بنبل من أجل الإستقلال والوطن المشترك.

لنتلمس لغة الأرقام، إن إدارة الحزب الشيوعي الجزائري تعرف. أولا تعرف. بأنه توجد قاعدة ذهنية بغية تثبيت مجموعة أعضاء الحزب المتطوعين، أو المنخرطين في المجموعات المسلحة.

النسبة التقليدية تبقى في حدود العشرة في المائة للتشكيل الشكلي للمشتركين من منظمة قاعدية. هذا هو العدد المطلوب. و المحدّد. من جانب الحزب الشيوعي الفرنسي فيما يخص عدد المشاركين المعينين في مجموعات المتطوعين " الرماة الفرنسيين " والأنصار.

ثلاثة عشر مقاتلا لكل منطقة الجزائر العاصمة هذا شيء يبدو ضعيفا لإثبات قوة الحزب الشيوعي الجزائري، يود هذا أن يقول بأن العنصر الناشط لمن يكون عدده متجاوزاً لـ 130 مناضلا في العاصمة " العمالية " حيث كانت الجمعية الداخلية تضم ألف إطار .

13 مقاتلا لمنطقة الجزائر، و من 150 إلى 200 لمجموع التراب الجزائري الصحراوي. يبدو هذا شيئًا ضعيفا بالنسبة لثورة على أرض وطنها، بينما هذا الحزب الشيوعي الجزائري نفسه كان قديما قادرا على حشد ألف متطوع جزائري للقتال ضمن الألوية العالمية، يالها من إهانة قاسية !

الرجال أقل بعشر مرات مما حشد للحرب في اسبانيا !

و يقل عدد مقاتلي الحزب الشيوعي الجزائري بمائة مرة عن مقاتلي جبهة التحرير في المنطقة المستقلة للعاصمة الجزائرية، لأن الجبهة متوفرة على قوة مسلحة بألف فدائي لكل واحد رقمه و سلاحه، إن التجنيد لم يكن في يوم ما مشكلا بالمرة، فقد كان دائما مشروطا، و محددا بندرة التسليح، 13 مقاتلا فقط للجزائر العاصمة، كان هذا شيئًا ما ضعيفا، لإجبارية جبهة التحرير الوطني للتعامل ندا لند مع الحزب الشيوعي الجزائري الذي كانت لديه أسلحة محفوظة. فلماذا لم يجند من هذه الشبيبة المتلهفة. كأن يشير لها بالرشاشات الجديدة اللماعة، لكن الحزب

الشيوعي الجزائري كان سيئ الحظ ... فقد وقع بشكل محتوم على عناصر من جبهة التحرير الوطني، منظمين سلفا في السياسة كما في الأفواج المسلحة 12 رشاشة " ستاين (sten) جديدة تمّ استحضارها من طرف مناضلي الجبهة الذين لم يتذوقوا مناورة الغواية المشهورة في فرنسا تحت اسم " دواجن بالريش ".

نعرف من جهة أخرى أن رشاشات أخرى مستجلبة من المخزن نفسه تم إهمالها في طرق مهجورة أو في أروقة مظلمة في مختلف أحياء مدينة الجزائر، هدايا سخية و مجهولة للشرطة العدوة.

العمال السيئون يتوفرون دائما على الأدوات الجيدة.

عفوا ! هل "دعا الحزب الشيوعي الجزائري العمال الجزائريين لتحقيق الوحدة النقابية في إطار الإتحاد العام للعمال الجزائريين ؟"

بالتأكيد هذه هي المناسبة، فهل يقدر الحزب الشيوعي على شيء آخر غير الدعوة في الساعة الحادية عشرة. إلى تقوية الإتحاد العام للعمال الجزائريين، الذي تأسس بدونه و برغم أنفه. ركيزته الأخيرة، الإتحاد العام للعمال الإشتراكيين الجزائريين . الإتحادية العامة للعمال كانت قد تفجرت، كان الحزب الشيوعي الجزائري يفقد كلية الحضور في عالم العمال : الطبقة الوطنية العاملة تلتحق جماعيا بالإتحاد العام للعمال الجزائريين، غالبية الأوروبيين المنتسبين إلى الإتحادية العامة جرى انغماسهم في فوضى غلاة المستعمرين .

مقطوع عن الجماهير، معزول عن العمال، الفلاحين، الطلاب، اتحاد النساء، التجار، فما بقي من الحزب الشيوعي الجزائري، مفرغ من دمه بسبب حالات الإستياء. أضحى " معاقا " موتى، مبعدون و كمشة مسجونة ؟

رأس مريض موضوع على جثة يابسة ! نعم و لكن أحيانا لا تبدي إشارات الحياة؟ وإنما تبدي مظهر حركة حي غير مستقر بفضل بالون أكسيجين : هو "مكتب النشر" المقام في أوروبا، الطابع لمنشورات أو افتتاحيات تُبَثُّ بعدئذ. بواسطة نهج البريد.

هذا إذا هو الحزب الشيوعي الجزائري الشبحي الذي يطالب جبهة التحرير – التنظيم المناوئ – بالإنتماء المزدوج.

"وحدة العمل على جميع الأصعدة بين منظمات الجبهة و بين حزبنا"

الإدارة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري تسب الواقع. إنها تعطي الإنطباع بتجاهل بندما، البند 3 من قوانينها الذاتية التي تدين بدقة " الإنتماء" السياسي المزدوج .

إن هذا التنافر أصاب حتى ماسونية فرنسا، ونسيت بقية إدارة الحزب الشيوعي الجزائري، السخاء الوطني لجبهة التحرير الوطني التي مررت الإسفنجة الماسحة على سالف جميع الأحزاب، إنها تذكر بأهمية البرغوثة التي زعزعت الفيل ليندفع صوب سفينة نوح "

"من بين الحيوانات المتقدمة صوب المركب ينفعل أحد الفيلين و هو يلتفت صوب البرغوث حانقا ليقول " لا تدفعوا بنا للشيطان ! سيتسع المكان للجميع[5] ! "

الإدارة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري تسب التجربة، يبدو أنها تجهل القانون الأساسي للجبهة الثورية الوحيدة .

الوحدة في القاعدة دائما !

الوحدة في القاعدة و في القمة أحيانا !

الوحدة في القمة أبدا لا !

كان الحزب الشيوعي الجزائري و الحزب الشيوعي الفرنسي في الماضي يعلنان ندوتهما وسط الشعب، و كانا دائما بطلين للوحدة في القاعدة، و قد أوصيا بمبدأ المشاركة الفردية بالنسبة للجبهة الشعبية، و المؤتمر الإسلامي.

و فيما بعد فرنسا المحاربة، النية " الإتحادية " للحزب الشيوعي الجزائري تذكر بمناورة القنفذ الذي تبناه الحزب الأصولي (SFIO) اتحادية المنتخبين المسلمين، و فيما بعد جماعة " الحرب " النزاع على القاعدة الشعبية يضم من ليس لهم أحزاب، و يعني هذا الخوف من الشعب .

أما بشأن فعالية مختلف الجبهات، فيكفي عدم التوفر على ذاكرة قاصرة للإقتناع، مثال مكروه ذلك المتعلق بعام 1954 المتمثل في : الجبهة الجزائرية من أجل الدفاع عن احترام الحرية . ما أن اكتملت الوحدة حتى جمعت الأحزاب الثلاثة المضادة الإستعمار : حركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD) اتحاد الديمقراطيين المسلمين الجزائريين (UDMA)، الحزب الشيوعي الجزائري (PCA) وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين (AOMA) إلا أن هذه الوحدة رهينة لأنها كانت نتيجة وفاق في القمة، لجان المدن تُشكل بواسطة ممثلي كل تجمع، فكان الشعب غائبا .

لقد شمل ضعف التنظيم العمل مع بداية الإجتماع الأول للجنة التنسيق ... لم

---

5. هوغ ديلورم فابو ليست.

تكن هذه الجبهة إلا إئتلافا عاجزا لزعماء أسرى لانقساماتهم المذهبية المناورة وعوامل أخرى للتفكك.

تمت في الواقع إضاعة وقت كثير في الحوارات البيزنطية وتعليق الجلسات... للسماح لذوي الصلاحيات المطلقة الحائرين بطلب التعليمات بواسطة الهاتف حول طرق التعبير بشأن بعض الطروحات، أو كيف يكون الإنتخاب على اقتراح آخر!!! أو طرف كذا وكذا، يبدو أمر الإفلاس شيئا محتوما.

الشراكة هلكة ولو في الطريق إلى مكة[6].

لنضبط أنفسنا أمام حمية المعتمدين الجدد في الحزب الشيوعي الجزائري، مذكرين بأن أفضل مثل للجبهة الموحدة هو الفييت مينة ؟ بدون إشكال. إن هذه الكلمة المركبة المتجلية ليست اسم البلاد، ولا هي اسم حزب، إنها اختصار لـ : «جبهة الإستقلال للفييت نام» الفيت منه جبهة موحدة في القاعدة عمارتها أحادية الحجارة (منحوتة في صخر) وهي شبيهة بـ جبهة التحرير الوطني، إنها القاعدة الأساسية لمنظمة جماهيرية بمشاركة فردية، كانت متوقعة لنجم الشمال الأفريقي.

لقد ذابت كل الأحزاب المعادية للإستعمار في بوتقة الوطنية القومية الثورية، إلى جانب الشيوعيين الإشتراكيين النقابيين طلاب فلاحين، كان هناك أيضا الوطنيون، والوطنيون المغالون المنضجون بالتجارب المؤلمة لانتفاضات إنطلقت بانعزالية إقليمية فغرقت في الدم مثل الهزيمة المروعة لـ «ينباي» عام 1930.

إن الإدارة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري، تلعن المستقبل، إنها تتشبث يائسة بالمذهبية حسب المنعكس اللاّمحسوس للفارق الذي تسيطر عليه الفائدة الأنانية.

لم تكن هذه الإدارة قادرة على تحصيل المنفعة من الدروس النظرية ولا من التجارب الممارسة.

إن الحزب الشيوعي الهندوصيني لم يتردد في الذوبان الذاتي أمام المصلحة العليا للثورة الوطنية المعادية للإستعمار ضمن الفييت مينه. كان العدد خمسة آلاف مشارك.

بعد الإنتصار الخالد في ديان بيان فو 1954 وغداة الإستقلال الوطني، يُعاد تأسيس الحزب الشيوعي الفيتنامي، ويعد اليوم 200000 مناضلاً.

6. الشركة هلكة ولو في الطريق لمكة

جبهة التحرير الوطني تقود ثورة وطنية مضادة للإستعمار منذ سبع سنوات إنتصارنا أمر واقع، تحالفنا يقيني، الطبقة الوطنية الشغيلة لعبت دورا محددا. فقد أحبت تطوير والتحام كل الشعب في معركة من أجل الحرية والكرامة، وهي تواصل معركتها من أجل العدالة الإجتماعية والأخوة الحقيقية، فلماذا لا تكون قادرة غدا على قيادة الأمة الجزائرية السيدة في استلهامها الإشتراكي ؟

الفصل السابع

السياسي و العسكري

ديسمبر 1960، كان ذلك غداة الذكرى السادسة لاندلاع الثورة الجزائرية الصامدة التي لا تقهر.

مظاهرات حضرية ضخمة متوقعة، تشرع في مقدمة مرحلة جديدة، إنها الهجوم الجماهيري السياسي المضاد.

الجزائر البيضاء تذهل الكون بطاقاتها الجامحة، مدينة سيدي عبد الرحمان، سيِّد الجزائر المنكل بها حتى الموت، قبل ثلاث سنوات على يد مجرم الحرب روبير لاكوسَت، تُفاجئ جلاديها الذين لا يجارون. بنفسها الجديد.

بعد الصين الشعبية والإتحاد السوفياتي اللذين إعترفا فعلا بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، رغم سياسة ديبلوماسية حذرة تجاه فرنسا.

يعقد في موسكو اللقاء العالمي لـ : 81 (واحد وثمانين) حزب شيوعي وعمالي، يحدث هذا في الفترة الفريدة المؤائمة حيث تذيع الإذاعة الفرنسية مقالة طويلة موقعة من جانب أمين الحزب الشيوعي الجزائري نشرت في المجلة السوفياتية.

نحن ننتظر دراسة جادة، حية ومغرية.

تمخض الجبل فأنجب فأراً ... الشيء الذي راحت تلوح به جميع الصحف الباريسية لتفجيره ضد جبهة التحرير الوطني.

قبل المرور إلى الحديث عن التظلمات، تشير مصادرنا بملاحظات أولية إلى :

1 . إن الموضوع المعني استفاد من إشهار صاخب، ولكنه قدم لنا في شكل قطع كما لو كنا داخل حانة نوزع صحونا صغيرة مليئة «بالكمية» (المزة) التي كانت قديما

عبارة عن ترفاس (كمأة) وهي اليوم زيتون وفجل ومخللات ترافق «الماحية» شراب كالفودكا يتخذ من البسباس.

لقد بقينا على جوعنا المهيج. صحيفتا: لومانيتي كما لوموند خصصتا للموضوع مكانة مساوية تحت شكل الملخص المعلق عليه.

2. المقاطع الأكثر عددا والأكثر طولا تم نشرها بواسطة «أونيربور . لوسوسياليزم unir pour le socialisme «اتحدو من أجل الإشتراكية» باريس جانفي 1961 . لقد نقلناه مثلما وجدناه في وثيقة المعارضة الشيوعية. لا تصرخوا بسرعة أكثر؛! مذكرة النقد اللاذعة المعادية لتوريز موريس Thorez Maurice تظهر كامل تعاطفها مع «الرفيق الجزائري المقيم في البلد الإشتراكي» ومع ذلك انتقدت لومانيتي l'Humanité «التي يبدوا أنها كذلك لم تعر الإهتمام للوثيقة المنشورة بواسطة «الـ "كومونيست" لأنها لم تقدر فائدة نشرها كاملة.

3 . النص الأصلي لم نستطيع الحصول عليه، لا بالفرنسية ولا بالعربية مع البربرية... وليس هذا تقصير من جانب السيد «فاجون» مدير لومانيتي. ولا هو خطأ من روسو أو فولتير، لأن البعثة الخارجية للحزب الشيوعي الجزائري، مبذرة عادة فيما يخص الإنتاج الفاخر لكتابات قادتها ولم تقدر هي أيضا من جانبها الفائدة من التعريف بوثيقة كهذه بالنسبة للذين لاحظٌ لهم في سماع اللغة الروسية.

لم هذا التستر؟ فلنتجنب الفرضيات المبنية على الرمال، الأجدر أن نحكم على الأجزاء التي في حوزتنا محاولين الحصول على فكرة حول الكل الذي لم تأتنا به الترجمة، طريقتنا تعتمد تجميع أجزاء العظام المتناثرة وتشكيل الهيكل العظمي للإنسان أو الحيوان . أو هيئة غول منقرض. نحن نجهد أنفسنا مع ذلك لمحاولة التجميع بين التصور النظري والبحث الإختياري.

الأمين الأول للحزب الشيوعي الجزائري يصرخ علينا من الجهة المقابلة من موسكافا.

«جانب العتاد لتقوية الجيش الجزائري ليس كل شيء. ليس هذا حتى ما يهم الجيش الثوري أكثر إنما الذي يهم أكثر هو الجانب السياسي، لأن جيشا محصن بوعي سياسي رفيع يمكن أن يفض هو بنفسه المشاكل المطروحة عليه، ومن بينها مشكل التسلح معارضة المعامل العسكري، للمعامل السياسي كما يجري باستمرار لا يمكن أن تقود إلاّ إلى «إضعاف المقدور العسكري لجيش التحرير الوطني».

نظريا يتعلق الأمر هنا بحقيقة أولى، نتوقع تدريسها. . ست سنوات من بعد، ويبقى على القادة السياسيين والعسكريين لثورة قاسية - لكنها لم تتضرر- أن يقتحموا بابا مفتوحا لـ «الدماغ الكبير» للحزب الشيوعي الجزائري المترسب، الذي لم يأبه إلى أن نصيحته لم تعد إلا عبارة عن خطابات نسجت عليها الرتيلاء شبكتها المغبرة منذ زمن بعيد.

إن جبهة التحرير الوطني تعرف الطريق إلى بيكين، بلغراد، أو هافانا، شتيمة مجانية تلك التي تظننا نجهل مبدأ عالميا مقبولا حتى من جانب أولئك الذين يذهب بهم الجهل حتى إلى وجود : كارل فون كلوزويتز، ويجهلون الدعابة الساخرة لكليمونسو حول الجنرلات، أو صورة السمكة في الماء لماوتسي تونغ.

إننا نستخدم السلاح الذي لم يعد مشكلا.. بدقة أكثر لم يعد صعوبة مقلقة مزعجة، نحن بعيدون عن مأساة ندرة الأسلحة، التي توجعت لها كتائب القبائل الكبرى خصوصا بانعدام الإيصال. عمل محسوب أو إجرامي لشخص يدعي عجول عجول، قائد مترف مدفوع بالجهوية والطموح.

يتزود جيش التحرير الوطني اليوم في عين المكان، أو من الخارج من مصادر مختلفة، من بينها الدعم اللاإرادي من الجيش الإستعماري إنه الوضوح.

عندما نصبح مقتنعين بأن الغاية العليا هي الحرية وليست الحياة حتى عمر متقدم، مثل الكلب، ولكن أن يواجه الرجل الموت مثل الأسد.

ولكي يتم اكتساب الجرأة على الحلم باسترجاع الإستقلال والوطن، فإننا نعقد العزم على اقتلاع ذلك ببنادق الصيد ضد الرشاشات، والدبابات والطائرات التي تنشر النابالم، ويجب إمتلاك تفاؤل ثابت.

حرب العصابات مناورات قتالية موغلة في القدم، مارسها الجبليون قبل ظهور كتيب ضابط المشاة.

من البساطة تشكيل مقاتلين عازمين على قتل عساكر العدو. مبدأ ناور من غير أن تموت، لقد حيد العامل التقليدي للقوات، الذي يحققه عدد الجيوش التي أقحمها الحكم الإستعبادي، المهم هو الوضع الذي يجد فيه المجاهدون أنفسهم دائما أقوى في الموقف، والذي يكون فيه العدو أضعف بعامل المفاجأة. الصمود لسبع سنوات مطاولةً وإنتصارًا وحده يستلزم أن يكون مسيرا بواسطة سياسة موضحة.

يا للحسرة سنكون محاولين الرد على المجلة النظرية للحزب الشيوعي في الإتحاد السوفياتي بصياغات أسلوب صحيفة الـ : كنار أونشيني، لأن جبهة التحرير

الوطني لم تنتظر السنة السابعة للثورة الجزائرية الكبرى لإحداث الفرق بين النقاط القوية والنقاط الضعيفة لحرب طويلة الأمد.

لم نأبه لتعليمات الساعة الحادية عشرة للحزب الشيوعي الجزائري المفلس من أجل أن تكون حرب الإستقلال طبعا حربا ثورية.

قوتنا في البداية سياسية. بمثلنا النبيل والمقدس، تحالفنا الوطني، بطولة شبابنا، روح التضحية لدى شعب كامل يدعم جيشه دون توقف. بفضل معرفة أرضه الصعبة والإنتشار الوقائي الشبيه بازدواجيه الزئبق.

أما فيما يخص ضعفنا عند الإنطلاقة وما يتعلق بالتسلح، الدعاية الداخلية أو الخارجية، التنظيم، فهي نقاط ضعيفة مصاحبة لفجر كل حرب ثورية، وستزول هذه الصعاب الثانوية شيئا فشيئا بفضل حتمية التجربة السياسية والعسكرية.

مع ذلك لم تتجاوز الثورة الجزائرية هذه المرحلة حتى حصلت على الإعتراف الدبلوماسي للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.

هذا واضح حتى لكل من يجهل نظرية المراحل المسجلة من جانب ماوتسي تونغ، دفاعية، مقاومة متوازنة، هجمة مضادة.

الثابت أن الرد بالتغيب على تغيب آخر، لا يكفي لإقحام الخصم، يكتب لينين «إن المبدأ الأساسي للجدلية هو أنه لا توجد حقيقة. مطلقة فالحقيقة أبدًا محسوسة».

لدينا من الوقائع والأحمال، ما يكفي لأن يختار من خزان الشهادات الجماعية التي لا تنضب لضباط فرنسيين لأنه كُتب الكثير حول حرب الجزائر، التي لا تحترم قانون اللعبة الناجمة عن تقنية الكولونيالات الذين يحلمون في مدينة الجزائر بربح الحرب التي كانوا قد خسروها في ديان بيان فو.

ولكي نبدو موضوعيين. بمعنى أبعد ما نكون عن النزعة المعادية للشيوعية المعدية، سنبدأ بالتفنيد على طريقة المعالجة المثلية (الداء بالداء) مختارين من بين الأعداد الكثيرة الخاصة، ذلك المتعلق بمجلة شيوعية، معروفة فنقرأ في إفتتاحية صحيفة النقد الجديد.

«اليوم نحن أنفسنا المتعاونين العسكريين نقدم فكرة: أن جيش التحرير الوطني الجزائري قد صار بالتأكيد منذ سنتين مرغما على الفعل الدفاعي وقد باشر هذا الأسلوب الدفاعي بشكل جعله من ناحية يحافظ على أهم

قواته العسكرية وعلى تسليحه ومن ناحية أخرى مقويا لإمكانياته السياسية بحجم كبير وهو العنصر الأساسي في علاقة القوات « في حرب بمثل هذه الطبيعة [1] ».

دائما في المجلة نفسها، ضابط شارك في «أيام دراسية» منتظمة في شهر جوان 1959 بعناية أجرى اختبار آراء معبر عنها لـ 570 ضابط عامل.

«نأخذ العدد 8.82.813 عسكري، مع الوحدات المسلحة المحلية أو فقط العدد 757813 رجل. من غير هؤلاء يبقى أن في بلاد الجزائر أضخم حشد عسكري، لم يباشر العمليات الميدانية أبدًا على أية أرض محتلة لم كل هذا الجيش الضخم المزود بتسليح، وبعتاد أكثر حداثة يكدس القطاع الأشمل للطيران، وعجز عن أن يأتي على إنهاء 10 أو 15 ألف فلاقة (ثائر) المرعبين للسكان حسب العبارة العزيزة لدى قيادة أركان هذا الجيش الضخم ؟ لو كان الأمر هكذا فإن جبهة التحرير الوطني كانت ستصبح معزولة عن شعبها. ولم تطل الحرب لأكثر من ثلاثة شهور»

والأبعد من ذلك هذه الإشارة المتنصلة من إدعاء الحزب الشيوعي الجزائري.

سنبين بدقة متناهية وعلى قواعد مراقبة من خلال مئات الشهود الذين يعيشون في الجزائر، واقع الجهاز السياسي والعسكري لجبهة التحرير الوطني.

إن جبهة التحرير الوطني هي التعبير السياسي والوطني للجزائر المكافحة من أجل استقلالها. لذلك فهي تستفيد من دعم الشعب.

بمؤازرة من الشعب تشكل هذه المنظمة السياسية العسكرية جهازها المتخفي على كل التراب الجزائري، بداية من أدنى الرتب للدوار، وتدير البلاد فعلا باسم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.

إن التثبت من تدميرها في قرية ما لا يتحقق إلا في حالة أن يكون الـ 100٪ (المائة بالمائة) من السكان (وليس الرجال وحدهم) قد تم إقصاءهم بالإعتقال أو «التصفية»

مبدئيا يتوجب على منظمة سياسية عسكرية جيدة التنظيم في وجه القمع، أن تمتلك إنسدادًا متكتما، لا يعرف أعضاؤها المعتقلون أي شيء عن خلفائهم المقبلين هذه هي الحالة عموما، وهناك منظمات سياسية عسكرية دمرت لغاية سبع وعشرين

1. النقد الحديث عدد خاص «الجيش الجزائري» باريس جانفي 1961 . La Nouvelle Critique

مرة، وأعيد تشكيلها. يقودنا هذا إلى القول: لكي يتم تدمير جهاز جبهة التحرير في بلاد الجزائر يستوجب إعتقال أوتدمير 9 ملايين من الجزائريين[2].

فهل يعني هذا أن جبهة التحرير الوطني معصومة من الخطأ ؟ من المؤكد لا. فالتظاهر بالعصمة يعني الكذب على الذات.

لنحاول محو ذكرى الصعاب والمناورات الخاطئة: أوهام الهرطقة، الدوس المضر، النزاعات الداخلية التي تدل على الحماقة والعشوائية، والخرافة، إنه أخذ نظرة مخدرة عن الواقع المتحرك المتغير دون الإفلات من الخطر المحتوم، إنه تكسير الرأس أمام جدار العجز.

الحس السياسي، الشجاعة الجلية،والتواضع الخلاق، هذه الخصال نجدها لدى ناشطي الجبال في مؤتمر الصومام، مناضلين، جنود ممارسين، للنقد الذاتي.

«تشير أرضية المؤتمر إلى أن عملنا السياسي قد تعرض للإعاقة عند الإنطلاق للأسباب التالية :

1. التأثير العددي للإطارات، والوسائل المادية والمالية،

2. ضرورة عمل مضن للتوضيح السياسي،

3. التزام الاستراتيجية التسلسلية على طول جبهةالكفاح المسلح،

هذا الضعف العادي، والمحتوم في البداية سبقت معالجته. بعد الفترة التي كان يكتفى فيها بالإقتصار على إطلاق كلمة الإجماع على مقاومة الإمبريالية. نحضر بعده إلى ظهور حقيقي لجبهة التحرير الوطني على واجهة الكفاح السياسي[3]».

هكذا رأينا هذا الظهور في هذا التقدير المتجلي، فقد صححت جبهة التحرير الوطني في القسم الأكبر الوضعية، بمعالجة النقائص ضمن المتابعة القاسية للكفاح المسلح.

لنحتفظ بتاريخ نشر الأرضية المتبناة من طرف مؤتمر الصومام: نوفمبر 1956 يتساءل كل واحد لماذا وكيف راح الناطق باسم الحزب الشيوعي نهاية 1960 «يدلك الصره وهو يجتر عبارات المعارضة الزائفة. للعامل العسكري، في وجه العامل السياسي».

---

2. النقد الحديث 12، 13، oc..p.p

3. المجاهد عدد خاص طبعة «المقاومة الجزائرية الطبعة 2 ص 14.

قبل التعرف على خلاصة المؤتمر التاريخي لرجال الجبال، يبدو الإضطراب مفهومًا ومسموحًا به.

لكن أن يعلن عن هذا التعارض بعد أربع سنوات. في مجلة ذات واجهة عالمية يشهد بجهل قدر على نية سيئة. أو على غباء كامل. لأن تقرير المحضر لمؤتمر 20 أوت 1956 بعدما قدم قائمة أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية يشترط في الفقرة الثالثة (3)

- تقرير جبهة التحرير الوطني. جيش التحرير الوطني.

«أسبقية العامل السياسي على العامل العسكري»

وفي الفقرة الخامسة (5) المخصصة لجيش التحرير الوطني يشترط هذه التوصية السياسية الملحقة، إعتماد محافظين سياسيين:

«أ. تنظيم وتربية الشعب،

«ب. الدعاية والإستخبارات،

«ج. الحرب النفسية (العلاقة مع الشعب، الأقلية الأوروبية أسرى الحرب) يعطي المحافظون السياسيون آراءهم في جميع برامج العمل العسكري لجيش التحرير الوطني».

نوضح مرة أخرى لنباهة الصديق مدير مجلة الشيوعي أن الوثيقة الرسمية التي تنص على «أسبقية السياسي على العسكري» قد جرى الكشف عنها في العدد الخاص لصحيفة المجاهد الصادرة في شهر نوفمبر 1956[4].

فماذا بقي من نقاء سريرة منظر الحزب الشيوعي الجزائري، غير هذا التجزؤ البيروقراطي المأمئي (المتلعثم) بالعقيدة مثل العنزة، موبخا جبهة التحرير من على إرتفاع منصة موسوعية تحولت إلى زاوية وعظ وهدي.

هراء متعال، ترديد آلي رتيب لعبارات مقلوبة الصور...

لقد قلنا: إن الثورة الجزائرية لم تتبع النهج الأمثل المرسوم مسبقًا مثل الخط الحديدي.

إن أصالة الثورة ليست شرطا نمطيا، لذلك كان لزاما على جبهة التحرير الوطني باستمرار أن ترتجل مناورات متأقلمة مع الوضع المحسوس، متبصرة للتطبيق

4. كانت الطبعات العربية والفرنسية في الجزائر تطبع بواسطة جهاز الرونيو، في الخارج طبعات بلغات أجنبية تم نشرها في كامل القارة.

الأعمى لنظرية شاملة من غير الأخذ بالحسبان حقائق الواقع الجزائري، مجرد ترتيبات إجتماعية كان بإمكانها أن تقود التمرد المسلح إلى مقبرة الثورات. هذا ما جعلها تسقط في عمى التقنية التي ترغب في بناء سد بمواصفات محض نظرية من غير الأخذ بالحسبان جهل الأرضية، ومقاومة الصخور... والكوارث المقبلة غير المتوقعة في الحسابات والتصاميم.

من المؤكد أن عدم معرفة الأمور لنظام الأولويات لعوامل ما، حيث يباشر العمل في إتجاه بدل أخر، يمكنه أن يؤثر باستمرار على المسيرة العامة للأحداث ويعقد حل التناقضات المرتبط بعضها مع بعض.

غير أن اللامتوقع ليس أبدًا طوباويًا. أحيانا يفتح الإنقلاب في الترتيب المحكم أفاق الإكتشاف وفق تحليل غير مصاغ، لكنه ملتصق بالحياة نفسها، المثل الرائع على ذلك هو مثل الثورة الصينية الكبرى، فقد بدأت في المدن كحركة عمالية أساسًا، مقتدية بمثل الثورة السوفياتية العظيمة، فكان الإخفاق الفظيع، حيث راح تشانكاي تشيك يرمي بالشيوعيين في محارق القطارات البخارية. كان بميسور الصينيين أن يصبروا مثل البلاشفة ثم يثأرون لإخفاق الثورة الروسية عام 1905 عن رد الكرة المظفرة المزدوجة عام 1917، وعوض أن يعيد الصينيون الثورة على الطريقة الروسية، يختارون نهجا جديدا ليس موازيا ولكنه يندفع من الإتجاه المعاكس! مثل كريستوف كولومبس.

إنها ثورة صنينية محضة، تلك التي تصورت أن ذلك سيثري رؤية ماركس. لانستطيع إلا ما كانت تستطيعه الثورة كذلك للانتصار، بالإنطلاق من الأرياف وبالتالي إلى تحرير المدن.

إذا لم تعد أصالة الطريقة الصينية تشكل استكارًا ثقافيا بالنسبة للديكتاتورية الماركسية، فإن المسيرة المتعرجة للثورة الجزائرية لا يجب أن تصدم ردود أفعال الثائر المفكر.

جميع الشدائد المحتفظ بها تفيد بأن الثورة الجزائرية إصطدمت هي الأخرى بالشكليات المعتادة المتطلبة من أجل إنجاح عملية قالبة لأسس دولة قائمة.

إن الأصالة المثلى تكمن في الظروف الخاصة لاندلاع تمرد أول نوفمبر 1954، ليس من المعيب أن نعود إليه من خلال الإضاءة الشخصية لمحرض يخاطب الإطارات.

حلاّن كانا مقدمين لجماعة 22 هما :

«التنظيم بداية ثم الإنطلاق، أو الإنطلاق أولا ثم التنظيم. كنا مجبرين على اختيار الحل الثاني. هذا يعني إسماع الطلقات النارية الأولى بغرض خلق جو

نفسي مساعد على التنظيم للثورة على المستوى الوطني قررت جماعة الـ 22 أيضا ضرورة عقد إجتماع بعد ثلاثة أشهر من الإنطلاق لإجراء نقطة نظام حول الوضعية، ودراسة الصعوبات المعترضة، لأن المناضلين الأوائل لايملكون فعليا أية تجربة ولا أية كفاءة في ميدان الحرب الثورية التي لايعرفونها إلا عن طريق الكتب ... الشيء الذي لم يكن بالطبع كافيًا لم يتم عقد هذا الإجتماع بسبب بعض الأوضاع التي كانت تعيق تحركات المسؤولين فعلا بعد إندلاع أول نوفمبر، الأحداث تجبر المسؤولين على الإنتشار وأصبح بالتالي من المستحيل عليهم أن يجتمعوا لمدة طويلة لأن الشعب لم يكن منظمًا بعد لربط الإتصالات. كان هذا يحدث بسبب أن المسؤولين الذين كانوا يظنون أن الشعب لم يكن ناضجًا بعد أو معدًا للثورة، فأصبحوا بعدئذ متفاجئين بالإنخراط الجماعي للشعب في الكفاح «آه يا الزعاف» يا للحسرة القاتلة نتحرك أولاً ثم نفكر.

كيف نسيِّر ظاهرة لا نعرف بدقة طبيعتها، ولا ميزاتها ؟

نحن نعرف العلة المتولدة عن ردة فعل دماغية صرفة، وهذا الآن تمرد يندلع قبل أن يجري تنظيمه، ويبدو أن اختيار تأريخ الحدث قد جرى حسمه بلعبة اختيار أحد وجهي القطعة النقدية المدارة اعتباطًا.

لدينا القناعة بأن مشكلنا الآن مع ساحر مبتدئ يحرر طاقات سرية يفقد السيطرة عليها.

كثيرون راحوا يبيعون جلد جبهة التحرير الوطني، آخرون آخذوا يترقبون بتلذذ محموم، مثلما يترقب متفرجوا السيرك بفرح داخلي مكبوت لحظة افتراس المروض من طرف النمر المستفز المتحفز.

إن نتيجة هذا الإنهيار اللامنتهي غالطت جميع التشخيصات المؤسسة على تحاليل عقلانية أو اختيارية، يبدو من الأصوب العودة إلى الإحتمالية.

إن العقيدة الإلهية التي تقر الإعتقاد الأقل تصديقا، لا تساوي أكثر من الرجوع إلى القصة التي صنعها الأبطال وحدهم ؟ نعلم أن في النجاحات المذهلة لألف ليلة وليلة، كان سر الفوز في المهام الصعبة يكمن في امتلاك ساحر مطلسم لحلقة ذهب كانت إدارتها تكفي لتحقيق أية رغبة فورا.

إن ملحمتنا ترفع في المرة ذاتها الواقع والرائع في الدوامة الذهنية للثورة الجزائرية العبقرية، (الجنّي) الأقوى الذي يصون جبهة التحرير ويسندها في طريق

المجد، إنه الشعب الجزائري الباهر[5]. بالطبع لم يكن العالم كله مقتنعًا. يوجد حتما منظرون متأصلون، لنفي أن الثورة كانت قد تشكلت في العقول قبل أن تتحول إلى المغامرة الكبرى.

إن هذا لا يمنع من أن وطنيتنا البطل الجماعي انطلقت لجلب الحرية، والأخوة والعدالة. بتفاني بطل الأسطورة الذي يجابه المجهول المذهل في جبل الواق واق، للإتيان بروائع السحر، السيف الذي يقطع الريح الطائر الناطق بتشويق، التفاحة التي تطرد رائحتها الموت وتشفي المحتضر ...

كل شخص كل واحد يعلم الآن أننا لا يجب أن نلهو بالتمرد، لكن مادام قد اندلع فإن من الواجب المطلق على كل ثوري متعقل لا أن ينتحب أو ينوح، ولا حتى إطلاق دعوات الشر المطالبة بإنزال غضب الله على رأس المتهور الذي يلعب بالنار المجتاحة المطهرة.

لقد صار التمرد القضية الجماعية لكل المعادين للإستعمار، إذا ما تورط في مأزق فإنه لا يستطيع الخروج إلا بمعجزة أو موت سيء.

إن من الواجب المطلق على كل ثوري متفهم أن يرتمي في العراك لتوجيهه باتجاه النجاح أوالمحافظة عليه للحد من المصيبة...

لذلك كانت المهمة الأولى لجبهة التحرير الوطني - هي النشاط المتكتم القوي والشامل - كان ضمانا للمستقل بردم الفراغ السياسي العازل للطليعة العسكرية عن الطليعة السياسية للحركة الوطنية في مجموعها، الجماهير الشعبية العريضة.

ضمن هذه العقلية كانت المهمة الأكثر أسبقية، هي حشد كل الطاقة السياسية والتنظيمية لتمتين وتطوير الكفاح المسلح. بالعودة كانت المقاومة المسلحة تشكل في حد ذاتها معركة سياسية، لأن الإستقلال الوطني كان يمنح الحرب الثورية سندها الإديولوجي والسياسي، وكذا دعمها الشعبي.

الباكورة الظاهرة للعامل العسكري على العامل السياسي، لم تكن بالمرة مشكلاً مستفحلاً. بل كانت عملية مناورة مؤقتة محددة بالأحوال السياسية النفسية للواقع التاريخي للحقبة.

من أجل إجلاء الضباب النظري نجسد هذا المناخ.

بداية لا ننسى الأهمية النوعية لرمز أول نوفمبر 1954 الهجمات الأولى للعمل المسلح مع إستخدام العلم الجزائري، ضعضعت الجغرافيا السياسية للجزائر، لقد

5. نشرة داخلية رقم 4 جوان 1961 (وزارة الداخلية للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في تونس).

كنس التمرد حالة الخمول المصحوبة بجمود الأحزاب المفلسة، فقد أنضجت الإستفاقة الجماعية الشعب الجزائري يضيق ذرعًا بالحكم الإستيطاني الأجنبي، ولكن من غير جرأة المتمردين الأوائل، فإن الحالة الثورية كانت تبقى حالة ثورية عوض أن تتحول إلى ثورة.

ولا ننسى بالتالي التنامي المتصاعد للوعي الوطني المتخلص جماعيًا من الإصلاح المجفف، إنه إحساس جديد، شكل من أشكال الترتيب المؤثر المتبوء للقمة، الحب بلا شراكة لجيش التحرير «الله ينصر المجاهدين» هذا هو الإبتهال المعمم الذي يختم دوما كل واحدة من الصلوات اليومية للمؤمن.

أناشيد جديدة، بحسب صياغات متنوعة، ولكن كلها مادحة لجنود جيش التحرير الوطني، روجت من طرف الفتيان والفتيات... في كل مكان، في القربي المتواضع أو في الخيمة البائسة، في غرف القصبة، أو في صالونات الفيلات، حيث يمجد المجاهدون بواسطة الأنغام المتناسقة أوبأغاني الرعاة، الرثاء المبثوث أو لحن البطولة المتحمس.

«آفوس دهيع فوس إركسيث از ز نظ أمنهوس. «اليد في اليد»

إقلب ناقر البندقية المشؤومة»

موحدًا كالأصابع الخمس لليد، يترك الشعب الكلمة للسلاح الذي يزرع الموت لدى العدو، الشعب يشدو بمجد العلم الأخضر والأبيض والأحمر، رمز الوحدة الوطنية. يشدو بمجد الجيش الجزائري عقلة الإصبع الذي يستطيع الإنتصار على الغول الفرنسي.

اثه ثورة نبغساس فرانسا نزمراس يا ثورة (نحن عازمون) نشد أحزمتنا فرنسا نحن قادرون على غلبها»

أو ليست هاتان العيِّنتان من شعرنا الجماعي، تعبيرًا عن العقد السياسي والعسكري ؟

إن الأدب المشفوه هو حديث الواقع التاريخي، أين تكون الأسطورة أكثر حقيقة من التاريخ. بالطبع يمكننا إكتشاف هفوات في إنضاج عقيدتنا، ونستغرب حماقة وسائل عملنا.

نحن نتقبل زلة النية الطيبة يحدث كذلك أن «تشتتنا» يقفز إلى عين المتسكع الذي يجهل وقائع الوعي والنزاعات الملتبسة.

مثلا كيف يجري إفشال مصيدة سياسية بوليسية تتضمنها المناورة المخادعة لـ : «الحركة الوطنية الجزائرية» المطالبة بوقاحة بإنشاء وإحتكار جيش التحرير الوطني ؟

في تلك الفترة هناك غموض سياسي كان مروجا وسط جزء هام من الرأي العام، لم نكن نميز جيدا بين جبهة التحرير الوطني، والحركة الوطنية الجزائرية اللتين راح كلاهما يدعي بتبعية جيش التحرير الوطني.

الشعب الجزائري وحتى لا ينخدع، راح يبتعد بحذر عن التشكيلات السياسية غير المعروفة، لذلك اتجه عفويا وبشكل خاص صوب القوة الوطنية الأكثر اشتهاراً. وهي جيش التحرير الوطني.

عندئذ تجري مواجهة لاذعة لربح مشاركة الجماهير، ولكي تثبت الحركة غير النشطة ارتباطها العضوي مع المجاهدين، المقاتلين بالزي العسكري لهذا الهدف راحت الحركة تنظم زيارات إشهارية في الجبال بمظاهر اصطناعية في دوار الريش قرب البويرة وأظهرت للمناضلين المرتابين أفراداً ممثلين مسلحين ببنادق ستاتي إيطالية موفره من طرف الجيش الفرنسي.

المندوبون الباحثون القادمون من فرنسا على وجه الخصوص كان يجري استقبالهم في الجزائر من طرف المصالي الشرطي، خليفة بن عمار الذي سنجده فيما بعد على رأس الـ «F.A.D» الجبهة الجزائرية للعمل الديمقراطي التي كشفت عنها الصحافة الباريسية كونها مختبر موجه تابع لمكتب ميشيل دوبري[6].

ما العمل ؟

بحجة الصفاء الميتافيزيقي لمبدأ هل كان يجب التشبث قبل كل شيء بالإعلان الشعائري «لتتراجع الأسلحة لصالح الهيئات الرسمية» حسب التعبير اللاتيني تبعية العسكري للمدني ؟

لنعلن في وقت غير مناسب أولوية جبهة التحرير الوطني على جيش التحرير الوطني، فكان الإنحراف صوب الخطر، والتورط في الوحل، ضمن دائرة مكر الحركة الوطنية الجزائرية، جعل ذلك أنصار الجهاد يهربون بواسطة السلاح. عكس

6. في تقرير موجه إلى الكولونيل كونستاف (constanf) رئيس المكتب العسكري للحاكم سوستيل، جرى الإعلان عن خليفة بن عمار كعميل للسيد : ورويلك (wrolyk) رئيس الأمن العام، وهذا منذ 1943 جرى اعتراض هذه الوثيقة من جانب جبهة التحرير الوطني، وكان ذلك إثر تحريات قام بها موظف من وزارة الداخلية الفرنسية حول المقاومة الجبلية في الجزائر عام 1955.

ذلك اعتبرت جبهة التحرير الوطني أن نيل التعلق الموحد للشعب الجزائري بجيشه كخميرة سياسية مساعدة على الإتساع، وعلى تحالف الثورة الذي لا ينشطر، تم تنفيذ العملية المضادة للضباب على ثلاثة أزمنة.

1. الكشف في فرنسا عن الإحتيال المزدوج للحركة الوطنية، وطُلب إلى الهجرة الجزائرية أن تبعث أموال التضامن إلى القرى الأصلية خصوصًا بلاد القبائل حيث يمكن الإتصال مباشرة بجيش التحرير.

إذن فجامعوا الأموال الذين لم يكونوا يستطيعون تقديم وصل جيش التحرير هم سراق وكذابون مخربون وخونة.

كانت هذه المناورة تجلب ضيقًا مؤقتا داخل العمل السياسي للإتحادية الضعيفة لجبهة التحرير الوطني في فرنسا.

لكن الصفاء الذي سيعقب ذلك سيكون بفضل وفاء الشعب لجيش التحرير الوطني، وبسبب سلامة اليقظة في مواجهة الحركة الوطنية واستمر ذلك. إلى أن صارت أغلبيتها تسهل عمل التنظيم والتأطير، والعمل المسلح، وستجعل من جبهة التحرير الوطني السلطة التمثيلية للجزائر في الخارج.

2. تصفية المسلحين الخونة في الجبال. لقد حاصر جيش التحرير الوطني الجنود الزائفين في دوار الريش فصفاهم واسترجع البنادق الحربية التي زودتهم بها فرنسا...

لم يتوقف جيش التحرير أبدًا عن إفشال الخدع الحربية والمكائد السياسية العسكرية من كل صنف، عملية «الطائر الأزرق» قضية «الجنرال» بلونيس وكذا قضية «الكولونيل» كوبوس الجيلالي وألاعيب أخرى.

3. تتمة تدمير المحاباة الغامضة للحركة الوطنية الجزائرية.

قادة الحرب الأكثر شهرة يوقعون إعلانا عموميا مثبتين فيه بأنهم مناضلون في جبهة التحرير الوطني، ضمن جيش التحرير الوطني، ومعلنين أن المصالية عدو مجهز لخدمة العدو المستعمر.

للحقيقة العامل السياسي لم يتعرض أبدًا للإهمال، حتى عندما كان عمل جبهة التحرير الوطني غير واقعي في عيون حكام التماس للحزب الشيوعي الجزائري، المزودين بالمعلومات السيئة حول الإختلاط في وسط الملعب، بفضل العمل السياسي المدقق الواسع سيكون كل شيء واضحًا ومتكاملاً ومرتبًا من جديد.

الشعار المتداول المحدد لجبهة التحرير الوطني كان تحديدا من مهام «المتكلم الفعلي باسم جيش التحرير الوطني» استبدل نهائيًا بكلمة إجماع أساسية معلنة على أن «جبهة التحرير الوطني هي الناطق الحقيقي والمطلق باسم الشعب الجزائر.

الدقة ليست من هـذا العالم.

مع ذلك نستلزم حدًا أدنى من الإستقامة الفكرية. لأن جبهة التحرير ذات اعتماد في ميزان الحسنات.

إن حكما ذا قيمة وحتى يكون سليمًا وعادلاً، يجب أن يأخذ في الحسبان التحدي الأمثل الذي جمع في المواجهة منذ سبع سنين 500 بندقية صيد في مقابل 100000 قطعة سلاح حديثة مختلفة الأحجام والفعاليات، النتيجة أقل من واحد مقابل مائة.

الجيش الوطني الشعبي يصمد في وجه أقوى جيش عصري أُقحم في حرب استيطانية تعداده مليون رجل. السيد " فرانسو بيلوكس (Mr Francois Billoux) وزير فرنسي قديم للدفاع الوطني، عرف كيف يقدم لمنتدى : أيكس أوبروفيانس (Aix en Provence) يوم 29. 12. 1960 حوصلة جدول تشبيهي.

«جندي أو شرطي واحد لعشرة من السكان رجل مسلح لكل ثلاثة أو أربعة بالغين بهذا المجموع كان يفترض وجود أربعة ملايين ألماني لإحتلال فرنسا، وكان يفترض وجود ستة ملايين من الفرنسيين مجمعين في المحتشدات»

التشبيه ممكن في ميادين أخرى، هكذا كنا نرى عام 1940، الأسطول الجوي للعدو الهيتليري يبدو «منضبطًا» فلم يهاجم إلا الأهداف العسكرية[7]، بالمقابل كانت هجمات تدمير الأحياء العمالية على أطراف المحطات دوما من فعل مقنبلات الحلفاء غير المنضبطين ... الطيران الفرنسي العديم الوجود في وجه الطيران الألماني، يُزَمْجِرُ عاليا في الجزائر دون منافسة فوق كل ما هو متحرك على الأرض من إنسان وحيوان ... لا أسف على القرى والمداشر المقتلعة.

سنحضر في هذا الصراع غير المتكافئ إلى انتصارات غير عادية، كان الكل يعرف دورة القوة للمقاومة الشعبية في إسبانيا، في روسيا، في فرنسا، صراع الرجل ضد الدبابة.

7. بيير كلو ستيرمان « دعم ناري في وادي هـلال» إلهاب باريس 1960 ص 181

عند تحرير باريس كان هناك جزائري (F.T.P قوة إنتصار باريس) هواللّيوتنان محمد، قد تمكن من إحـراق دبابتين نازيتين.

في الجزائر ؟! إنها حـرب الجندي ضد الطائرة.

«في عـام 1957 الرقم الأول في الطيران، بيبر كلوستيرمان، يكشف أن هناك 50 طائرة تصاب في الشهر، في شهر جانفي 1958 كان هناك 85 طائرة و 116 طائرة في فيفري هذه الأعداد من الطائرات المصابة . أبقي عليها مكتومة. تعطي فكرة عن التباين الإستشباحي الذي يفصل قوة العتاد الإمبريالي عن المقاومة الوطنية. لأن الجيش الفرنسي كان دومًا يدعـم عمله بـ : وسائل عجيبة. خصوصًا الغطـاءات بالطيـران طائرة أو أكثر لملاحقة فلاقة (جندي مجاهد)»

الثورة الجزائرية قصة لعلم الخيال، جندي فرنسي لكل ثلاثة أو أربعة جزائرين بالغين، طائرة فرنسية لكل مجاهد ... وسبع سنين لحرب ضروس مع مليون ونصف من الموتى، وأكثر من مليونين من المجمعين في «المحتشدات» خلف الأسـلاك الشائكة.

وثورة بنفس متواصل، الأحسن من ذلك أيضا أن مقدراتنا العسكرية تثرى باطراد وقدرة على الإرتفاع أكثر فأكثر، العتاد الحديث الذي يلتحم بانسجام مع المهارات التقنية لدى رجال مدفعيتنا، ولدى متخصصينا، وطيارينا المقبلين الذين تم تكوينهم في الخارج.

إن جبهة التحرير الوطني بدت قادرة على أهلية إشـراك العمل مع الفكر والتوفيق بين العمل السياسي والعمل العسكري، وقيادة ثورة معقدة إلى نهاية طيبة، بالحفاظ عليها من الغفلة الرومانسية والعقم المذهبي[8].

وهذا من حكم القـدر.

«الزهـر في التشينة والمدرينة» مقولة شعبية مفادها أن الحظ يوجد في البرتقالة ذات الصرة واليوسفية، والتي تذكرنا مع الإستبانة بمقولة شعبية أخرى مبنية على اللعب بالكلمات العربية ذات المعنى المزدوج: زهـر التشينة بمعنى زهر البرتقال، وبمعنى حظ البرتقال (الأنف الذكر) أي حظ سعيد . هذا الحس الشعبي يبدو أنه يدين الحركة العفوية المخالفة للصواب، بالمقابل يتناسب مع الحقيقة العلمية العالمية :

8. النقد الحديث oc ص 10

لا حركة ثورية دون نظرية ثورية.

بالحجة القوية يبدو هذا جليا عندما يتعلق الأمر بثورة ذات هيئة بهلوانية جبلية في البداية، ولكنها تنتهي بالفوز الذي لا يتصوره العقل.

صلف أو ثمالة مجد؟ نحن بعيدون عن مثل هذا التشوه المسكين، يمكن أن يكون مغفورًا عندنا وقد نراه مشروعًا، لكن الحكمة الشعبية الصارمة المبتلعة مع حليب الأمومة، تحفظنا، إنها تخضعنا للإحتشام والبساطة وأن نكبر بصوت خافت. مقولة شعبية أخرى «ما يحس بالكبر غير الزوبية» مفادها: أن لا شيء يفتخر بالضخامة والإستعلاء إلاّ المزبلة.

الخلاصة نتركها عمدًا لأجنبي، يبلغ رأيه بقوة الأمور المحكوم بشأنها، حتى وإن كانت تبدو للببغاء المهاجر كإنصاف إداري مفرط لجبهة التحرير الوطني.

«إن التمرد الجزائري هو الحركة الثورية حقا للقارة الأفريقية، جيش جبهة التحرير الوطني وتأطيره بشكلان آلة ليس لها مثيل في أفريقيا... الجزائر المتحصلة على استقلالها انطلاقًا من الصفر... بعد الكفاح الذي لا يكاد يصدق، والذي لم تتجاوزه إلاّ ملحمة المسيرة الطويلة الصينية وحدها. كحزب تاريخي وكمؤسسة تمردية».

الفصـل الثامن

الأقلية الأوروبية

لقد كرّس أبو العلاء حياته في دعوة الجنس البشري لقليل من التواضع والاعتدال. وطه حسين، في مؤلفه الحديث، يذّكرنا كيف يؤنّب الفيلسوف اللامع الكائن ذا الساقين، هذا الذي يعطي لذاته كبير أهمية، حيث يسجّل :

" إنّ النحلة لا تنتج العسل من أجل الإنسان، بل لا تفكّر أصلاً به حين تنتج هذا العسل، إلاّ أنها تنتجه لذاتها هي، طالما أنه لا مفرّ لها من عطائه "[1].

و لدينا في الجزائر (قول) مأثور، يقول : " ابن آدم خال الراس "، فما زالت تقع عليه بشاعة الخطايا السبع .. وأولها تحديداً، هو الغرور والتكبّر.

هذا ما يمكن أن يميّز سفاهة " نقيضنا الغابر " فهو يشعبذ بتاريخ ثورتنا، كما لو أن همّنا ببناء النصر كان عائقاً أمام (محاولة) حرف التاريخ و كتابته.

كـل شـيء في وقتـه

فالمجاهد، بصفاء قلبه، يثابر على جمع مؤونة ثورته (المعسالة) كي يقطّر رحيقها : الحرية. فمنذ سبع سنوات، دون انقطاع كما دون عياء، ها هو يلتفّ على تحدّيات هذا "اللسوع" المحتلّ المهتاج، و قد تناوبه "نظامان وأربعة قادة جيوش وسبع حكومات فرنسية". مع ذلك، هو ذا، مجاهدنا، لا يهتمّ - كما هو حال النحلة- بهؤلاء المشركي"صنعة الآلهة" الذين يدّعون تقرير مصير الفطريات المجهرية أو مصير محرّري البرّ الجزائري.

---

1. ذكرت في " حكم و نقد " بيروت، 1955 ، صفحة : 60

وها هي أيضاً - في طريقها إلى الاكتمال - عاصفة تطهير أرض الجزائر، كل أرض الجزائر بما فيها صحراؤها. فلقد سبق و تحمّل شعبنا المحنة - غالباً - أمام محاولات كسر (الاتحاد القومي)، والقهر الوطني. إلاّ أنّ الانتفاضة في هذه المرّة تنضج ثورةً تخرجنا إلى نور التحرر.

لم يذهب دم الشهداء الكريم سدأ . فالاستقلال والسيادة، في الداخل كما في الخارج، أصبحا موضع اعتراف على طريق الدولة الحرّة.. و لن يكونا تلك الصيغة السخيفة التي طرحها Guy Mollet و التي سعت لتجعل منّا عبيداً (طلقاء) في وطن أسير.

لقد كانت أطروحة " مجموعة الولايات الفرنسية " تمثّل خرافة الاندماج الأمبريالي المقنّع، التي تنكر بصلافة، روح الجغرافية : المادية منها والإنسانية، السياسية والتاريخية. وهي لم تعد من الآن فصاعداً سوى رمّة (جثّة متفسخة) من إخراجات " رجال قانون " المحتل المغتصب.

حــرّةً، ستكون أرض وطني.

أحراراً، سيصبح أبناؤه، دون تمييز في الأصل.

منعتقةً، ستغدو أعناقنا المتخلّصة من نير الاستعباد.

الحمــد للـه، هلليلويــا !

إنّها صرخة الحبور الداخلي، أنشودة الفرح السرّي الذي يحيا به عديد الوطنيين - على اختلاف أديانهم -. الفجر الجديد الذي سيضع حدّاً للظلم العرقي والعنصري، التمييزي و المجرم.

أليس من حقّنا أن نفخر بهذا الحدث الجزائري الذي يجمع العالم كلّه على تأكيد أهميته، كإنجاز خاصّ بذاته.. كما لقيمته الإبداعية أيضاً.

إننا نغنّي عالم / باندونغ / والعالم الجديد للشعوب المتخلّصة من جحيم الأمبريالية. بل أكثر من ذلك، ها نحن نجتاز مرحلة جديدة من اجتثاث الاستدمار.

إنها نهاية (عرق) السادة من الغرب الأوروبي.

ونهاية / الحق المقدّس / لغير المسلمين.

إننا نأتي اليوم على نهاية " سلطان سادة العبيد "، العبيد البيض، رفيق اسبارطة الحديثين. ونفضح خرافة " الرسالة الحضارية للاستدمار الفرنسي. فالديمقراطية الأمبريالية - بدورها - ظالمة كديمقراطية أثينا الارستوقراطية العتيقة. فهي تمارس اللامساواة السياسية بدجل المساواة المعنوية أو القانونية المزيفة. وهي تمنح

للفرنسيين (الجدد) هيمنة سياسية واقتصادية تتجاوز ثقلهم العددي : فكلّ مواطن أوروبي يساوي رزمة من 12 شخصاً مسلماً.

وها هي المرّة الأولى التي يصل معها للاستقلال، بلد يشتمل على سكان من أصل أوروبي، عديدين وموزّعين جغرافياً فيه، مسترجعاً - هكذا - الحقيقة الحسابية. حيث لم يعد المواطن المسيحي يعادل مائة (مواطن) غير مسيحي، إنما يصبح الجزائري يعدّ جزائريا واحداً، مهما كان أصله ودينه ولغة أمومته.

إنها المرة الأولى حقّاً، التي تعطي فيها مستعمرة "بها سكان أوروبيون" - حينما تتحرر من السيطرة الأجنبية - السيادة السياسية للأغلبية من السكان الأصليين.

فالديمقراطية الصحيحة . هنا . تعود لتصبح ديمقراطية سيادة الأغلبية من الشعب.

إنّ المتشوقين للامساواة بين الناس يعتبرون أنّ العالم أصبح مقلوباً. وأنّه لتنازل مخجل، السماح بحكم سكان أوروبيين من قبل رجال دولة لم تلامسهم "الحضارة المسيحية" - بعد - بجناح حمايتها. لقد كان من السهل حتى الآن، استعادة المستوطنين، المهيمنين على عديد السود أو الصفر إلى بلادهم. لكن هل كان ممكناً تصوّر كندا مستقلّة يحكمها رجال" الأسكيمو" أو أصحاب الجلود الحمراء ؟ بل هناك، ما هو أقرب لنا في الزمان والمكان، إنّها جنوب إفريقيا .. حيث، هل يمكن افتراض ترك حكومة بريتوريا بين أيدي غير البيض من / بانتو، و زولو/ وهنود؟

من منظورنا، فإنّ الأمر طبيعي تماماً. بل و يتطابق جيداً - وأيضاً- مع إنسانية الإسلام. إنه افتتاح عهد جديد في المجتمع العتيق. لقد كانت المرة الأولى. وكانت ثورة في ذلك العهد، حين أمر القرآن الدولة وكل مؤمن "بتحرير الأعناق". لقد كان واجباً أبدياً (لم يوجد لا في اليهودية ولا في المسيحية) تحرير العبيد وسجناء الحرب لدى العدو : سواء كانوا من السكان أو من المقاتلين، مسلمين وغير مسلمين.

وليس هناك عنصرية ولا استعلاء من الأبيض على الزنجي الأثيوبي. إنّه سرّ الانتشار العفوي لديانة أخوية حقّاً.

" ولقد سمحت المساواة بين الحرّ المعتق و بين الحرّ (بالولادة) داخل الإسلام، بسلالات من الملوك المعتقين حديثاً من العبودية، مثل مماليك مصر و (غلمان) الهند"[2]

لقد كان التعايش السلمي بين الأفراد واقعاً حقيقياً. و لم يكن الخليفة / عمر /

2 ـ القرآن، إشارة للآية 15 ، من السورة 90 .

ليتردد في استقبال المسيحيين المشتكين، في جامع الكعبة، حتى حين كان - حسبما يقال - يؤدّي خطبته ووعظته أثناء شعائر يوم / الجمعة /.

هل هذا من التاريخ القديم ؟

كلاّ ! إنما نقصد هنا - فقط - المساعدة على فهم التاريخ المأساوي الراهن. وتاريخ الغد الأخوي المسالم. إنهم لا يعرفون الجزائريين. ولا يعرفون أيضاً حقيقة مشاعرنا. لقد اكتفوا باحتقارنا و باستغلالنا. كما يكتفون منذ سبع سنوات بالاستخفاف بنا وبتدميرنا، حينما أدرك الاحتلال أنّه لم يعد من الممكن الاستمرار في استغلالنا أطول من ذلك.

ولقد كان أن سجّل مؤرّخ إنكليزي هذا الجشع الفظ : " إنّ فيليب (الجميل) كان سيعفو عن حياة (سكان المعبد) فيما لو تمكّن من الاستحواذ على ممتلكاتهم، دون الحاجة لقتلهم. لكنّه ما كان ليستطيع الحصول على العسل دون حرق النحل "[3].

ملك فرنسا هذا، كان يعتبر ذاته " حارساً لصفاء الإيمان "، حينما كان يجبر اليهود على حمل شرائح لحم فخذ العجل، والنجمة الصفراء، قبل طردهم وحجز أملاكهم.

بالتأكيد، لم يكن مطروحاً أبداً الزواج مع يهودي أو يهودية. فهو جريمة ضد الطبيعة، شبيهة بمعاشرة شاذة ومرضية مع حيوان.

لكن، في الوقت الذي لم تكن فيه فرنسا القرون الوسطى متحررة بعد، من شذوذ الضمير الجمعي، فإنّ شمال أفريقيا كان، حول هذه النقطة أيضاً، متحرراً من هذه العصبوية المسيحية.

لقد كان الإسلام أكثر ليبرالية. ففي سورة " المائدة " يوصف الزواج المختلط. بروعة أغنية زفاف، متقدماً بذلك على القرن العشرين .

(السورة الخامسة، الآية الخامسة) : " اليوم أحلّ لكم الطيّب، و طعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم، و طعامكم حلّ لهم، والمحصّنات من المؤمنات والمحصّنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، إذا أتيتموهن أجورهن، محصّنين غير مسافحين ولا متّخذي أخدان.. "

نعم.. فليس تصحّ عندنا محاولة إخراج هكذا مفارقة من طبيعة الحاجز العرقي-الديني. فمنذ 14 قرناً، سمح للمسلم أيّاً كانت رايته ولون بشرته، من أن

3 - ذكره Marcel Lobet " التاريخ الغريب والمأساوي لسكان المعبد "منشورات سوليدي، لياج 1944. ص 231.

يتزوج شرعاً وقانوناً بيهودية أو مسيحية. وللزوجة هذه حق الاحتفاظ بدينها وممارسته بكل حرية. بل إن (للرومية) هذه، حقّ تناول الخمرة !

وبالأمس كما اليوم، فإنّ هكذا وضعاً زواجياً، لا يشكّل إطلاقاً تراجعاً أو تخلّفاً، قياساً بالوضعية الشرعية للمرأة في عديد البلدان الأوروبية. بل على العكس من ذلك، إنما يؤدّي (هذا الزواج المختلط) إلى الترقية الأوتوماتية، ورفع المرأة إلى ما هو أسمى من التشريع الفرنسي الراهن. فبزواجها من مسلم، تتحصّل الفرنسية - حتى هذا اليوم - على شخصية قانونية كاملة، مع حق التصرف - بكامل السيادة - بممتلكاتها، دون وصاية من زوجها.

ودون الانزلاق إلى "إغراء التغزّل" بالجاذبية القائمة بين المسلمين و غير المسلمين، يمكن لنا أن نتصور روعة الترصيع الاثني الذي سيضيفها إلى رونق ودقّة أصالة الأمّة الجزائرية.

لكنّه بقي حلماً غير قابل لأن يتحقق في ظل نظام استدماري عنصري وغير إنساني. فمن المؤكّد أن قانون نابليون - في الجزائر (الفرنسية) لم يكن يوصي بالتمييز العنصري اليانكي أو الأفريقاني، أو التفرقة المذهبية الصهيونية. لكن قانون (الأهالي) - في واقع الحال - القائم على عدم المساواة السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية والأثنية، بصيغته المتوحّشة أو المنافقة، إنّما يؤدّي إلى الحواجزية العرقية ذاتها.

وحتّى حينما يتم تجاوز هذه العقبات، فإنّ الزواج المختلط سوف يتعثّر أمام الغريزة الحيوانية الجماعية لأخلاقيات الأقلية ذات الامتيازات.

الويل لتلك الجزائرية من أصل أوروبي، أو من عقيدة يهودية، إذا ما تجرّأت على الزواج من جزائري مستعمَر .. ! حتى و لو تعلق الأمر بطبيب أو موظّف أو برجوازي. فهكذا زواج إنما هو زواج غير متكافئ و غير مقبول. "فالعربي هو العربي، حتى و لو كان القائد بن داوود" ! أمّا إذا صمدت الرابطة الزوجية، فإنّ الزوجة المتمردة على عقلية (الأقدام السوداء) ستعرف المقاطعة من أبناء دينها ووسطها وحارتها.

والجزائري المستعمَر سيشعر ببعض الحرية حين يجتاز عرض المتوسط إلى الضفة الأخرى. لكنّ الكره والتخوّف النتن تجاه العرب، قد أصاب فرنسا (بعدواه)، مع الأسف.

أناس جريئون " مناهضون للعنصرية " يعلنون بمناسبة تحقيق صحفي متلفز، أنهم بدورهم لا يقبلون " تقديم ابنتهم للزواج من أسود ". ورجل جريء آخر من باريس يؤكّد أمام المحكمة - دون الإساءة لأحد - رفضه " استقبال أطفال الراكون* في داره " .. أي أحفاده بالذات !

و في تحقيق آخر حول " منطقتي الغيتو "، حيث يعيش الجزائريون في باريس حياة شبيهة بحياة اليهود في فرصوفيا، فترة النازية، كان لنا أن نقرأ اعتراف أحد المنفيين :

" لقد كان لنا سابقاً بعض الأمل مع النساء (الفرنسيات). لكن لم يعد الأمر كذلك الآن. فقد

اجتاحهنّ الخوف أيضاً. والمرأة الفرنسية التي تعيش مع جزائري، إنما تعاني بدورها من هذا الوضع. ليس لنا من رجاء أن تحبّنا يوماً امرأة فرنسية"[4].

لقد كان بمستطاع Marguerite Duras أن تزيّن تحقيقها الصحافي، الأمين والفظّ، بإيقاع موسيقي فصيح الحنين، مع تلك اللازمة الغنائية الحائرة فوق أكواخ باريس والبيوت القصديرية لضواحيها .

" أكرهك يا عاشقي المخيّب : أو شميت،

يا من تجري وراء الأوروبية: تاروميت،

مهملاً ذات الخلخال أو (الرديف).. "

ها هي حلقات الفضّة و الذهب، بأشكال المغزل العريض أو الحلزون الرقيق، تزيّن سيقان تلك العربيات، على شاكلة بنات هضبة القدس، و هنّ " يرنّن " حليهنّ في مشية" وئيدة الخطى " / العهد القديم، إصحاح 3، 16/.

وبالتوازي، ها هي الصحافة الباريسية تكتشف العنصرية في الصهيونية المعادية للعرب . فدولة "اسرائيل " تخطف طفلاً من أمّه اليهودية، وتسلمه إلى مؤسسة التكفّل الاجتماعي، واضعة أباه في السجن، / كمجرم /. رغم أنّ أيّاً من الزوجين لا يريد أن يتنكّر لإيمانه الخاص. هكذا يكون التعصّب سيّداً في دولة حديثة.. !

" فالزيجات المختلطة مستحيلة في اسرائيل. والأطفال المولودون من أب يهودي و أمّ مسيحية (ترفض التحوّل إلى العقيدة اليهودية) ليسوا بيهود بل وليسوا بشرعيين حتى.، حسب قانون الحاخامات "[5].

---

* الراكون هو الفأر الصغير، ويقصد به هنا الرجل الأسود، زوج المرأة الفرنسية.
4. France Observateur ، باريس، 1961 - 11 - 9 .
5 . المصدر أعلاه.

هل هو مجرّد صدفة أو أنّه أمر لا مهرب منه، حين تعثر في العدد ذاته للأسبوعية الباريسية، على محضرين لهذا الاضطهاد المزدوج والمؤلم : في باريس وفي تل أبيب على حدّ سواء، (الكوبيدون ذاته*) الذي لا يعترف بالتمييز في شؤون الحب والزواج.

لقد غزا الموات (أو الغنغرينا) الفاشي الشعب الفرنسي - مخاتلة -. ففي الوقت ذاته الذي نشهد فيه الإعدامات البوليسية الميدانية، نشهد كيف أنّ باريس التي لم تعد تقتلع بلاط أرصفتها، تتكشّف عن جرح معيب فوق جسدها.

كـان لا بـد من سبع سنـوات.. !

و كان لابد من صرخة عار متأخرة من (الفرع الفرنسي للأممية العمالية = S.F.I.O.) ومن صحيفة (Populaire) كي يشعر **François Mauriac في الفيغارو الأدبي بالإرهاق و الثمالة من هكذا ممارسات مرعبة.

" لقد أصبحت عناصر الشرطة مقاتلة - دون رحمة - في معركة منافقة، حيث أنّ الأمر يتعلّق بحرب عنصرية "

كم هي من ملاحظة حزينـة .. !

لكننا من جهتنا، نرفض الخلط الذي يزاوج بين اللبس و الشفقة المنافقة. " ففي 16 نوفمبر، في النشرة المسائية لـلأخبار المتلفزة، ها هو Jacques Sallebert يعلمنا أن 12 طياراً إيطالياً تعرّضوا للقتل في الكونغو، وألقي بهم في النهر. قبل أن يعلن في حركة لافتة السخط،أنّ " أمام هؤلاء الكونغوليين طريقاً طويلاً قبل أن يصبحوا حضاريين. بالتأكيد.. بل كم الأمر مسلّ أيضاً أن نسمعه يقول ذلك في اللحظة ذاتها التي تنتشل من نهر الـ Seine، بضعة / 60 / جثّة، سحقت بعنف وبرودة "[6].

***

"ضربنـي.. و بكـى

سبقنـي.. واشتكى.."

إنّ هذا المثل العربي، لشدّ ما ينطبق على مرتزقة رأس المال الكبير : من صحافيين و مذيعين أو فلاسفة. كما يبرز مكيافيلية الدول الأمبريالية. فباسم الحنو الإنساني، يمدّ الاخطبوط المتطفّل مجسّاته المفترسة على ضحاياه.

---

* كوبيدون : إله العشق الروماني. (المترجم).

** كاتب فرنسي معاصر.

6. Le Canard Enchainé / لو كانار أنشينيه /1961 - 11 - 22.

و أخيراً فإنّ "الأخلاقيات" الدولية لم تعد موضع عيب.

فحماية الأقليات الأثنية والنضال ضد الإجراءات العنصرية والتمييزية أصبحت موجودة في اتفاقيات الأمم المتحدة : (كالإعلان العالمي لحقوق الإنسان - اتفاقية ردع جريمة الإبادة.. الخ). والمبادئ الأساسية، هذه، إنما وجدت بدورها أصلاً في ضمانات " عصبة الأمم ". لكن الحماية الدولية للأقليات الوطنية المضطهدة، بقيت في إطار أخلاقي و غير عالمي. كما كان فعلها في اتجاه واحد، طالما توجّب عدم إهانة كبرياء و مصالح الدول الأمبريالية العظمى.

لقد كانت مبادئ الرئيس نيلسون - غداة الحرب العالمية الأولى - مقبولة للدول الأوروبية غير المسلمة فقط. و لقد سمح بأنظمة خاصّة أو استقلال ذاتي للأقليات الألمانية و البلقانية. في حين نلاحظ غياب أية مادّة محددة تتبصر ارتقاء المناطق المحتلة و الموضوعة تحت الانتداب أو الوصاية (مثل سورية - لبنان - الكميرون - طوغو.. الخ). و حصولها على الاستقلال الذاتي أو الاستقلال التام.

في عام 1935، و بالتواطؤ مع فرنسا و بريطانيا، فقد انتدبت الفاشية الإيطالية نفسها " حامية " للإسلام، كي تعاود احتلال الحبشة المسيحية والبلاد الواقعة تحت حكم ملوكها.

في الوقت ذاته، قامت فرنسا العلمانية و المناهضة للاكليروس (رجال الدين المسيحي) بتحويل " حماية الأقليّات المسيحية " إلى أداة في فضائها الحيوي المعادي للإسلام.

فمن أجل " تمدين " المغاربة أصرّت فرنسا على رفض تطبيق ميثاق الأمم المتحدة. كما أنّ رغبتها في صنع سعادة الجزائريين كانت " فيّاضة " إلى درجة إدماج الجنسية العربية الإسلامية - عنوة - في الأربعين مليوناً من سكان الجمهورية الفرنسية " غير القابلة للانقسام "، ولإخراج الأمّة الجزائرية من أفريقيا و من الإنسانية.

إنّ الحكومة الفرنسية - يمينية كانت أم يسارية - تضع نفسها في موقع المؤتمن على الحق المقدّس للضمير الإنساني. فهي الخبيرة في فنّ تأليب الرأي العام الدولي، إذا ما حدث تجاهل (حقوق الإنسان) - حتى و لو كانت الحالة معزولة - وعلى أية بقعة من الكرة الأرضية، لا يرفرف فوقها علم ملاك الإحسان، العلم الفرنسي.

سوف يغدو التذكير بالمآسي العنصرية التي ضربت زيرالدة (النازية !)، أشبه بخصام ألماني.. ففي 1941، تحت النظام الاستدماري لـ / Petin /، تمّ إيقاف

29 جزائرياً لم يحترموا قرار البلدية الذي يمنع دخول الشاطئ (على الأهالي والكلاب) (هكذا) !.. و تمّ وضعهم في سجن ضيّق و بدون نافذة حتى اختنقوا. وبعد 15 عاماً من ذلك، و في زيرالدة بالذات، داخل معسكر / استراحة فرقة الأجانب / الشهير، فقد استبدل التميز العنصري بالمطاردة "الحضارية" حيث تمّ تقديم بعض الشباب الجزائري (كفرائس) بشرية لأنياب الكلاب البوليسية المدرّبة من قبل آكلي لحوم البشر، مدمني المذابح.

ربما كان من نقص التهذيب، التذكير بالمقابر الجماعية لمعسكرات الجيش الفرنسي السوداء في عام 1956، أو تلك في أفران الكلس لعام Heliopolis/1945/.

ربما كان أيضاً افتقاراً للياقة، التذكير بالاعتداءات على شرف النساء. وبالعذابات الأليمة الدنيئة التي عانت منها كل / جميلة* /، في الوقت الذي كانت هيئة صيانة الحقوق و الحريات الفردية / العاجزة / تغطّي عملياً ممارسات التعذيب، هذه الجريمة الرسمية.

كيف يمكن الشك بإنسانية الحضارة الاستدمارية، حينما يسرف ملاك الإحسان بكرمه الفائض حباً إلى حدّ تخفيف معاناة الحيوانات المفتقدة للعقل ؟ فهل يستطيع تقبّل الدرس من أي كان، هذا البلد الأوروبي الذي أدخل في (القانون الداخلي) قانون Grammont الشهير والشبيه "بميثاق" حقوق الحيوان ؟

كيف يمكن التجرؤ على التذكير (بالميثاق العالمي لحقوق الإنسان) بخصوص الجزائريين، هؤلاء الأناس الخسيسين الذين يحسنون الكلام ويفتقرون إلى الروح، في الوقت الذي تضبط فيه الإنسانية الأوفر نبلاً، أصول مصارعة الثيران و صراع الديكة، أو تقلق للآلام الصامتة للخنازير الهندية (الكوباي) على مشرط التجارب السادية لهؤلاء الباحثين من ذوي البلوزات البيضاء..؟

من حسن الحظ، فإنّ عقلية الاستدمار تعرف - في ميدان الحضارة - كيف تمجّد الجاذبية الفرنسية لعالم أفضل. وفرنسا هي أيضاً في طليعة بلدان الحضارة (الحادّة)، خاصّة مع رهافتها الفريدة تجاه ذلك الدنماركي المرتعش، أو ابن بكّين الأنيق " الذي لا يقبل قضاء قيلولته إلاّ ببزّة نومه النيلونية".

وفي مدينة الجزائر، فإنّ سباقات / السلوقي / في ميدان السبق في حيدره، تجذب أنصاراً كثيرين، كما هو الحال مع عشّاق رهان الخيل في الخروبة. مع فارق، أنّ أصدقاء السلوقيين هم فقط من الارستوقراطيين الأوروبين.

---

* يقصد هنا كل من هي شبيهة بالمناضلة جميلة بوحيرد.

لقد تجسّدت الرحمة الاستدمارية تجاه الحيوان بمشاريع لصالح النوع الحيواني. فبفضل (جمعية حماية الحيوانات) التي تنشّطها بإخلاص تقليدي تلك الفتيات المسنّات الكارهات حياة المجتمع، مع غجري سلافي مؤيد (للجزائر الفرنسية) ومدافع عن اللصوص ووسطاء الفحشاء و المتطرفين، فقد أقيمت عيادات للحيوانات و حيدة الرأس، في أسواق " الجمعة" في Maison carrée وأسواق "الإثنين" في بوفاريك. وما تجدر ملاحظته على الخصوص، هو احتفال تدشينها الذي اتخذ صفة عالمية، بفضل بريق الاحتفالات الرسمية التي ترأستها / Lady / عجوز حضرت خصيصاً من لندن. كم هي رائعة - فرصة إحياء الأخوّة بين الإنسان المتحضّر و بين أخوته السفليين.. دون إغفال الإعلان عبر الصحافة و الصورة و السينما والمذياع، عن ضرورة الحفاظ على السيطرة الاستدمارية - الممدّنة، لتعليم هؤلاء الفلاحين " الفظين العصيين على التشذيب " كيف يسوقون - بشكل صحيح - حماراً عنيداً أو أتاناً جموحاً، أو نقل "زوج "من الدجاج وفق الوصفات العلمية المريحة حسب القانون الفرنسي.

صمتاً للمراقب - غير الرحيم - الذي ما زال متعلّقاً بخرافة المتوحش الطيب، حين يدّعي تعارض الأولوية الأخلاقية للإنسانية البدائية مع لوحة عشق البهيمية الصافية من كل جفاف قلب.

هـذه هـي الفلسفـة العمياء (لقاتل العرب).

"اللسان يلحلح والقلب يدبح" !. ألا يقدّم هذا المثل تعريفاً مناسباً لهذه الحضارة الشاذة، التي تداوي القطط الضالة وتعذّب النقاوة الفتية للجزائريات العذراوات ؟

نحن لا نخلط بين الاستدمار وبين الفرنسيين، كحال المدعي العام الذي خلط بين الألمان و النازيين في قضية (أيشمان)، حين أعلن أنّه :

" ما كان يمكن أبداً لهتلر أن يصل إلى السلطة، وأن يستمر فيها و يجرّ معه الشعب الألماني، لو لم يكن هذا الشعب مهيأً للمغامرة "[7].

لكنّنا نفضح المستدمرين الفرنسيين، من أمثال Soustelle : المثقف ذي الضمير المطاطي. أو مثل Chalaouchi ذاك المشعوذ برأفة كروكوديل، والذي

7. Le Figaro ،18 - 4 - 1961

" بالتأكيد / تكتب الفيغارو في عدد 1961 - 4 - 18 -/ فإنّهم خارج التنكيل، لكنّهم يدفعون دفعاً للشعور بأنهم في أسفل الهرم اليهودي ".

يندب مستقبل اليهود الذين يطالبون - باعتزاز - بمواطنيتهم الجزائرية في وطن مستقل. لكنّه يبقى صامتاً أمام شكاوى اليهود الشرقيين من ضحايا التمييز (العنصري) الذي يعيث في "إسرائيل"، حيث يهيمن اليهود الأوروبيون الذين "تناسوا" العنصرية الفاشية.

المنشّط السابق للمجموعة البرلمانية (فرنسا-إسرائيل)، يفضح - متأخراً - منع و مصادرة الصحف العنصرية و الاعتقالات الكيفية في المعسكرات، فهو يكتشف فجأة التعذيب.. فالتعذيب لا يبدأ في نظر الحرباء الديمقراطي - الفاشي، إلاّ عندما يهدّد (ذويه) الذين كانوا يستفيدون - حتى حينه - من غياب العقاب : كمفجّري المحلات و العيادات الطبية التي تعود إلى اليهود الخواص، وسفّاحي الأطباء والجراحين و رجال السياسة من العقيدة اليهودية. Soustelle لا يريد أن يعرقل أحد أو يزعج أصدقاءه من مفجّري /الأساقفة/ ومطران أبرشية الجزائر العاصمة (رجال الدين المسيحي). فلقد حافظ الوزير السابق على صمته المتواطئ حين كانت الضحايا هي الصحف المناهضة للفاشية والمسلمون المحتجزون. وكحاكم عام أو وزير في الجمهورية الرابعة ثم الخامسة : ألم يؤيد التعذيب، والإعدامات الميدانية، و مصادرة الصحف، وإجراءات (الحلّ) داخل فرنسا لكل من الاتحاد العام للطلبة المسلمين والجمعية العامة للعمال الجزائريين والجمعية العامة للتجار الجزائريين..؟

هذا البرلماني السابق الذي يدعي بطولة احترام المبادئ و الدستور والأخلاق، والجزائر الفرنسية، وعدم ملاحقة العسكريين الفاشيين.. لماذا لم يحتجّ ضد عدم المصادقة على "المعاهدة الأوروبية لحقوق الإنسان" الموقّعة في 4 نوفمبر 1950، أي أربع سنوات قبل اندلاع الثورة الجزائرية ؟

لقد شرع برلمانيون بحوار عام، في 1960-12-2، كي يلزموا الحكومة بإيداع مشروع قانون لهذا الهدف. و قد وعدت الحكومة بإخطار البرلمان في وقت قريب..

و ها هي صحيفة (Le Monde) تذكّر ، بعد عام، في عددها 1961-12-16- كيف أنّ هذه المعاهدة ما زالت تنتظر التصديق منذ 11 عاما !

و السيد Terrenoire الوزير المنتدب، يجيب في غياب السيد Couve de Munville بأنّ "صعوبة هامة ستبقى قائمة طالما أنّه على فرنسا أن تواجه وضعاً استثنائياً في الجزائر".

أخيراً ها هو اعتراف رسمي من على منصّة قصر بوربون (البرلمان). كيف يمكن للحكومة الفرنسية أن ترفع صوتها ضد "امتهان الإنسان" عندما تتلقى من

استراسبورغ بالذات، الوثيقة الثقيلة الآتية، التي وجهتها أمانة (مجلس أوروبا) إلى مندوب المعتقلين الجزائريين (القسم الخاص في سجن Fresnes)، بمناسبة الإضراب العام عن الطعام :

964 19 H

ستراسبورغ : 9/ 11/ 1961

حضرة السيد،

ردّاً على رسالتكم تاريخ *2/11/1961*، يشرّفني أن أخبركم بأنّ الهيئة الأوروبية لحقوق الإنسان، ليس من اختصاصها التكفّل بحالتكم.

ولكي تستطيع هذه الهيئة دراسة الالتماس الوارد من شخص أو منظمة غير حكومية أو من مجموعة خواص، يتوجّب أن تكون الدولة التي يعنيها الالتماس:

آ . قد صادقت على (معاهدة حماية حقوق الإنسان و الحريات الأساسيّة).

ب . قد أعلنت، علاوة على ذلك، موافقتها على أهلية هذه الهيئة فيما يخص الدعاوى الفردية (المادة 25 من المعاهدة). وهي موافقة تكتسي صفة خيارية صرفة.

هذا في الوقت التي لا تستجيب فيه فرنسا – الدولة التي تعنيها شكواكم – إلى أي من هذه الشروط، والتي إذا ما تحقّقت من جانبها، فإنّني لن أتردد بإخطاركم.

تفضلوا بقبول... الخ

التوقيع : *A.B.Mc Nulty*

أمين اللجنة الأوروبية لحقوق الإنسان.

لكن، كيف يمكن الحديث عن احترام حقوق الإنسان – دون افتقاد ماء الوجه – حين يكون التعذيب نظاماً (مشرّفاً) في باريس وفي مركز Vincennes، ومحافظات الشرطة و أقبية (الحركى) ؟

أو حين تقبل أرض فرنسا " الرقيقة و الكريمة " في واقع الحال، حملات القمع الوحشي، و الاعدامات دون محاكمة، و الشنق و الغرق لهؤلاء الشمال أفريقيين، المذنبين "بجرم التنزّه أو التتوج غير المشروع برأس أسمر" .. في باريس التي تنتفخ كبرياء.. !

إنّ فرنسا الديمقراطية، مهد كرامة الإنسان، إنما هي مشينة بالاستدمار، قبر حقوق الإنسان.. !

و الجزائريون - كحال الكونغوليين - أمام طريق طويل قبل أن يصبحوا أناساً متمدّنين..

بالتأكيد، عندما نقدّر الخساسة التي لا سفالة دونها لمحاكم التفتيش الاستدمارية التي تنكّل بنا منذ 130 عاماً، أليس من المعذور أو المسموح به لكل ضحية لهذا الاستدمار من أن " يأكل لحماً ويشرب دماً " من ذلك المتذنّب* الاستئصالي.

إنّـه لأمر قميء، دون أدنى شك..

كلّنا يعلم أنّ الإنسان - بفطرته - يردّ بانفعال شديد حين تهان كرامته ويبحث عن الانتقام لها. فمن السهل إذن، تصوّر لماذا لم تغزو الشعب الجزائري - الذي يهان ويمتهن ويعذّب ويقتل - حمّى الالتهام الجماعي للبشر ؟

بدايـة، لأنّ الشعب الجزائري، في كتلته، يمتلك وطنية صافية و(دماً بارداً) ينبع من حتمية الانتصار لقضيته.

ومن ثمّ، لأنّ السلطة الثورية لجبهة التحرير الوطني، تئد في المهد رواسب الغريزة لدى بعض الأفراد من ذوي النزوع للردّ على السوء، بسوء أبشع.

ها هـي الوقائع التي تكشفها الحقيقة العارية.

المراسل الظرفي لصحيفة / Kommunist / لا يهتمّ بذلك أبداً. فهو لا يتساءل كيف أنّ الجزائريين الأكثر تعاسة و جوعاً و اضطهاداً و سحقاً و عذاباً و ذبحاً وتشويهاً، يستطيعون مواصلة حرب ثورية ضد الاستدمار، طيلة سبع سنوات، دون أن تنزلق إلى حرب عنصرية معادية للأجانب. بل يرمي على جبهة التحرير الوطني (توصية) كأنها من أسفار الحكمة.

" يجب عدم إهمال العمل السياسي داخل الأقلية الأوروبية. يجب انتزاع هذه الأقلية من التأثير السيء للمستعمرين. كما يتوجّب عدم الاكتفاء بالتصريحات المبدئية العامة. "

و ماذا بعد ؟

هو ذا أمين الحزب الشيوعي الجزائري / لا ينبح للقمر / . لكنّه - و لطالما يلزم جبهة التحرير الوطني "بألاّ تكتفي بالتصريحات المبدئية العامة" - هل يقدّم نموذج خطّة ملموسة لهذا "العمل السياسي" شارحاً ما يجب الشروع به - على الصعيد النظري و التطبيقي - لانتزاع هذه الأقلية الأوروبية من براثن المتطرفين ؟

* حالة نفسية ذهانية يرى المصاب بها نفسه، ذئباً (المترجم).

من السهل على المرء أن يلعب الشطارة بعيداً عن بلده. لكنّه داخل وطنه، قد يواجه من هو أشطر منه، ذاك الذي يجد نفسه في ظرف ارتجال موقع (الشيخ المدبّر) بطريرك القبيلة، الحكيم، المشير السياسي، الذي يوحي بالاتجاه الواجب اتباعه فوق أرض لا طريق واضح عليها، و لا مرتسم فيها.

إذن ماذا علينا أن نفعل ؟ فنصّ مجلّة الحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي لاتتحدث لنا عن شيء.

لتتدبّر جبهة التحرير الوطني أمرها.. !

علينا أن نكتفي بإرشاد غير مباشر، صورة نموذجية للنقل، عن مسودة :

"ليس للأقلية الأوروبية ما تخشاه من الجزائر المستقلة التي ستمنح كامل المساواة في الحقوق، لكل هؤلاء الذين يقبلون المواطنية الجزائرية. كما ستمنح لكل هؤلاء الذين يرغبون الاحتفاظ بمواطنيتهم الفرنسية، نفس النظام الذي سيمنح لأربعمائة ألف جزائري يعيشون في فرنسا ".

"ارفع سلعتك (من على الميزان)، فلقد تمّ وزنها.."

هكذا تحلّ المشكلة الحادّة و المعقّدة للتعايش الأخوي المستقبلي للجزائريين من أصل أوروبي وسط مواطنيهم العرب المسلمين الأكثر عدداً.. !

الشيوعيون الفرنسيون يؤكدون على " هذا العبور الهام " بعرفان مشجّع. ربما يجدون فيه البرهان عن شعور عميق " بالأممية البروليتارية ؟ ".

إننا أقل رأفة. ليس، لأننا مجرد وطنيين "برجوازيين صغار أو عصبويين"، بل لأنّ هذا الابتذال، إنما يشوه - بسخرية - عقيدة محترمة.

فقبل أن نسدّد القاضي من عملة (القرد)، فلنحاول فهم تكتيك ذاك /المعني، من استراتيجي الغرف الضيّقة / الذي يريد أن يتصرّف كخبير في فنّ انتزاع الثورة البروليتارية لدفّة السلطة في الجزائر، أو أفريقيا الجنوبية، أو أنغولا، أو كينيا..

إننا لا نمزح. بل كأننا نفهم كما لو أنّ الأهمّ في حرب تحرير وطني، ليس الدور الذي يعود إلى أعداء الأمبريالية، المناضلين العرب والبربر، أو (البانتو و الزولا) أو الأنغوليين أو مو- مو..

هكذا، حين ندعى إلى "انتزاع الأقلية الأوروبية من التأثير السيء للمستعمرين، يحق لنا أن نتساءل : أين هي الإضاءة الماركسية التي ستسمح لنا بنزع الشيلم دون اقتلاع سنابل القمح معه ؟

أولاً : من يتوجّب رميهم في كيس المستعمرين ؟ :

- المستوطنون، الكبار والمتوسطون و الصغار. المزارعون من ذوي الأيادي البيضاء (المستريحة) في شارع / ميشلي /، مساهمو الأملاك الواسعة، أو صغار البقوليين.. الخ.

- البرجوازية الاستعمارية، أصحاب البنوك، ملاك المناجم، صناعيو السفن، أرباب الصحافة.. ؟

- الجيش، الشرطة، القضاة، حراس السجون.. والأطباء والمتدربون والطلبة ؟

ثانياً : كيف يمكن تعريف الأقلية الأوروبية..؟

إنّ هذا التصنيف العام، إنما يسمح بتجنّب الحديث عن الفوارق بين الطبقات، وعن العقيدة الكولونيالية، والتعصب و العنصرية.

سنتذكّر هذا فيما بعد، كي نفهم (النظرة) " اليساروية " تجاه البرجوازية الوطنية، الحليف الطبيعي والحقيقي للطبقة العاملة الوطنية في المعركة المشتركة ضد العدو المشترك : الاستدمار الفرنسي و مساندوه الأكثر تعصّباً، أولئك البيض الصغار..

كما أنّ هذا التبسيط العامّي المبتذل، يرجع إلى أمّية عقائدية، وفقدان الذاكرة المخاتل، وهو يسعى إلى المرور بصمت على إفلاس القيادة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري.. وعلى تطاير تأثيرها الذي (يختتم) خراقتها.

لماذا البحث عن / الجذور/ التي لا تستخدم للنبتة الطبّية ؟ لماذا هدر الوقت في مَشّقِ أسباب خيانة " البروليتاريا الأوروبية "، أو في قشر النشاط المضاد للثورة لهؤلاء النقابيين (C.G.T.) السابقين الذين قفزوا نحو معسكر المتطرفين، ولهؤلاء القتلة من (ORAF) = منظمة المقاومة في الجزائر الفرنسية)، ولسفّاحي الـ (OAS = المنظمة المسلحة الخاصة) ، كحال عمال ورشات الترامواي الجزائرية - على سبيل المثال - أو عمال مرآب (Yusuf) في الجزائر العاصمة ؟

كيف أدّى استسلام ضمير الأممية البروليتارية إلى ضم "الجزائر الفرنسية" للأراضي الفرنسية. مما يذكّر بالمطالب الاثنية والجغرافية للفاشية الإيطالية التي طالبت بضمّ (Nice et Savoie) وتونس. أو المطالب الفرانكوية بضم منطقة وهران (إلى اسبانيا) ؟.

إنّ هذه الأسئلة - المقلقة بذاتها - يمكن لها أن تثير تساؤلات أخرى تمزّق الآذان، و تصيب مقتلاً لدى متعبّدي الصيغ الجامدة للينينية غطتها قشور صلدة.

حيث إذا كان لا بد من تعليل ابتعاد قراء الحزب الشيوعي الجزائري، فإنما نضع تحت الضوء المسيرة المعاكسة و الشاذة سياسياً، للعناصر المضادة للشيوعية اجتماعياً، والمضادة للماركسية عقائدياً.

هل يجب مباركة بعض الأوساط المسيحية، وبعض البرجوازيين، ومسيّري المزارع، ومثقفين؟.. ورهبان.. !

رجال و نساء و طلبة و فتيات، انتصبوا ضد تيار التمسك بالماضي الاستعماري. لقد ارتضوا مخاطر الحقد الغبي والقمع، بتعاونهم المفتوح مع اندفاعة الثورة الجزائرية، وصولاً إلى وطن متعدّد الأعراق، مستقلّ و كريم.

والبعض لا يخشى الاندهاش أمام هذه الأخوّة التي تورق حتى في جبالنا المنهوبة المهانة. فهذه (Odette Pfister) تقدّم شهادة عيانية حول منطقة / مكله = Mekla / عشية السنة السابعة لحربنا التحريرية :

" منذ بضعة أيام، على الهضبة التي تطلّ على المنشأة في Fiouane، كان الرصاص يئزّ خلال ساعات أمام مغارة التجأ إليها عدد من المتمردين. ومع ذلك فإنّ الجميع هنا يعمل، و هو يحافظ على ابتسامته. كما أن المزاج المرح للآباء البيض جد معبّر.

وبهذا الخصوص، فإننا نستغرب رؤية المدرسة ، وهي باقية خارج حزام الأسلاك الشائكة التي تحيط بالقرية. و دون أن يتمكن أي شخص من تفسير ذلك لنا "[8].

إنّ حذر هذه الصحيفة (Journal d' Alger) يبقى مفهوماً. إلاّ أنّ الجميع يعرف كيف أنّ (الآباء البيض)، مثل راهبات " سيّدة أفريقيا "، لم يرفضوا فقط مغادرة إقامتهم، بل رفضوا أيضاً عرض حماية الجيش الفرنسي لهم.

لقد مثّلت الراهبات البيض الشهادات الصامتة - لكن المزعجة - على السقوط المادي و الأخلاقي للعسكريتارية الهستيرية. ولقد استطعن في غالب الأحيان، بفعل حضورهن وسط النساء و الفتيات المحشودات على عجل، منع السرقات والاغتصابات وأفعال القمع ضد القرى التي نزح رجالها.. حيث أنّ جميع الأحياء منهم، هم في جيش التحرير الوطني..

8. " الحرفية في القبائل الكبرى " ، صحيفة الجزائر. أول نوفمبر، 1960

في كل مكان، كان (الآباء) يقومون بإسعافنا وإيوائنا و مداواتنا[9]. فلقد قطعت الكنيسة الكاثوليكية مع الماضي الاستعماري. وهي ترفض التقارب المشبوه بين الصليب و الحرب. من الممكن تصوّر، بأيّة سويداء و بأي خيال فاجر، كانت تلك الشرطة تفتش في كل دور العبادة لإجبار (الفلاّقة) الوهميين،على الخروج ؟ أو لنبش البيانات من بين أوراق كتب الصلوات.

إنّ هؤلاء المسيحيين - علمانيين أو متدينين - بتأكيدهم حسن الجوار والتعايش المشترك

المتسامح أو التحالف المناهض للاستعمار، لم يكونوا أبداً لا مبالين تجاه السمة الجوهرية

للثورة الجزائرية. و هذه الصداقة - الملتزمة قليلاً أو كثيراً - حسب الحالة، - لكنّها الوفيّة دائماً - إنما تكرّس بوضوح الإرادة الطيبة لكلا الطرفين. إنّه التضامن المستتر المحتشم، الحذر و النبيل..

ولطالما يغامر الناطق الرسمي، باسم الحزب الشيوعي الفرنسي، نهاية 1960، فيأخذ على جبهة التحرير الوطني : إهمال " العمل السياسي وسط الأقلية الأوروبية".. فلنثبت العكس.

ومن حقّنا أن نستغرب كيف لم يستلم البيروقراطي، المتحلّق حول موسكو، تقريراً سرّياً بشأن شتى المنشّطين الذين كانوا في أساس خلق أول (فيدرالية للخواص) في الجزائر عام 1956. حيث أنّه في الاجتماع التأسيسي الرسمي، الذي عقد بشكل خصوصي في أحد مكاتب (نادي التقدّم)، اعترف مناضلو الحزب الشيوعي الجزائري بمندوبي (لجنة الهدنة المدنية = Comité de la Trêve civile) ، حيث انكشف انتماء بعضهم لجبهة التحرير الوطني، بعد اعتقال أحد الفدائيين الذين تمّت مفاجأته مع المفرزة المكلّفة بالقصاص من (Achiarry) الزعيم السفّاح المتطرف.

فكيف قدّمت جبهة التحرير الوطني مساعدتها ؟ في تنقية الأجواء..

في بحر عام 1955، كان الالتباس الكبير يهيمن على الجزائر، خاصّة وسط الجماهير الأوروبية الحائرة. فالهوّة بين المجتمعين تزداد اتساعاً. والحذر يندفع بخطى كبيرة نحو الخوف و الحقد العنصري والهلع.

9. لقد قبلت راهبة أن تقوم (بساعي بريد) لرسالة أرسلت من مرسيليا ومن عاصمة أوروبية، بنسختين، موجّهة إلى Georges Meany ، رئيس نقابات الولايات المتحدة، من قبل الاتحاد العام للعمال الجزائريين الذي استطاع الالتفاف على عمليات الحجز التي تمارسها الرقابة العسكرية في الجزائر.

لقد كان شعارنا الأول : طلب الاحتكاك الشخصي المباشر مع الجزائريين من أصل أوروبي. فبعد أن توقّف بعضنا عن استقبالهم في الأعياد و الخطوبات أو حفلات الزواج والختان، ها هي تعاطفات جديدة بدأت تظهر و تنسج صداقات وفيّة تذهل أوساطنا.

فرغم عدم تفهّم جيراننا، حيث ردّ الفعل العام يتبع فساد المناخ السياسي، فلقد فتحت أبوابنا للفنانين والرسامين والممثلين، والسينمائيين والصحافيين.. وأصبحت " كسكسيات " الإلفة تتزايد بشكل متفرّد كل مساء وحتى منتصف الليل في (القصبة)، المعروفة بعدم ضيافتها (وبعدائها للفرنسيين). لقد كان الضيوف مرفقين دائماً بالمدعوين الآخرين، بينما يكون الحراس موزعين كمتسكعين أو متروبصين عائدين من المشاهد العامة، على طول المسار الذي يقود إلى محطة السيارات.

لقد كان مناضلونا يتدربون على الجمع بين الفعل (اللاشرعي) والنشاط المشروع. كالاشتراك مثلاً في خلق " أصدقاء المسرح باللغة العربية ". وهناك من تحدّث أو من سيتحدّث عن الدور الذي لعبته هذه المجموعة في تفتّح الفن الدرامي وتكوين الكوميديين الجزائريين والأخوة في الفنّ.

كم هو طبيعي لمتذوقي الفن أن يضعوا الانشغال بالفنون الجميلة قبل المصير التراجيدي للوطن المحترق.

مع ذلك، فلنتجنّب كل مبالغة، مثل تعميم الخضرة على الحشيش وخلط الخضار مع العلف. (فأصدقاء المسرح العربي) لم يكونوا جميعاً سليل الرومان أو أبناء الانحطاط، يطالبون "بالخبز وألعاب السيرك" قبل أي شيء. وأصدقاؤنا الأوروبيون، ورغم أنّهم لا ينتمون إلى إي حزب، فلقد كانت لهم هوايتهم المتقنة في السياسة وعبادة الوطن الجزائري.

وبعضهم كان من مراسلي و أصدقاء ألبير كامو.

ومواطننا الشهير هذا، الذي ينزف لمجازر السكان المدنيين ، عرض حضوره إلى الجزائر لتوجيه نداء من أجل (الهدنة المدنية) لاحترام الأطفال والنساء والشيوخ.

فهل كان ممكناً، تشكيل لجنة تنظيم خارج إطار الأحزاب تتكفّل بالإعداد للاجتماع ؟

لقد كانت مؤازرتنا – الفردية – عضوية، صريحة، دون لبس ودون ابتزاز. ولقد التقت الفكرة الكريمة لهذا الذي (سيحوز على جائزة نوبل لاحقاً) مع الشعور الذي عبّر لنا عنه الشيخ / لعربي تبسّي / الساخط أمام تلك المجازر البشعة المتكررة في تبسة وغيرها، من قبل (الفرقة الأجنبية) ، ضد النساء والأطفال.

ولقد أدّى فضح الجرائم الاستعمارية ضد النساء والأبرياء إلى حجز ومنع الأسبوعية العربية (البصائر)، ثمّ اعتقال وتعذيب و اختفاء قائد (جمعية العلماء).

إنّ التلاقي السيكولوجي لهذين الجزائريين الرفيعين، المختلفين أصلاً ولغة وثقافة و وسطاً اجتماعياً، وإيماناً ومثلاً أعلى.. كان أكثر من مجرّد رمز. لقد كان صرخة الألم و الأمل نفسها لولدين تجاه الأم ذاتها : الجزائر المعذّبة..

الصرخة الأولى : صرخة الشيخ، و هي لم تكن سوى حشرجة لا تسمع.. والصرخة الثانية هي صرخة (كامو) الذي سنساعده كي تسمع.

وكما في السابق، في وسط (العلماء) وداخل جبهة التحرير الوطني، هناك أصوات سترتفع لمواجهة الموقف "المجّاني" لصحافي / l'expresse / البارع. أو على الأقل ستسأل : لماذا "يضيّع وقتهم" مناضلون من جبهة التحرير الوطني في التشارك مع مثالية يتعذّر بلوغها ؟

لم يكن الرأي الذي تغلّب بعد حوار مثمر، ليكتسي طابع سذاجة، تشجّع الذئب على احترام النعاج و الخراف. ولم يكن في جبهة التحرير الوطني من لديه هذه (الطهارة). فبالنسبة لنا جميعاً، فإنّ الشراسة (الخلقية الولادية) للوحش الاستدماري الفرنسي لا تتأثر إلاّ بعبرة خلاص واحدة : ألا وهي كسر رأسه.. ! وهذه المهمة هي من حقوق ومن استحقاق الثوريين.

لكن، هناك آخرون.. فإلى جانب الاستعماريين الفاشيين، هناك اللامبالين والأنانيين، و الجهلة والمترددين والحياديين والمستعطفين، و" الإنسانيين" الذين لايرضون بإنسانية مفترسة.. الخ

لقد كانت حظوظ مشروع (الهدنة المدنية) واحداً بالألف..

كما أنّ جبهة التحرير الوطني سمحت لمناضليها / من العاصمة / بالانخراط فيه بسرّية تامة. وهذه المهمّة الدقيقة لم تكن عقيمة تماماً. بل إننا نرى فيها إيجابيات ملموسة وبصفة مباشرة.

أولاً : إننا نجمع جزائريين من ذوي الإرادة الحسنة، دون تمييز في العرق أو الدين، و لهدف ملائكي نبيل.. كما إننا نكسر التجزئة العنصرية عبر تقديم الدليل على أنّ الجزائريين المسلمين، رغم الحرب المناهضة للاحتلال، فهم لا يكرهون مواطنيهم من غير المسلمين.

ثانياً : إننا ننتزع الديمقراطيين الأوروبيين من بلبلتهم و جمودهم، و من عزلتهم الطوعية. فحول اسم جليل تشكّلت حركة جديدة، نزيهة، ليس لها خلفيات تحزّبية

أو انتخابية. ولقد كانت لجنة تنظيم اجتماع (كامو) ولجنة (الهدنة المدنية) التي أعقبتها، نماذج عريضة واحدة مع تفرّعات بقيت حتى الآن خارج الأذى.

ثالثاً : إنّنا نبيّن إمكانية قهر المتطرفين و الانتصار على / لا تسامحهم / الفاشي. فقبل أسبوع، عطّل اجتماع " الجبهة الجمهورية مع Henri*/ المندسي/، وهوجم رئيس الـ S.F.I.O./ الفرع الفرنسي للأممية العمالية / والخطيب (المعني). كما تمّ طرد الحضور القليل من قاعة مركز البلدية السابق للجزائر العاصمة.

و أمام النجاح الأوّلي المشجّع، و التأكّد من مجاملة السلطات و تواطؤ أجهزة الأمن. فإنّ المتطرفين أعلنوا عن " منع " ألبير كامو من إطلاق ندائه لاحترام الأطفال والنساء و الشيوخ.. فقد قاموا بطباعة بطاقات دعوة مزوّرة، كي يدخلوا قاعة الحفلات في (فندق المدينة) الجديد، ويوجّهوا ضربة سيئة إلى هذا (العادل) الذي يريد إنقاذ حياة الأبرياء. و من جهته، فإنّ والي العاصمة قد استدعى ألبير كامو، ليلحّ على خطر المتطرفين، كما لينصح بإلغاء الاجتماع الذي تتحرّج الإدارة الفرنسية من منعه.

إنّ تسجيل : منطلق الردّ الهادئ للّجنة من جهة، ووصف السياق الذي أطلقته آلية و روح المبادرة هذه، التي أدّت إلى انبثاق الاقتراحات الكفيلة بإفشال حيل وعنف المتطرفين، إنما يفضي إلى إثارة ريشة معلّم كـ Emmanuel Rablès ، أحد مناضلي (الهدنة المدنية) ..

لقد كنّا في (نادي التقدّم) عشية الاجتماع.

وقررنا في حينه تغيير المكان، باستبدال قاعة (فندق المدينة) بـ (نادي الترقّي) الأكثر سهولة للتحكّم فيه، حيث هناك : مدخل واحد بدل عديدها في فندق المدينة. وحيث أنّ الوسط صديق لنا بدل ما يشبه معقل دبابير هناك. وهو في منطقة إسلامية متعاطفة بدل منطقة (راقية) ومعادية.

واتخذت إجراءات أمن استثنائية : متطوعون سيقضون الليل في النادي كحرّاس. وآخرون يرسمون على ورق stencil دعوات موسومة بدهاء، قصد الكشف عن كل تزوير جديد، مع استبدال جميع البطاقات المطبوعة، صحيحها ومزوّرها. واعتبارها ملغاة بالكامل.

كما أنّ مفرزات الحراسة الكثيفة ستحتلّ منذ الصباح القاعة الكبرى ومختلف الملحقات من مكاتب وبهو، وقاعة صلاة، وأدراج وسياج البناء، دون إهمال المراقبة: تحت القناطر في الشوارع، وعلب ارتباط التيار الكهربائي..

---

* نسبة إلى منديس فرانس، زعيم الحزب الاشتراكي الفرنسي في حينه.

ومع حلول بعد - الزوال، فإنّ جهاز حفظ النظام الموزع في الخارج أصبح مدهشاً من حيث العدد (ألفاً)، ومن حيث الشبيبة (طلبة ورياضيون وطلاّب ملاكمة)، كذلك من حيث الانضباط و القوّة و الدماثة.

وبالقرب من المدخل، هناك مكتب استقبال ومراقبة، مشكّل من مسؤولي المجموعات، يدقّق "بأدب نموذجي" بالمدعوين، المعروف منهم و غير المعروف. حيث يسمح بالدخول لهؤلاء المسجلين على لائحة المدعوين، فيما لو تعذّر الوصول إليهم - مع البطاقة الجديدة - في اللحظة الأخيرة.

ولقد صارت القاعة شبه ممتلئة، قبل بدء الندوة بمدّة. مع حضور ذي سويّة نادرة. مجسّداً المشهد الفريد لأخوّة عرقية فردوسية. حيث نلحظ بين الشخصيات المسلمة وجود فرحات عبّاس وأحمد فرنسيس وتوفيق المدني: وهم رئيس وزراء ووزراء المستقبل في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.

ومع حلول الليل، وعبر النوافذ النصف مفتوحة، بدأت تصعد من (ساحة الحكومة) هتافات وسَوَاسيَّة " الموت لمندس فرانس.. ! ا،،لإعدام لكامو.. ! ويسقط اليهود ! "

لم نكن نستطع التمييز جيداً، من شرفة النادي، ما الذي يجري في ظليل ساحة (الحصان) هذه، التي سمّيت هكذا بالعربية بسبب وجود تمثال فروسي لجنرال- دوق أو جنرال واترلو.

أما ألبير كامو، متهرّباً من المديح والإطراء المتواصل من قبل الشخصيات والمعجبات، أراد أن يتحقّق بذاته من دقّة الاحتياطات الأمنية. فلمغادرة البهو الموجود خلف القاعة ولعبور الممر العريض، ثمّ هبوط طابقين، كان يتوجّب شقّ مسلك صعب وسط هذا الإسمنت البشري، كما تفعل السفينة حين تحطّم الجليد.

وفي الخارج، هناك جهاز لحفظ و ضبط النظام، غير مألوف، يتعزّز باستمرار مع فيلق متراصّ من 3000 حارس بارز.

وبعيداً، وراء القناطر والحاجز المحيط بالموقع، ووسط السور البشري لجمع عربي غفير وصامت يقدّر بـ 15 - 10 ألفاً، هناك (بقعة) تصرخ وتومي: إنها المظاهرة المضادة، محاصرةً سجينةً ومعزولةً في طريق دائري لا مخرج له.

لم نكن قد تهنا في ضباب من الخيال، حين أكّدنا في العشية، أننا قادرون على ردع العنصريين. لكن من كان يتصوّر أنّ لجنة (الهدنة المدنية) تستطيع - بالوقت ذاته وبسهولة - جمع الشبيبة و النخبة التقليدية معاً، وإنجاز تعبئة سرّية للدفاع المدني من جيش ضخم من العتّالين والمارّة والسكان المجهولين (لـ قصبة) دافئة ومعطاءة..؟

لقد تحوّل النادي إلى قلعة منيعة.

وألبير كامو، في هذا اليوم من 22 جانفي 1956، يكتشف الشعب الجزائري الثائر، وقد أبعده عنه إلى باريس / المنفى المذهّب / في غمرة المجد الأدبي. لكنّ أصله المتواضع و تكوينه السياسي يسهّلان عليه العودة إلى الواقع، محتفظاً (بقدميه على الأرض).

و حين يبدو كامو نبهاً – بشكل خاص – إلى قضايا التنظيم والتقنية والتكتيك، فإنما نلمس قليلاً كامو / الآخر / في شبابه قبل عشرين عاماً، يحسن تقدير الآثار النفسية والنوابض الميكانيكية لانزياح و تأطير وقيادة جماهير بهذه الكثافة. فهو ليس هنا ذاك المماحك المناهض للاستدمار، يخطّ مقالاته للصحف العربية متلبساً جلد عربي مهان، انتزعت منه كرامته. أو ذاك الشيوعي العقائدي الحاسم الذي يرفض تكتيك (الجبهة الشعبية)، كي لا يناضل ضد الفاشية، إلى جانب حزب راديكالي من لقطاء البرجوازيين الأمبرياليين.

لم نكن قد تناولنا الأمر، داخل جبهة التحرير الوطني، لكنّ ألبير كامو قدّر بحسّه أنّ قوّةً خلفيّةً، بإمكانات ضخمة، كانت وراء اللجنة المبادرة لتنظيم اللقاء. هكذا يستنتج مناجياً ذاته :

" إنّه أمر رائع.. لكنّي آمل أن يكون أصدقاؤك دون سلاح..".

مما لاشكّ فيه أنّ معنى هذه العبارة كان أوسع من مجرّد اهتمام مبدئي بتجنّب أية استثارة. لذا كان جوابنا نصف صريح أو مؤتمن :

" كن مطمئناً. فأصدقاؤنا ليسوا مسلحين.. حتى ولو كانوا جزءاً من مجموعات مسلّحة، فهم اليوم مناضلون في معركة سياسية ".

ولقد وعى ألبير كامو أنّه اليوم مدين لجبهة التحرير الوطني في الجزائر.

وهو – بالتأكيد – لم يطلب شيئاً، لا بصفة مباشرة ولا غير مباشرة.

" فمن يأمل الخير لا يشاور ". وبفضل هذه الأريحية التقليدية التي تميّز الضيافة العربية، تكون جبهة التحرير، قد ساهمت طوعياً و بكتمان و فعالية فيما حدث. حيث، علاوة على مشاركتنا " الفردية "، فإنّ جبهة التحرير الوطني قد أسهمت – بشكل سرّي و عملي – في جعل تظاهرة المتطرفين المضادة عاجزة. وحيث أنّ هذا التعزيز المبتكر– الذي لم يكن وارداً في جدول النشاطات الغني للجنة (الهدنة المدنية) المنظّمة – حين يستبدل الرجل المنتصب صخور المتاريس – قد شكّل

لغزاً دائماً لزملائنا. فلقد شرحناه في حينه كحركة جماهيرية عفوية تنبعث من التضامن الديني للمسلمين تجاه ناد إسلامي مهدّد.

لكنّ الحقيقة، هي أنّ (الأخ حديدوش) مسؤول مدينة الجزائر هو الذي كان المايسترو الخفي. فقد اتخذ - بمفرده - مبادرة استنفار (القصبة) لمحاصرة الفرق الفاشية. وهذا السلوك المسالم قد يكون مستغرباً من طرف زعيم المجموعات المسلحة بالذات. في حين أنّ الأمر يمثّل فعلاً سياسياً طبيعياً من مناضل سياسي ورياضي، (كـ بوزرينا أرزقي) رئيس النقابة الناشطة لباعة الخضراوات ولشركة لامعة لمختلف الرياضات[10].

لم يكن ألبير كامو - سابقاً - رقيقاً حقّاً تجاه جبهة التحرير الوطني. لكنّه أصبح مدعوّاً - على ضوء تجربته الخاصة - لمراجعة حكمه السابق السلبي الذي حمله من باريس. كما أنّه، ومنذ أول احتكاك له مع مؤسسي لجنة الاستقبال، في مطعم (بغداد)، قدّر تأثير وسمعة جبهة التحرير بمناسبة حدوث تعارض بيننا وبين /Yves Dechezelles/ المدافع المزدوج عن رئيس/ M.N.A. = الحركة الوطنية الجزائرية / كمحام و كمدّاح له. ومن جهة ثانية ، فقد تلقّى شهادة مباشرة حول جيش التحرير الوطني : قتاليته، مناهضته للاستدمار، سلوكه تجاه سجناء وجرحى الجيش الفرنسي. ولم يكن (المعني) الشاهد على أخلاقية المجاهدين سوى / الملازم الأول Prax / الذي كان سجين حرب مع آخرين، بين أيدي (خوجا) الرقيب السابق الهارب من ترسانة / مدينة الجزائر / وبطل معارك (بالسترو) أثناء المواجهات الدموية " للمرتفع 606 ".

لقد كان منتظراً، بعد النداء المؤثّر لصالح الهدنة المدنية، أن يكون من بين الخطباء المتدخلين، ذاك الملازم الأول Prax ذاته، لدعم رسالة كامو، بشرحه كيف تمّ أسره مع رجاله و كيف أطلق سراحهم بدون سلاح، ثمّ كيف كان الجنود (المجاهدون) حريصين على التصرّف كعساكر يحترمون قوانين الحرب والجماعات المدنية. إلاّ أنّه منع من نقل شهادته التي كانت ستفضح - بصفة غير مباشرة - كذب و تزوير الادعاءات الرسمية. بل لقد تمّ اعتقاله أيضاً في الصباح ذاته. بالتأكيد ، بحجّة إساءته لسمعة الجيش الفرنسي الذي كان يحرق القرى ويفتك بالأطفال والنساء والشيوخ..

10 . حكم عليه بالإعدام غيابياً عدة مرّات. أوقف في جويليه 1959 وعذّب حتى الموت، خلال 15 يوماً. سلّم جثمانه إلى عائلته على مدخل المقبرة.

وفي مساء الغد، في صالون (نادي التقدّم) كشف لنا / كامو / عن مقابلته مع الحاكم العام. حيث عبّر Soustelles Jacques عن دعمه، شخصياً، فكرة (الهدنة المدنية) وهنأ ألبير كامو على مبادرته.

ولنتذكّر أيضاً ماذا طلب - خارج - وفوق كل شأن سياسي :

" أن تعلن في آن واحد، كل من الحركة العربية و السلطات الفرنسية، ودون الدخول في أي اتصال مباشر أو الالتزام بأي أمر آخر. عن احترام المدنيين وحمايتهم - طيلة فترة الاضطرابات - وفي كل الظروف (...). إنّ هذه الضرورة تصبح أكثر استعجالاً، حينما يتعلق الأمر بصراع يأخذ، على أكثر من صعيد، صيغة الاقتتال والفتك ما بين الأخوة، و حيث أنّ السلاح - في هذا الاختلاط الكالح - لن يميّز ما بين المرأة و الرجل، أو بين الجندي والعامل. من هذا المنظور، فإنّ مبادرتنا، حتى ولو لم تنقذ سوى حياة بريئة واحدة، فهي مبررة "[11]

كما أنّ الحاكم / المنتهية مدته / يؤيّد أيضاً الكيفيات المقترحة لتوفير الدعم المطلق : دينياً عبر المطران ووزير الأوقاف البروتستانتي و الحاخام وشيخ العلماء. إلاّ أنّ هذا الحاكم لا يستطيع أن يلتزم باسم الحاكم الجديد المعيّن. مع ذلك فقد اقترح توسيع إطار الاتفاق، مع التماس عرابيّة /M.N.A/ الحركة الوطنية الجزائرية من جهة، والمفتي الأكبر (الموظّف) من جهة ثانية.. !

و"الفهيـم يفهـم"

الحاكم العام الجديد، / و هو حاكم عام سابق لدورتين، /Catroux/، المفاوض من أجل عودة السلطان المنفي في مدغشقر، أعفي من مسؤولياته منذ أول /طماطم/ ألقيت عليه.. والوفد الأخير الذي استقبله رئيس مجلس الوزراء كان بالتحديد وفد (لجنة الهدنة المدنية). حيث كان /غي موليه / يستمع ويتحدّث عن المقاومة الفرنسية.. لكنّه يرفض تناول مشكلة (الخارجين عن "القانون"). وأمّا بشأن احترام المدنيين، فيجب دراسة الموضوع مع "الرفيق " روبير لاكوست..

ووزير الجزائر الجديد هذا، لا يقبل استقبال وفد من (الحركة من أجل حماية المدنيين) إلاّ بكثير من التردّد. مما أربك رئيس ديوانه الخاص.

هذا "الرفيق الاشتراكي" تصرّف بفظاظة ملحوظة، رغم حضور نساء ضمن الوفد. و هدّد بسحق كل محاولة قد تعيق سياسته. حيث أنّ (الأقلّ فهماً) يستطيع أن يدرك

11- 1960-1-6 / Journal d'Alger . تحت العنوان التذكاري "في عام 1956 طرح كامو نداءه من أجل الهدنة المدنية، و الذي كان يمكن أن يكون تمهيداً لوقف إطلاق النار و للسلام".

أن / لاكوست / هذا قد قرر خيار الفاشية لإنقاذ الاحتلال. و لكي ينزع من طريقه أخلاقية " الهدنة المدنية " المزعجة، تدّبر أمره لرمي رئيسنا "الجذاب" في السجن..

ورغم الاتهامات الخطيرة - التي شدّدت عليها الصحافة - فإنّ ألبير كامو طلب بإلحاح إطلاق سراح صديقه السيد De Maisonseul خلال 8 أيام حسبما حدّده الإنذار الذي نشر في صحيفة / اللوموند /. لقد كانت جرأة صاحب جائزة نوبل " مستقبلاً " مثيرة. لكن ما كان أكثر إثارة هو موقف رئيس المجلس (الوزاري) الذي رضخ لتهديد كامو و أطلق - دون محاكمة - سراح رئيس " لجنة الهدنة المدنية ".

لاحقـاً، و حين تنشر أعمال كامو، بعد وفاته (مراسلات و كتابات غير منشورة - و اليوميات الشخصية)، سنتعرّف على المشاعر الحقيقية لألبير كامو. حينها، ربما يقول لنا كيف كانت لديه القوّة ليهزّ زعيم / الفرع الفرنسي للأممية العمالية /، رئيس حكومة فرنسا ؟

لم تكن أيادي غي موليه - بالتأكيد - طاهرة من إفشال حلم مؤلف (الطاعون) : وهو التوفير على جزائره وعلى أمّه أن تصبح " و لوقت طويل أرض البؤس والحقد ". ربما أصبح صوته القادم من وراء القبر، وحكمه العادل، مطالباً بالقصاص من روبير لاكوست، مجرم الحرب الأول ومفشّل (الهدنة المدنية)، ومدنّس فرنسا، أمّه الاستعمارية الشرسة ؟

فعندما سيتوقف صمت ألبير كامو، سنعرف كيف اكتشف بكل رهبة أنّ الحرب الاستدمارية التي حاول (أنسنتها) كانت قد تعفّنت في إبادة العرب. وكيف كسر طواعية ريشته كصحافي، كي لا يحرج فرنسا، عبر " أيشمانها "* الخاص، ذاك النظام الاجتماعي - الديمقراطي .

إنّ رسول الإنسانية " الملحد " هذا - مثله مثل جبهة التحرير الوطني - لا يستطيع أن يتجاهل الحرب الصليبية السياسية لمخطط / لاكوست / الإبادي. حتى و لو حاولوا إخفاءه خلف البطانة " الاشتراكية". فالشعوذة الاشتراكية -الفاشية تنحر الشهود المزعجين و تلغي حق نقد البربرية الفرنسية، بشطب عبارة الاستدمار موضع النقد. حيث في اللحظة ذاتها التي يطلق فيها مجرم الحرب رقم1 يد الجنرال /Salan/ مجرم الحرب الثاني، يودّ النقابي الفرنسي السابق إعلان : "أن كلمة الاستعمار لا توجد في اللغة الفرنسية".

* . تذكيراً بالنازي : Eichmann . (المترجم)

فوزير " الفرع الفرنسي للأممية العمالية "، المنتخب لإنجاز السلام في الجزائر، يلزم بإرسال فرقة إضافية لخوض حرب عمياء لا ترحم. حتى أنّ أصدقاءه السياسيين ومعاونيه المقرّبين، يعودون واحداً واحداً إلى باريس كي لا يفقدوا شرفهم و" إنسانيتهم " بجانبه.

إننا نعلم أن الجنرال de Ballardiere المحاصر، بين واجب الطاعة من جهة، وبين شرف الجندي من جهة أخرى، لم يتردّد في شجب أوامر الجنرال Massu علانية. لكنّ معرفتنا هي أقل، بأنّ بطش (القمع الوقائي) كان قد قُرّر في أعلى المستويات، من طرف لاكوست ذاته.

لهذا السبب لم يستمر الجنرال Lorillot كقائد أعلى إلاّ مدّة 17 يوماً. فقد فضّل الاستقالة على تطبيع المخطط الهتلري - اللافيجري / Lavigerie /لهذا الإبليس الماركسي- الفرنسي القاضي : بإبادة الشبيبة الجزائرية - ببرودة أعصاب - لاقتلاع جذور المعارضة الوطنية لمشروع " فرنسة " العرب المسلمين.

. وبالاستفادة من فترة 20 سنة من الهدوء " لتكوين " الأجيال الجديدة، بروح الأسفار الخمسة للاشتراكية -الديمقراطية.

أهي المغالطة في تنسيق الأحداث ؟

كلاّ، مع الأسف. حيث يتعلّق الأمر بدوخان غريب خبلي يدمّر التوازن النفسي لبعض الحكام (الفرنجاويين) الذين لا يستطيعون أن يتحمّلوا la baqla الاستعمارية. أو ضربة الشمس النيرونية التي تغمر تاج قصر الصيف..

فمثلاً حين ينتقل فلاّح (Dordogne) بسرعة من النطل / أو الخمرة السيئة/ إلى المنابت الكبرى لخمرة (معسكر - أو المديه - أو ميليانه)، أو يمتلك سلطة محلّية لا محدودة، فإنّه سوف يؤمن بعبقريته الخاصّة، كمنقذ أعلى للحضارة الغربية.. هذا هو طموح "الضفدعة التي تحلم بالإوزّ الطيّار "مثيرة بذلك الانحطاط البيو- ميتافيزيقي الشبيه بدوار الغنم، هذا المرض الذي يصيب مخّ الأغنام و الأبقار بيرقانة طفيلية الدودة الوحيدة الشريطية.

يجب عدم الاستغراب كثيراً إذا ما انتزع جرس البلاهة الغريزة العنصرية من قبو الحقد الخنزيري، كي تذوب في التسليات الذهنية لحاضنة فلسفية تريد تحويل الشباب العربي، ممن قتل آباؤهم على يد / الفرع الفرنسي للأممية العمالية /، على شاكلة الأطفال الفاشيين، ما بين 14 - 8 سنة، الذين نظّمهم موسوليني في تشكيلات عسكرية.

من السهل تسجيل الذكاءات المزهرة. كما أنّه أجدى من محاولة "غسل الأدمغة" البالغة. ولقد تمّ تحقيق هذه العملية في الجزائر، على نطاق ضيّق.

لقد كانت رؤية (Lavigerie) مطران مدينة الجزائر في ذلك الوقت عميقة، حين طلب – دون نتيجة – من نابليون الثالث حقّ / أنجلة /الجزائريين. فلقد كان من باب الحماقة قسر إرادة (التمدين) على نصف تمدين للمسلمين الذين لا يستطيعون أن يصبحوا " فرنسيين "، إلاّ بعد أن يصبحوا مسيحيين ". وبمناسبة البناء الرمزي لقرى يستوطنها العرب والكاثوليك في العطاف (Saint-Cyprien-des-Attafs)، فإنّ الكاردينال الأمبريالي / لاحقاً / كان عليه أن يكتفي باليتامى الذين عبروا أمّ الشر /سنة الجوع/ 1867. لقد كان التحوّل أشبه بجراحة الروح، التي تحمل من الخيبة، بمقدار زراعة عضو غريب. و المصابون بداء / دوار الغنم / ارتضوا بديانة نفعية في المجال الكولونيالي. فبعد سنّ البلوغ، يفضّلون العودة إلى إيمان الأجداد ، كي يكفّروا عن أنفسهم همّ طيب الحياة الخاصة قبل واجب إجلال الوطن.

في نظر (غي موليه) الخارق، و المعادي (لجوريس Jaures).. فإنّ مشروع الاندماج لغايات دينية سيستبدل باندماج لغايات سياسية.

لقد كان الوزير أكثر ثقافة، و أفضل موقعاً، و أمضى سلاحاً من الوالي "لتمدين" الشباب الجزائري الذي لا يستطيع أن يكون " فرنسياً "إلاّ بعد أن يصبح سوسيو- ديمقراطياً "[12].

أما بخصوص " التهدئة " فإنّه بإمكان / Bugeaud / الجديد أن يستوحي من التقنية الهتلرية أثناء الحملة على روسيا : ذلك " التوجيه القاطع القاضي بتصفية كل المدنيين المشتبه بمقاومتهم، دون إقامة أي اعتبار للقوانين الدولية ".

و بقبول مهمة التحطيم المادي لكل المقومات الوطنية، و لكل جزائري يشتبه

12. لقد سبق و أثارت الوهم ذاته " عبقريات " عديدة :
لقد تشكّلت في عام 1928 حول الخلف الثاني لـ (Lyautey) السيد Lucien Saint ، زمرة من الحقوقيين و الاجتماعيين العلمانيين الذين اكتشفوا بافتتان لا دينية أو غياب الدين عند البربر. و حيث ساندهم بشكل فريد، محيط وكيل الكرسي الرسولي (البابوي) في الرباط. ففي النشرية التي يرأسها هذا الأخير، نلاحظ ظهور مقولات غريبة، يمكن تلخيصها بما يلي : البربر هم أقل تعلّقاً بالإسلام من العرب، و من بعيد. (لذا) يمكن و يجب تنصيرهم. من المحتمل أن تكون هداية مثقف إسلامي بارز في (فاس) عام 1928 إلى الكاثوليكية، قد حمّس البعض الذين يريدون كسب أحفاد القديس " أوغوستين " إلى المسيحية، في حين أن الآخرين الذين يرون بهم مستقبل فلاحين اشتراكيين-جذريين، إنما يريدون " تجنيبهم العبور بالإسلام الأرثوذكسي و بالتيوقراطية (حكم رجال الدين) العربية الإسلامية
Jean et Simone La couture، المغرب تحت التجربة، باريس، 1958، ص، 85

بتعاطفه مع جبهة التحرير الوطني، فإنّ الجنرال Salan ليس بإمكانه إلاّ أن يثلم شرف القائد العام، و ليس بمقدوره، أكثر، أن يتصرّف بكيفية مغايرة لمجرم حرب رقم 2.

هو ذا ما يتوجّب معرفته لتقييم جبهة التحرير الوطني، ولتصوّر بطولة قضيتنا كي " نركل قلوبنا " و ننتصر على انفعالاتنا العمياء. نعم، لقد حافظنا على رؤوسنا باردة.

أيضاً، عندما نسمع القول الذي يدّعي أننا أهملنا أو نسينا قضية الأقلية الأوروبية، فإنّ بيروقراطي الحزب الشيوعي الجزائري يوجّه اتهاماً سيئاً بهذا الخصوص، مثل كلب نبّاح و غبي، يعوي دون أن " يتبصّر الطريدة العارية أو قنيصة الماء ".

مع ذلك، فلقد تركنا آثاراً تثبت أن جبهة التحرير الوطني لم تنسى تماماً هذه المسألة. إذ سيعترف لنا لاحقاً باستحقاقنا موقع القيادة المتقدمة للنشاط المنفصل و الموازي، مثل (الهدنة المدنية - و فيدرالية الخواص..) وسيعرف أنّ تأسيس دورية (Espoir) إنما كان بإيحاء من جبهة التحرير / التي ضاعفت من الاختفاء السرّي /، حين ترأست مجلساً حيّاً في مقر بشارع Drouillet و في مقرّ / نادي القصبة /.

وإذا كان الكلام يتطاير في فضاء الزمن، فإنّ الكتابة هي كنوز العدل، لا تنطفئ أبداً. هكذا، فإنّ بعض النصوص التي اعتبرت مفقودة بصفة قطعية مع الوثائق الأوليّة للحرب، وجدناها سليمة محفوظة ومنسوخة، كمبادئ أساسية للثورة الجزائرية.

فلنذكر هنا، على سبيل المثال ، ثلاثة من هذه النصوص :

1. خطاب اختتام المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام للتجارة الجزائرية، المنعقد في" نادي التقدم 14 - 13 " سبتمبر 1956، حيث النداء الواضح والشجاع إلى وحدة التجار الوطنيين، دون تمييز في العرق أو اللغة أو المذهب[13].

2. وهناك الوثيقة الأساسية، أرضية جبهة التحرير الوطني التي تبنّاها " مؤتمر الصومام" في 20 أوت 1956. حيث تمّت مناقشات واسعة حول العمل داخل الأقلية الأوروبية مع تعليمات واضحة بشأن الألف طريقة للتعاطي معها. ولقد سبق وشددنا فيه، بشكل خاص، على السياسة الواقعية لجبهة التحرير، والمختلفة - بالوقت

13 . " الثورة الجزائرية عبر النصوص ". وثائق قدّمها André , Mandouze، منشورات Maspero، باريس، 1961، ص. 125 - 124.

ذاته- عن الفئوية الصبيانية للتشكيلات الوطنية القديمة التي ترفض جملة وتفصيلاً الجزائريين من أصل أوروبي. وعن الانتهازية المبتذلة للحزب الشيوعي الجزائري الذي يمنحهم أهمية مبالغ فيها.

3 . وأخيراً، الرسالة المفتوحة من الاتحاد العام للعمال الجزائريين، إلى هؤلاء الشغيلة الجزائريين من أصل أوروبي، المنشورة كبيان لتعميم الإضراب العام لثمانية أيام، بمناسبة مناقشات منظمة الأمم المتحدة (جانفي 1957) : "... إننا مثلكم، أصحاب مرتبات. لا نعيش إلاّ من تأجير طاقة أذرعنا أو جهد عقولنا. و من المحتم علينا أن نعيش سويّة، و أن نعمل في الورشة ذاتها، أو المشغل نفسه ، أو الإدارة، بل المكتب أو المجال الزراعي ذاتهما. إننا موضع استغلال مشترك من الشركة الصناعية الضخمة أو المالية ذاتها، أو ربّ العمل بعينه، بل المستوطن الكبير ذاته. ورواتبنا غالباً ما تكون غير كافية، وتبقى على الأغلب أقل من رواتبكم. وعلاوة على ذلك فإنكم شهود على كوننا موضع إساءة و إهانة. فكرامتنا الإنسانية ليست محترمة، كما أن البطالة تغرق شبابنا في البؤس.

"مثلكم أيضاً، فنحن نقابيون. كثير منا ناضل مع عديدكم في النقابات نفسها. لقد ناضلنا معاً في الإضرابات المشتركة للحصول على شروط حياة أفضل للجميع، وعلى زيادة في الرواتب، ومن أجل القوانين الاجتماعية. لقد كنا معاً طيلة فترة طويلة في المعسكرذاته وفي الجبهة ذاتها من الحاجز الاجتماعي .

" وككل العمال الواعين، فإننا ديمقراطيون. ولن نقبل أبداً أن نعيش في ظل نظام إقطاعي ملكي أو أوتوقراطي. نحن أيضاً نريد الحرية و التقدم الاجتماعي في جمهورية حديثة، حيث يكون جميع المواطنين متساويين حقاً، دون أي تمييز عرقي أو لغوي أو مذهبي "[14].

14 . " الثورة الجزائرية عبر النصوص ". صفحة : 125 ، op. cité .. نص منشور سابقاً" كملحق في الطبعة الثانية من (الأرضية - الصومام). ص 37.

الفصل التاسع

عنف المدينة، ونضال الجماهير

"أيتها النساء ، فلنولّول .. نحّي علينَا الغمّة "

صوت امرأة أخرى تكتسي الانفعال ذاته، يجيب (متأرجحاً) / ما بين الأمر والتضرّع ../ :كلاّ .. فلسوف تهجم علينا الذئاب لافتراسنا أو لطردنا من المحكمة.."
أي حوار غريب هذا .. !

لقد كان / هذا الحوار / ذات 12 جانفي 1959، حين انعقدت استثنائياً، المحكمة العسكرية الدائمة في قصر العدل، في مدينة الجزائر، في القاعة الكبرى لمحكمة الجنايات، لمحاكمة الاتحاد العام للعمال الجزائريين .

كم كان الوضع غريباً. فالجمهور الحاضر - واقفاً و كثيفاً - يتكوّن في كليته تقريباً من الجزائريات المحجّبات. وكنحت مرمري هائل، فإنّ هذه اللوحة التي نراها في زمن السلم تذكّر بقصيدة الشاعر (فاسي) التي تغنّي " الجمعة، يوم خروج الريام "، أو الغزالات البيضاوات اللواتي نصادفهنّ أيضاً في الجزائر العاصمة، بجمهرات كيّسة، حول الحمام، أو مقبرة القطار، أو ضريح سيدي ابراهيم قرب مقرّ البحرية، أو جامع الصلاة على الموتى في سيدي محمد / بلكور. لكنّ مناقلة الخيال هذه، تفقد رشدها، حين تخطف طقطقة السلاح النظر نحو وشائع الجنود وحواجز الشرطة المدنية المحيطة بالجمهور النسائي داخل القاعة.

إنّه لمن العقلانية و الواقعية الأوفر، أن نتذكّر اللوحة الشهيرة لمواطننا حاج اتيان دينه / Hadj Etienne Dinet /، الرسام والكاتب، حول نظرته السياسية-الجمالية " لنظام الأهالي - الأنديجينا " : حيث نرى جزائرياً مقيّداً بين فارسين من جيش الاحتلال، على طريق النفي الإداري نحو سجن الأشغال الشاقة في الصحراء.

إنها اللوحة الحيّة لجزائر الحرب. فحول السجون، والثكنات ومراكز التعذيب، ومعسكرات الاعتقال والمحاكم العسكرية، نلحظ تجمّع النساء.. لهذا، فقد أصبحن عميقات الإحساس بذاك الإجلال العلني "الذي يوجّه لهنّ جماعياً. فمن على مقعد المتهمين، مجّدت جبهة التحرير الوطني وطنية الجزائريات اللواتي وهبن "قلوبهن وأرواحهن "للثورة، مجاهدات وفدائيات، مسعفات و "مفجّرات قنابل".

إنها "محكمة تقليدية" لثوريين. فالاستنطاق يتحوّل إلى تمجيد "هجومي" للثورة التي لا تقهر. و التي- لكي تحقق هدفها، بشكل أكيد، في استقلال الجزائر – وتعمل بفعالية، فإنّ جبهة التحرير، لا بدّ أن تستخدم كل السبل.

فحرب التحرير الوطني كلّ لا يتجزأ. إذ من غير الممكن عزل الانتفاضة المسلّحة عن الفعل النفسي للاستحواذ على غالبية الشعب. أو عن الحرب النفسية لتحطيم معنويات العدو و مؤيديه.

ومن غير الممكن أيضاً، الفصل بين كمين و هجوم على قطار، أو تخريب سكّة حديدية أو تحطيم جسر، عن القصاص من خائن أو من سجّاني التعذيب أو من شرطي..

كما لا يمكن الفصل بين إضراب التبغ والكحول عن توزيع منشور أو جمع أدوية و تبرعات، أو تظاهرة نساء ضد تنفيذ الإعدام في المحكومين، أو شكوى فردية ضد الاختفاءات والإعدامات الكيفية وأساليب التعذيب. ولا فصل للإضراب المطلبي، والسياسي و الطلابي و إغلاق الحوانيت وهروب لاعبي الكرة والنداءات للصليب الأحمر الدولي ضد استخدام قنابل النابالم أو الإبادة السلبية لمعسكرات الموت البطيء.. عن مهمة جمع المعلومات أو "عنف" مديني بالبندقية أو بأعواد الثقاب لحرق المراتب..

يا لها من سفاهة غريبة. إنّه القلق يقرأ على الوجوه المنقبضة لبعض المحامين الأوروبيين من نقابة العاصمة. حيث يبدو الأمر "غير مقبول" في محاكمة قادة نقابيين. "فخلطتهم" المحسوبة هذه، يجب أن تؤدّي إلى " أزمة ضمير" وفق " أخلاقيات الاحتلال" وأن تقود إلى إدانة " العنف الأعمى"..

ولقد كان على هذا العقيد -الرئيس (للمحكمة)، أن "يتحمّل كل شيء، على العكس مما هو سائد في سلوك العدالة العسكرية، اللامتسامحة والقمعية.

فرغم حواره الموجّه والمدعّم بشغربيات ضرب توازن المجاهدين، لم يكن بمقدوره أبداً تفادي صدمات إجاباتهم الراجحة و الحاسمة مع / قطّاعات / أسئلة أخرى، هي ذاتها متبوعة بتقديرات نبيهة وساخرة.

بالتأكيد، كان يتوجّب احترام الأصول الدبلوماسية التي يفرضها حضور محامين أجانب، ووزير بلجيكي سابق ونقيب المحامين في تونس.. لكن، لماذا لم يلاحظ العقيد القاضي، التناقض الفاضح بين تأييد العنف الحضري وبين الانضمام لفكرة (الهدنة المدنية) التي أكدت عليها رسالة موجهة إلى المحكمة من قبل ألبير كامو ؟

ومثل ارتداد السلاح، يمكن أن ينقلب السؤال ضد السلطة الفرنسية ذاتها، التي اعتبرت النداء لاحترام المدنيين، كعصا في دواليب دبّابة الحرب الاستدمارية..

ومفتي الحزب الشيوعي الجزائري، ليس لديه الهمّ ذاته. ها هو يوبّخ جبهة التحرير الوطني : " الشيوعيون يؤيدون النضالات الجماهيرية. فهي الأكثر جدوى بألف مرّة، كما أنّها لا تحمل على الصعيد السياسي، النتائج السلبية ذاتها لبعض الأعمال المسلّحة، السيئة التوجيه في المدن، مثل رمي القنابل والمتفجرات جزافاً".

ماذا يعني هـذا ؟

لنكن واضحين حين نحاول استيعاب المسألة. هل علينا أن نستنتج "التنكّر المنافق" لسلوك الأخ Yveton الذي نال المقصلة لأنّه حاول تفجير مصنع غاز الحامّة بالقنابل..؟

في هذه الحالة يتوجّب توالف أوتار كمنجة الحزب الشيوعي الجزائري. فإنذارات الضمير لدى الناطق باسم الوفد الخارجي لا تهتزّ على إيقاع مماطلات قياديين آخرين. حيث أنّنا لا نلمس، في بعض النصوص الدعائية، تردّداً في تبنّي اسم هذا المناضل الشيوعي القديم. فهل يبخس دم هذا الشهيد كما الشعير الذي نأكله و نذمّه ؟

إننا نتذكّر هنا " الامتياز الرهيب " لذلك الديك الذي تطابق يوم شؤمه مع اليوم الذي اغتسلت فيه قوائمه قبل ذبحه. ألا يعود الالتباس في تقدير قيادة الحزب الشيوعي الجزائري إلى همّ استغلال تضحية هذا (الإرهابي) ككبش فداء - بالمطلق - مكلّف بحمل و بمحو أخطاء تلموديي الماركسية.

يمكننا أن نتعرف أيضاً على انحراف الأممية الميكانيكية التي تريد أن تدرأ خطر "الوطني - البرجوازي" بتبنّي الأفكار المسبقة لعنصريي جنوب أفريقيا تجاه (الزولو والبانتو).

أليس في هذا علامة ذهنية متعالية تبحث عن البرهنة - لذاتها - عن معاداتها للعنصرية بأن تتوضّع في جلد (الأقدام السوداء) المشتركين بمائة ضد واحد، من أجل الإعدام الكيفي "لفأر صغير" ؟

إننا نفضل أن نبقى نحن - أنفسنا - و أن نفصح، مع أبيات Corneille، عن فخرنا في أن نكون جزائريين :

"أمتنّ لآلهتي، أنّي لست روماني

هكذا أستبقي فيّ، بعضاً من شيء إنساني"

"المترجم : م.س."

في كل الحالات، لسنا على طول الموجة ذاته.

فبالعربية الشائعة، نقول : نحن في واد، و هم في واد آخر.

ليس هذا التفاوت في المكيال بالأمر الجديد. فأمام ميكرو / لندن /، كان هناك مظلّي، و مع أنّه يعاني من حساسية القفز في الفراغ، فهو يقدّم درساً في الأخلاق السياسية لهؤلاء (القنّاصة وعناصر المقاومة) الذين يقومون بعمليات ضد دور العربدة الباريسية، حيث يقيم النازيون أعراسهم وحفلاتهم.

المذيع اللندني، بدوره، يشجب العنف ذا " النتائج السلبية " حيث أنّ كل عملية، إنما تستتبع بإنتقامات مباشرة، وقتل 30 - 20 بل وخمسين رهينة. و"خبير الكلام " يوصي الفرنسيين أيضاً بأن يلجأوا إلى انشغال أكثر حكمة - ومردودية - ! كسبر الأنهار وحساب عمق مخاضاتها، بانتظار نزول " الحلفاء "..

يمكن لهذا (الواقع) أن يتطابق مع درجة حرارة الشعب الفرنسي الذي اصطفّ في حينه، إلى جانب التعاون مع نظام (حكومة فيشي) :

" لقد قامت الحياة تحت الاحتلال على البحث عن الطعام لـ ٪ 98 من السكان، والتفكير بمحنة الوطن لـ ٪ 75'1 وبمحاولة وضع حدّ لها من قبل الـ ٪ 25'0"[1]

في المجلّة الموسكوية، يقدّم (شومان) الجزائري برهاناً عن مهاجر أكثر جهلاً. فهو لا يرى فرقاً بين الاحتلال النازي لفرنسا الأكثر لطفاً - نسبياً - والحرب الاستعمارية في الجزائر، الأكثر بربرية. حيث أنّ " هتلر وجماعته استطاعوا خطف السيادة من فرنسا و إخضاعها إلى أسوأ المعاملات. و لم يخطر لهم ببال أبداً وضع خطّة للقضاء على الأمّة الفرنسية و محوها من على الأرض "[2].

حتى، ولو وضعنا جانباً الفرق بين طبيعة و ميزة كل من حربي التحرير الوطني هاتين، هل يمكن لنا أن نقبل أطروحات Ciceron الخطيب وCiceron الكاتب

---

1. Le Canard Enchainé، Roberte Escarpit، 1961 - 5 - 17. روبير اسكاربي.
2. مقابلة مع بن غوريون من قبل Serge Groussard. مراسل الفيغارو الخاص في " اسرائيل "، الفيغارو، 6 -1- 1961.

الذي يعلن عدم تعايش نشاط القنّاصين والفدائيين مع تقنية وأسلوب المنسوب الأدنى أو النشاط السياسي للجماهير ؟ كلاّ. إنّه الوضوح بعينه. ففي فرنسا كما في الجزائر، استطاع الوطنيون تجسيد المقاومة الفاعلة بكل أشكالها المختلفة، في الوقت ذاته.

إن التأكيد على مبدأ صحيح نظرياً، قد يغطّي تبريرات خاطئة. فتبسيط التصوّر، وجعله حقيقة كونيّة ووصفة صالحة - لكل زمان ومكان - إنما يؤدّي بالضرورة إلى استنتاج خاطئ.

لننتقل من الفلسفة إلى الواقع التاريخي.

من الواضح أنّ ردّ فعل الجزائريين يختلف حسب الخيار السياسي : بين الجزائر المستقلة أو الجزائر " الفرنسية ".

ويجب على صحيفة Kommunist ألاّ تتفاجئ بأن حساسيتنا تذهب بالاتجاه المعاكس لحساسية مراسلها غير الدائم. أصلاً، يكفي أن نلاحظ صدى عمليات (O.A.S) وسط أغلبية جماهير الأوروبيين المؤيدة للإبادة الكولونيالية و للعنصرية المعادية للعرب.

وجبهة التحرير الوطني، منطلقة من تقديرها لحرارة المناخ الشعبي، أي مناخ الأغلبية

المعادية للاستدمار : أغلبية بين المسلمين وأقلية صافية الذهن لدى الفرنسيين واليهود... فإنّها لن تدع فريستها / من أجل الظلّ../.

وهذه الملاحظة الأولى تستدعي أخرى.

فمتطوعو الموت لا يتصرّفون وفق سعادة الحظ. بل لكل منهم مهمّة ذات هدف محدد، ودافع في إطار استراتيجية سياسية وسيكولوجية وعسكرية. وليس هناك من مكان للصدفة إذاً. حتى ولو تعلّق الأمر بقنبلة يدوية ترمى في حانة جواسيس، أو قنبلة تهزّ راحة المحاربين الأعداء في مرقص.

وأخيراً فإن الوحدات الصدامية قد لعبت دوراً كبيراً في الثورة الجزائرية.

فلنذكر بعض جداراتها :

1. (فترة) تربّص لتكوين و اختبار مرشحي شرف الخدمة في جيش التحرير الوطني. فلوضع سترة الجيش الجزائري، يجب إظهار أهلية سياسية وأخلاقية وعضوية. وأبناء المدن الذين يلتحقون (بالجبل) كانت تتمّ إعادتهم إلى ديارهم بلا

شفقة. والاختبار الأخير هو تنفيذ مهمّة خطرة. عادة ما تكون تنفيذ عملية داخل مدينة المعني بالذات.

الماركسي اللينيني يقدّر القيمة الإنسانية والاجتماعية والسياسية والثورية لهكذا اصطفاء. خاصة عندما نعلم أنّه يوفّر التأطير العمالي لجيش معظمه من أصل فلاحي !

والفدائيون، بتجسيدهم لحمة الترابط الوطني ونفخ روح الثورة العنيدة حتى النهاية، وحتى النصر، فقد ساهموا في جعل جيش التحرير الوطني قوّة قادرة على خوض حرب طويلة المدى، دون تعب أو قصور.

وإذا لم ينجز رجال المقاومة الحضرية سوى هذه المهمة - الوحيدة - فإنهم يستحقون شرف تحرير الوطن.

2. الغسل السياسي لعمق أعماق المجتمع. لقد تصدّت جبهة التحرير - بداية - لعصابات الشرّ التي، تقضم المرافئ الكوسموبوليتية والمدن الكبرى، بعيدا عن الخلط مع ضحايا المأساة الاجتماعية " للقمصان السود أو الذهبية "، و السوقيين المتكاثرين في أوروبا، غير المبالين بالسياسة، والذين هم في حقيقتهم فريسة السعار اللاشعوري و العنف الوقح ضد " العجائز.

عندنا، نلاحظ وجود وسط /الحزّيات/ : من تجار الدعارة ومسؤولي حانات القمار ومتّجري المخدّرات /من حشيش وأفيون وكوكاين/، وأصحاب البزنسة، والمهرّبين لـ/ساعات سويسرية - حرير طبيعي من اليابان - شراشف انكليزية أو إيطالية..الخ/.. هذا الوسط الذي يتغذّى من الشبيبة الدنيا، فهي الجيش الدائم من ضحايا البطالة القسرية، ومن عمال جيدين من ضحايا العنصرية وتفاوت الدخل، ومن قدامى (يا ولد) مسّاحي الأحذية، وصيّاحي الصحف الأطفال وهم في عمر الدراسة (لأبناء الأوروبيين،- مبتدئين أو تلاميذ و طلبة -) : إنّهم فئة من " الأشرار بقلب طيّب"، أخوة Ravachol, Bonnot, Raymond-La-Science، الذين يرعبون البرجوازيين و يقلقون وزراء الدولة التي يتوجّب تحطيمها بواسطة اللاشرعية الفوضوية. حيث تسمح لهم عقيدة (العصاباتية) السياسية بالعيش على هامش المجتمع الفاسد، مستفيدين من الطاقات التي تتيحها لهم عدم - التلاؤمية. فمثلهم، كان " المعتقون " عندنا : متمردين ضد الظلم الاجتماعي المضاعف ، قهراً وطنياً وعنصرية معادية للعرب.

فهم ليسوا بالكسالى. لكنّهم، كي لا يعيشوا على نفقة أهلهم المسنين، فإنّهم يقبلون بكل النشاطات الصغيرة التي ينفر منها الأوروبيون. حمّالون، باعة خضار، منظّفي

سيارات، موصلو الحاجات.. الخ. وغالباً، ما يحاولون الخروج من سوار البؤس والضعة لزيادة (حجم جبنتهم)، فيحلمون بآفاق جديدة من الارستقراطية التي تستمتع بالترقية المثالية من : " البهاء و المال و العزيمة = الزين و المال و الدراع) عبر مخارج الملاكمة وكرة القدم والغناء والموسيقى والإغراء.

إنهم يحتقرون هؤلاء السوقيين بدون (نيف) الكرامة. فالأنف / عنوان الكرامة و العزّة و الوفاء و الشرف /. كما أن هؤلاء الطامحين يمارسون تصنّعهم، متمددين أمام دور الزعامات، بألبسة تشدّ الانتباه، كمتأنّقي الزمن الغابر، بقمصان مرسيليه و أحزمة / Altairac / أو أزرق شنغاي، و بما يشبه الطيارين، مستهلكين في متعة ترفهم هذه، الدخل المتواضع لأمّ عجوز استنزفتها أعمال التنظيف و الغسيل عند الأوروبيين.

ومن بين هؤلاء الرعاع من / أصحاب قشور الأنف و ارتشاح التهاباته / يجنّد البوليس الفرنسي و جيش الاحتلال " جنوده الأغرار " من مخبرين ومتطوعين أو جزّاري أخوة لهم .

"Butt Abbot" كان آخر سليلة الأشرار. و هذه الكنية للمثل الأمريكي تتجانس مع التعبير القبائلي / بوث أبوت = الرجل ذو البطن الضخم /. فلقد قيل أنّ هذا الرجل " يعمل " مع فريقه من القتلة المحترفين لحساب الشرطة الاستعمارية. هكذا، وعلى إثر عملية اغتيال للمحامي (ولد عوضية - الأب) ورمي قنبلة يدوية في مدينة الدكتور (تمزالي) ، تمّ إعدام هذا (البوت أبوت) في داره في القصبة وضح النهار.

ولقد كان عمّار علي - المعروف بعلي لا بوانت - المحكوم سابقاً بجرم مدني ، والذي فرّ من ورشة زراعية تابعة لسجن برواقية، هو الذي قاد (مقتصّي العدالة) من مناضلي جبهة التحرير الوطني.

إنّ هذه الطريقة، من جانب جبهة التحرير، حيث يختلط الكلام الطيب مع العنف (الضروري)، أفادت أيضاً في تحييد جمعية " 8 نوفمبر ". هذه المجموعة من الانقلابيين المعارضين للمارشال / بيتان / والذين حاولوا في عام 1942 مساعدة الإنزال الأمريكي، هم الذين وفّروا القتلة المأجورين لزعيمهم /Achiary - النائب السابق لوالي (قالمة) وسفّاح الكشافة المسلمين في عام 1945، و عميل لاكوست - سوستيل/، لتصفية الشخصيات الوطنية في عام 1955.

إنّ التحذير و تنفيذ القصاص ببعض الماجنين، دفع (مقاومي 8 نوفمبر 1942) إلى احترام أنظمتهم الداخلية وطرد رئيسهم السافل.

لم يكن الفدائيون (آلات) بدون قلب. لقد كانوا يحسنون جيداً استخدام الإقناع، و التحذير و التهديد. ولم يكن للعنف أن يتدخّل إلاّ بعد تجربة صبورة وعقيمة لدى هؤلاء الذين لا يريدون تبديل عقليتهم الحقيرة و سلوكهم الشرير.

حتى، ولو كان بعض هؤلاء من قدامى " الشبيبة السيئة " فإن / متطوعي الموت/ قد ساهموا في التئام جرح اجتماعي. ففي السابق كان الحجّ إلى مكّة المكرّمة، حيث (يغسل الحاج عظامه)، هو ما يعيد الاعتبار الشخصي. وأحياناً كانت التوبة الجماعية تأخذ طابع التبشير الوطني بالانضمام إلى حزب الشعب الجزائري، أو الحزب الشيوعي الجزائري أو المؤتمر الإسلامي.

ومع الجهاد في سبيل استقلال الوطن، فقد تكشّف هذا التحول الجديد عن وطنية رفيعة ضللت البوليس الاستدماري الذي كان يعتقد أن " هذا الوسط " يمثّل برجاً عاجياً كتيما على الشعور الوطني. فلقد أصبح محكومو الحق العام الذين يطلق سراحهم، كونهم لا يشكلون خطراً على الأمن الاجتماعي، موضع إعادة اعتقال تلقائي فور خروجهم من السجن، بحجّة الخطر على أمن الدولة.

هؤلاء الفدائيون الخارجون من أدنى أعماق المجتمع، برهنوا عن استعداد خارق لبلوغ أوج الاستشهاد، بحميّة لا مثيل لها.

فقط بالنسبة لمدينة الجزائر، على لائحة الأبطال الذين ساروا بشجاعة وازنة نحو الصباح الأخير للمقصلة، تتوهّج بأحرف من نور أسماء خالدة لا تمحى :

علي صاحب العيون الزرقاء

أرزقي لوني

مرزاق حاحاد

Petit - Maroc

سعيد تواتي، الملقّب بـ Le Balafré.

3 - " خميرة " تثبيط معنويات الخصم : لقد كان العنف الحضري كاشفاً للحرب النفسية.

وللاقتناع بذلك، يكفي تذكّر التصريحات المتعجرفة (للاكوست وسوستيل) حول الهدوء والأمن وسكون المدن الكبرى. كما أنّ قوافل الصحافيين الأجانب، المدعوين على حساب (الأميرة) كيما يلاحظوا أنّ مدينة الجزائر ووهران وعنّابة، تجهل حتى وجود تمرّد متورم في الغابات فهم يتحدثون عن مدينة الجزائر التي تستحق اسم

باريس الصغيرة، حيث تطيب التسلية. فعدد دور السينما قد تضاعف. وشارع /ميشلي/ بحاناته المضاءة (بضوء النهار) والنيونات المتعددة الألوان، وأفواج عشاق الليل الهائمين، من متنزهين أو محتفلي المراقص ودور المتع، والسيارات الفارهة التي تحجب الطريق.. إنها لوحة من لوحات (الشانزيليزي).

والضباط الفرنسيون، أصحاب الرواتب السخيّة، ينفقون من جيوبهم المفتوحة كما لو كانوا في سايغون.. والمقارنة هذه ليست بحمقاء، فالهند الصينية بعيدة وبعيدة جداً عن فرنسا، و قريبة من الصين. أما الجزائر فهي فرنسا.. وهي حظّها الأخير.

فبالنسبة للبرجوازية الاستدمارية، يمكن للحرب ضد العرب أن تستمر مائة عام. و دون منغّصات. بل على العكس، فإنّ الرفاهية الاقتصادية تزيّن الحياة.

كما أنّ النفقات العسكرية، و(الحقن) الضخم للاستثمارات العامة، والزيادة الكبيرة في البنيان، وقفزة نشاط محلات الاستهلاك المباشر، وغلاء الاستئجار وتأجير المؤجّر.. كل هذا ساهم في ارتفاع المداخيل.

كما أنّ /علاوات التنقّل والخطر / رفعت من مستوى حياة الموظفين. والمبيعات انطلقت كالسهم في ميدان الأثاث والأدوات الكهربائية والسيارات.

هناك بالمقابل، شواذ يمكن تسجيله في اوساط التجارة والصناعة. فعلى العكس من الحركة البوجادية / نسبة إلى Poujade الذي كان يرفض التطور السوسيو-اقتصادي و يطرح الحل التعاوني / الثرية و الاستعمارية المغالية، يلاحظ النشاط غير المألوف لمجموعة ليبرالية ينشّطها السيد Blanchard، رئيس " الفيدرالية العامة لأرباب العمل الجزائريين ". لقد كان صيغة ما من البروفسور Mandouze الذي كان خطيراً على النقابية التجارية الرجعية، ومعادياً للهيمنة السياسية-الاقتصادية لكبار الملاك العقاريين. و لقد كان بالنتيجة حليفاً موضوعياً للاتحاد العام للتجار الجزائريين، الوطني و الشريك غير المباشر لجبهة التحرير الوطني.

وكبرهان من بين مائة . نسجّل أنه، في الوقت الذي كان فيه / لاكوست / "المعادي للرأسمالية " يمتدح " المهمة التمدينية " للأمبريالية الفرنسية ، حين كان يقوم بنزهة للبرلمانيين الأجانب حول (ديار السعادة)، حيث يوجد أول بناء مختلط يضمّ بعض المسلمين بين الأوروبيين من أصحاب الامتيازات، قام ربّ العمل الشاب بمحاكمة الاستعمار، بنشره في مجلّة " الحقائق الجزائرية الجديدة "[3] لدراسة

3 ـ العدد الأول من " مجموعة 1956 "، الجزائر.

صادرة عن /أمانة الشؤون الاجتماعية/ حول "بوبصيلة، بيوت الجزائر القصديرية".

ليس هناك من يجهل أنّ سكّان الأكواخ السوداء حول الجزائر البيضاء هم مسلمون فقط. و لقد قفز عددهم من 4800 / شخصاً عام 1938 إلى 50 ألفاً عام 1956. لكنّ التذكير بوجود " قرى سوداء "مع زرائب من صفائح خشبية، تغطّيها صفائح بلاستيكية، مبنيّة غالباً على أراضي تفريغ نفايات المدينة ، وإظهار العلم الفرنسي يرفرف فوق المساكن الأكثر بؤساً في العالم قاطبة / طالما أنّها تصنّف عالمياً، مباشرة بعد الهند و باناما / ..ألا يبرّرهذا، تمرّد المتسولين، ويعطي للثورة الجزائرية كل الأسباب المشروعة ؟

لهذا السبب، لم يتردد de Serigny بقيادة حملة شرسة في (L'Echo d'Alger) ضد السيد Blanchard وفريقه من أرباب العمل "الشباب" المتعاطفين مع (خيار) إزالة الاستعمار.

رؤيتان مختلفتان، وسياستان متناقضتان. والاحتلال يهتم بالمساكين الوضيعي المسكن، على طريقته. سناتور سابق M.R.P. يشهد في محاكمة الأب Davezies:

".. الحدث الثاني، يتابع السيد السناتور Fonlupt-Esperaber، يتعلق بأعمال التعذيب الشنيعة التي حصلت في (حيّ محي الدين)، حيث أنّ بضعة مئات من الرجال الذين لم يعودوا في حالة قابلة لتقديمهم أمام قاضي التحقيق أو أمام محكمة، أو حتى مجرّد نقلهم إلى معسكرات اعتقال.. اختفوا كي يذبحوا ذبحاً "[4].

وحي محي الدين، ليس مجمّع أكواخ خارج الأسوار، كحال (بوبصيلة) قرب حسين داي، أو (القطّار) قرب مقبرة القطّار، أو (نادور) قرب موصد سالمبيه /Salembier/ .. إنّه جزيرة بين/ساحة أول ماي حالياً Champ-de-manoeuvres / وبلكور ونهج Bru. هكذا يحقّ لنا أن نتعجّب، كيف انّ ذبح عديد مئات الرجال من الحمّالين والعتالين لم يثر غثيان البرجوازيين الصغار في طريق Fontaine bleue المطلّ، ولا أصحاب القصور المجاورة.

كم هي "حقيرة"، تلك الحساسية " المبالغة، المجاملة "لشرقي بدائي أو لجامعي باريسي.. ! وكم هو ناجع خنجر المظلّي (!) في المدنية الاستدمارية، لوضع حدّ

---

4 . صحيفة / اللوموند / 1962 - 1 - 12.

لهذا الاختلاط المتناقض المقزّز "لفئران" مسلولة ما زالت تعيش في الأحياء الراقية.. !

لا بأس. لكن في ظلّ هكذا قانون غاب، حيث يكتسي الذئب رداء النعجة المسالمة، فإنّ عنف المدن - كحرب العصابات - هو الوسيلة الوحيدة لتعبير شعب مسحوق، ذبيح.. و لا بدّ من إقامة الفرق بين "العنف الذي يحرّر الإنسان والعنف الذي يجور عليه".

فالعنف المديني هذا، إنما ياتي ليقلق راحة الأسياد المستعبدين، بقلوب من صوّان. و ليدخل عذاب القلق حتى شارع (ميشلي)، معقل العداء المكلوب للعرب، بالهجوم على : كافيتيريا ميلك بار و حانات "أوتوماتيك وكوك هاردي Otomatic، Coq hardi". ومع الاعتداءات الشخصية ضد Froger والجنرال Massu وAchiary. أو بالتحضيرات لعمليات ضد كل من : Borgeaud - Soustelle - de Serigny-Laquiere.

والعنف المديني، ليس سوى الانتقام الوطني من جرائم الاحتلال : إختفاءات - إعدامات كيفية - إعدامات ميدانية. فحالة اللأمن الممتدة لشوارع المدن الكبرى، والهجومات على الدوريات، ومحافظات ومراكز الشرطة.. كل هذا يثبت للصحافيين الأجانب و للرأي العام العالمي، الغضب الشامل للشعب الجزائري.

أما على صعيد الاستراتيجية السياسية -العسكرية، فإنّ نشاط الفدائيين، بدّل بعمق في المخططات الحربية لقيادة الجيش وبدّدها. وهو ما ترجم بقرار خفيّ، لكنّه منعم بالمعاني الخطيرة. حيث أن " الجريدة الرسمية "تصنّف" كامل التراب الجزائري كمنطقة عمليات ". و" حارس الأمن " الذي ينظّم حركة المرور في شارع / ديزلي = العربي بن مهيدي حالياً / يستلم مكافأة عشرين ألفاً من الفرنكات شهرياً. و(الأقدام السوداء) السعيدون بالاحتفاظ بامتيازاتهم على حساب دم الجنود، استدعوا إلى (الوحدات الإقليمية) الجديدة. والسلطة المدنية العاجزة تخلي المكان أمام السلطات المطلقة للجيش الطامع بها.

حتى / لاكوست / ذاته بدّل من صورته. فبعد (Bugeaud) ومحاولته الفاشلة لتهدئة البلد، ها هو دور Tartin "معركة الجزائر" و"ربع ساعته الأخير" الذي لا يعثر عليه. وها هي الحماقة التي تضاف إلى الخراقة.

يقول المثل " من يستطيع الأكثر، يستطيع الأقل". إنّ قلب هذه الحكمة يعطي معنى معاكساً وأحمقاً. فمن يعجز عن كسب معركة كولونيالية، هل يمكن له ان يكون مؤهّلاً لخوض أخرى وربح الإثنتين معاً بذات الوقت ؟

كما أنّ وزراء / الفرع الفرنسي للأممية العمالية، S.F.I.O / هم أكثر خبثاً من (العماليين) الإنكليز المناوئين (للحملة على مصر). والحكومة الإشتراكية- الأمبريالية في باريس لم تكن تحلم فقط بنزهة عسكرية بسيطة لاستعادة قناة السويس، إنما تعتقد أنّه بانتزاع الكولونيل ناصر، تبعد فرنسا أيضاً " ديكتاتوراً " وتقضي على التمرّد الجزائري في المنبع.. في القاهرة.. !

لكن، "وأسفاهم"، لا بد من الظعن و الرحيل. ولابد للـ C.G.T - F.O./ المنظمات النقابية العمالية / من تبديل لهجتها أمام النجاح المزدوج للنقابية العمالية التعاونية البريطانية / Trade - union /. و كذلك، لا بدّ لبعض مثقفي اليسار الذين أصبحوا حسّاسين للعصبوية الفرنسية، عبر تعاطفهم مع " إسرائيل "، من أن يغطّوا رؤوسهم برماد تكّهنات " عرافتهم " السياسية.

ومن جهتهم، فإنّ المظليين السعيدين بمغادرة (جبالنا) كي يتذوقوا أخيراً طعم "الحرب الخاطفة" في سهول النيل، يبلعون حقدهم، عائدين إلى الجزائر، لحرب حصار طويلة، هي ايضاً – وزيادةً – دون أبّهة ولا أوراق "غار".

ففرق "النخبة" مجمّدة في المدن والأكواخ، للقيام بالمهام المهينة والعقيمة. حيث أنّه، عندما تبدو العمليات المدينية، كما لو تراخت، فإنّ دماً نضراً يعطيها بأساً جديداً عبر الحقن ـــ بالاتجاه المعاكس – لجنود جيش التحرير الوطني. فالمجاهدون يصبحون فدائيين.. جنوداً دون بزّة عسكرية.

4 ـ خميـرة النشاط النفسـي : ليس العنف المديني آلية تدور في فراغ الصمّ-البكم الفوضوي. إنّه عضو حيّ مرتبط بالحركية العضوية للثورة التي لا تتجزأ.

إنّ رؤية النشاط الحضري المسلح، من زاوية "الأخطاء وأصدائها السلبية" فقط، وعدم الاحتفاظ إلاّ بالجانب المادي "السلبي" أحياناً، إنما هو التيه في المحاكمة المبهمة لنصف المثقف الذي يحتقر الرياضة. حيث انّه، في ردّ فعله الجزئي المنحاز، لا يقدّر أنّ الثقافة الجسدية، مثلاً ، ليست هي فقط، تمارين العضلات و القلب و التنفس. إنما تنظم أيضاً الجملة العصبية، وتوقظ الذاكرة، وتضمن التوازن النفسي- الجسدي.

ففي المدن، لعب " متطوعو الموت " بالطبع دور قوّة الجذب المغناطيسي. فعند النساء، أحيطوا بهالة من التقدير الأسطوري – ذاته – الذي يضفي النبل على الجنود الرسميين. و المشاعر الجماعية – وطنية ودينية – تجاه المجاهد تختلط مع الإعجاب بالمحرر الذي يضرب يومياً موعداً مع الموت.

هذه المشاعر تتفاعل بكثير من القوّة في الأعماق الجماهيرية، وتترجم بتضامن ناشط تجاه الأبطال. إنّ مواقف الإخلاص و الشجاعة و التفاني النادرة في 1954 أصبحت جميعها عملة رائجة، بدءاً من 1956، مع ولادة حرب العصابات في المدن.

المسلمات حسّاسات بامتياز إلى المصير السماوي للمجاهد الذي يمجّده الإسلام، كونه فوق الضعف الإنساني. فهنّ يوفّرن الملجأ والطعام و الغسيل لمنقذي الوطن المنتهك، وهنّ يعالجن الجرحى، ويخفين الهاربين والمطاردين، ويتطوعن بمساعدات عفويات للمجموعات المسلحة، مؤمّنات الارتباط العاجل، وناقلات أيضاً للسلاح و المؤن. تحرصن أشدّ الحرص على حدقات عيون الوطن الجريح، يتامى الشهداء، والشهداء الذين قد يوارون التراب بملابسهم، حيث يعفون في الواقع من مراسم تطهير الموتى، من غسل وتكفين في كفن نقي.

هكذا ندرك كيف أنّ العنف في المدن لا يتدخّل اعتباطياً في نمو المقاومة الجماعية للشعب، بل يفعل في وسط ترابط تعايشي منسجم. حيث توفّر الشروط المباشرة الموروثة في المجتمع الإسلامي مقومات تداعمه المتبادل.

فلنفصح عن هذا الفعل المتقابل بمثلين من اتجاه معاكس : في الحالة الأولى: نلاحظ دور العنف المديني كضابط سياسي للقوى الشعبية.

ففي جوان 1956، حصلت أولى العمليات ضد الأوروبيين. لقد مثّلت انتقاماً مشروعاً. بعد أن أعلنت جبهة التحرير الوطني، أنّها ستنتقم لكل من (زبانا وفراجي) جنديين من جيش التحرير الوطني، اعتقلا باللباس العسكري، وأعدما بالمقصلة خلافاً للإتفاقيات الدولية حول أسرى الحرب.

في جويليه من العام ذاته، كانت أول عملية عمياء. جريمة متطرّفة. ! القنبلة الكولونيالية الأولى التي وضعت ليلاً في شارع Thebes ، لتفجير عدّة دور عربية مع حصيلة 53 شهيداً ومئات الجرحى.

لقد أصبحت (القصبة) في حالة غليان. و الجماهير في حالة غضب تدعو للانتقام، مما استدعى التدخل المباشر للفدائيين و الفدائيات لتهدئة الحنق الشعبي. وبما يشبه الجمر المغمور بخبث الفحم (الدقداق) الذي ينعش توهّجه.

" أمام اللامبالاة التي تبدو تامّة من طرف الرأي العام و السلطات العامة، فإنّ المسلمين جدّ قلقين. فلديهم من الآن فصاعداً، شعور بأنهم متروكون لمصيرهم دون دفاع ولا سلاح ولا ملاذ شرعي من أي نوع، عرضة للقتل بكل بساطة. وحين تتفجّر أولى قنابل جبهة التحرير بعد شهرين، فإنّ قطاعات أكثر فأكثر اتساعاً

تستقبل الحدث بابتهاج، وتنظر " لواضعي القنابل " - بكل بساطة - " كحماة الشعب وأبطال الوطن "[5].

مما لاشك فيه أن هذه الرابطة الحميمية مع الجماهير. بل هذه الحياة وسط الشعب، هي التي جعلت جبهة التحرير الوطني قادرة على تجنّب الحيوانية المنفلتة من طرف /O.A.S/ .

لقد أدّى العنف في المدن - عنفنا التحريري - د ور صمام الأمان. فلقد سمح للوطنيين المقرّحين من هذه المواجهة غير المتكافئة، المتمردين على الظلم الفرنسي المستمر في تسلّطه على (الأفارقة) دون الأوروبيين، على الدوام.. سمح لهم " بتصريف كبتهم " والحفاظ على هدوئهم واحترام النظام الثوري.

نعم ! ففي مدينة الجزائر ووهران وقسنطينة وتلمسان وتيزي وزو وسطيف ..الخ، فإنّ فرق الموت تعاطت كقوّة سياسية للجم سلوكات " جماعات Saint-Barthelemy .." .

كما أنّه، و بعد طول تأخير، يراد إنصافنا :

" مما لا شكّ فيه، فإنّ التحكّم الصارم لجبهة التحرير الوطني، وليس الخوف من الجيش الفرنسي، هو ما حدا بالمسلمين أن يمسكوا أنفسهم عن إطلاق العمليات الانتقامية ضد الأوروبيين[6].

لنتناول الآن، الحالة الثانيـة، المعاكسة (للفعل التعايشي المنسجم).

إذ بالمقابل، فقد وفّر التحوّل العميق للقوى الشعبية، البرعمة الخصبة التي لا تتوقف، وكنسغ تغذية للعنف في المدن.

وإذا مثّل " واضعوا القنابل " وجه " حماة الشعب " ، فإنّ الكمون البشري لا ينفد أيضاً. كما أنّ هذا الاختبار يبطل الحجّة المضحكة لهؤلاء العقداء البلهاء الذين يريدون تفسير هذا التجدد الفيّاض لمرشحي الخطر والمعاناة والشهادة، بالإكراه (من قبل جبهة التحرير! ؟).

إنّ تجنيد الفدائيين يتم بتطوع مطلق الحرية. و بمقدورنا تسمية الفتيات " المقنبلات " اللواتي فلتن من تفكيك الشبكات، ورفضن أيضاً استئناف أي نشاط (بسيط) لا يتسم بالمخاطرة والمجازفة بحياتهنّ.. !

---

5. جرمان تيّون ، Germaine Tillon Les Ennemis Complementaires، باريس، 1960، ص 177-176.
6. L'express. 8 -3-1962.

إنّه مقياس الإسهام النسوي في انطلاقة ثورتنا الكبيرة. والكتيبة المدهشة للمجاهدات المدينيات، إنما هي على صورة الإجماع الوطني. فإلى جانب تنوّع الأصول و المذاهب، يضاف التنوّع الاجتماعي (فتيات - ربّات بيوت) أو المهني (طالبات حقوق أو طب - موظفات - عاملات بيوت - مستخدمات أو طلبة تمريض - معلمات لغة فرنسية أو عربية - راقصات - مذيعات - ممثلات - قابلات قانونيات - طبيبات..).

ياله من كنز مذهل من التفاني الفردي والجماعي. والجزائريات - جميع الجزائريات - استعدن حقّهن الكامل كمواطنات. وسيخلّدن الذكرى الأبدية للشهيدات، الأخوات اللواتي سقطن في المعركة التحريرية المزدوجة. فإليكم بعض الأسماء من لائحة طويلة جليلة :

- زهية : التي استشهدت و سلاحها في يدها إلى جانب (رامل).

- حسيبة بن بو علي : التي دفنت حيّة مع / علي لا بوانت / والفتيان : محمد 17 عاماً و عمر 13 عاماً.

- وريدة مدّاد : التي ألقي بها من الطابق الثاني لمركز التعذيب في مدرسة Sarrouy.

- بهيّة : التي افتك ذراعاها على أعمدة الخشب وأحرق ساقاها حتى التكلس..

إنّ الناجيات من قديمات المحكومات بالإعدام من قبل المحاكم العسكرية، تعرفن كيف تهززن مشاعرنا حين تتحدثن بتواضع مدهش عن نشاطاتهن المحفوفة بالمخاطر. ونأمل أن نرى غداً في أدبيات المقاومة شهاداتهن المباشرة، حيث الكلمات العادية، في ذكرياتهن عن سجن Fresnes، تتحول بالطبع لفيض من بساطة /"الأديب" راسين/.

هكذا فقد شكّل العنف المديني - إذن - نسغاً خلّاقاً لبطولية ثورية ستتفتح في السلم المستعاد بصيغة إرادة تحوّل المجتمع، عبر التحرّر الناجز للمرأة الجزائرية.

لقد حاولنا إظهار، كيف أن جبهة التحرير الوطني نجحت في قيادة العنف الحضري، بتنسيق التناقض بين الواقعية التاريخية و المثالية الثورية .

إنّ إفلاس الحزب الشيوعي الجزائري يماحكنا على الصعيد الأخلاقي. فالنشرية الشيوعية تحدّد :

" الرفيق الجزائري، بعد أن بيّن كيف أن نقص الرابطة السياسية العميقة بين الجيش و الشعب الجزائري يقود إلى علاقات سلطوية، يضيف : أنّه يجب أخيراً منع

بعض العناصر المشبوهة من الإساءة - بسلوكها - إلى الهدف النبيل المرفوع أمام شعبنا، واتخاذ الإجراءات الأكثر جذرية ضدهم ".

فمن المثير للفضول ملاحظة أن نشرية (UNIR) لم ترى أنّه من المفيد أن توضّح لنا كيف " يبيّن " المفلس المحتال للحزب الشيوعي الجزائري هذا النقص في العلاقة- العميقة.. ! ما من حظ له. فلقد لاحظنا باستمرار، انّ الشيخ- المستشار أكثر خصوبة في الادعاءات منه في التفاسير التي تستطيع إلقاء الضوء على المسائل التي يقدّمها، كحقيقة دون أن يبرهن عنها أبداً.

ماذا يعني مثلاً، نقص الرابطة بين جيش التحرير الوطني و بين الشعب، بما يقود إلى "علاقات سلطوية" ؟ إذ مع مساعدة (شهادتنا) الفرنسية (Le C.F.P.E.A.T.I./)[7] نقدّم المعنى المهذّب "لفلاّقة ترهب الجماهير".

كلاّ أبداً. فجبهة التحرير الوطني، لم تكن يوماً معزولة عن الشعب الجزائري. فمثلاً، لقد كانت مقاطعة التبغ، نتيجة تعليمة صارمة. ومخالفة الخمسة آلاف فرنكاً كانت متبوعة بعقوبة زائدة ضد المدخنين المصرّين على استمرار عادتهم، حيث أنّ الخروج على الطاعة العامة يكتسي طابع التحدّي المثير. والتشويه الجسدي المؤقت (للأزلام) المذنبين، أصحاب الأنف المقطوع، لم يثر أبداً شفقة أكبر من رجم السكيرين و(مفطري رمضان)، تجلدهم مجموعات الأطفال، المدافعين / بتعصّب / عن الزهد في الأهواء والاعتدال في الطعام، وعن الأخلاقيات العامة.

هل يراد القول أنّ الإكراه هو الطريقة الوحيدة للإقناع، والشكل الوحيد للضغط السياسي -التربوي ؟ إنّها اللامعقولية المصطنعة التي يتمنّى ذلك الشيوعي السفرولوجي *سجننا فيها. أما المثال الجليّ المستخدم لتعليمنا الفضيلة، فهو جريمة فاجرة بستار سياسي.

عدد من الجزائريين المسجونين في مرسيليا، بتهمة قتل مناضلة من جبهة التحرير الوطني في Martigues.

" الجريمة الوحيدة لهذه الجزائرية - حسبما يقولون لنا - كانت على كل حال، رفض اقتسام سرير مسؤول محلّي مدّة أطول ".

---

7. شهادة الدراسات الإبتدائية الأساسية، برسم " الأهالي ".

* من Sophrologie، وهي جملة التمارين التي تسمح بالسيطرة على الذات جسدياً و نفسياً، و تؤدّي إلى الاسترخاء. المترجم.

هل هذه الرواية للقضية هي الصحيحة ؟

نحن لا نشكّ بالنزاهة المهنية و الفكرية لنشرية " رابطة قدماء المناضلين للحزب الشيوعي الفرنسي، الذين استمروا على وفائهم للمبادئ الماركسية-اللينينية "، خاصّة عندما نعرف أنّها منشورة تحت إشراف Marcel Prenant، وهو عالم أكيد وأستاذ في كلية العلوم، وقائد سريّة كبير، و الزعيم السابق لأركان القنّاصة والأنصار.

لاشكّ، أنّ الأمر يتعلق بجموح غير مناسب، لمحرر جاهل بالقضية الوطنية والكولونيالية. فإلى جانب إضافاته إلى أطروحات "الرفيق الجزائري "، إنما يريد الانتصار لحساب قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي، التي لم تعتقد مناسباً إعادة نشر المقالة المنشورة في Kommunist على صفحات صحيفة الـ / Humanit/.

إنّ تناقض الأخوة -الأعداء يلعب على ظهر جبهة التحرير الوطني، مع مراكبة الظلم و النفاق والخطأ.

وعلى المنافقين - الجزائري والفرنسي - ألاّ يستعجلوا بالإبتهاج - كتلك العجوز التي فاجأت السارق. فالتخمين المعتمد كحقيقة، أليس هو جريمة " فرويدوية " نموذجية، أو حدث احتماعي وظاهرة إنسانية، مستقلّة بوجودها عن الثورة الجزائرية ؟

ففي فرنسا، لا يعدو مثل هذا الأمر (الجريمة) أن يكون واحداً من /المنوّعات اليومية/. إذ أنّ الصحافة تتحدث يومياً عن عواصف قلب زوج مطعون، أو أيضاً عاشق أحمق أناني، وليس هذا فقط بل يعوّضان فشلهما بقتل تلك الضحيّة المزدوجة التي لم يتمّ فهمها.

حتى في ظلّ المقاومة الفرنسية، فقد كان هكذا حدث أمراً عادياً أيضاً. وربما كانت الفظائع عند الشيوعيين علاقات إجرامية دون إراقة دماء. مع ذلك فإنّ تحطيم الروابط الزوجية، كان أكثر مصادفة مما هو في وسط الفسق الممتهن. بل و بين لصوص سرقة نساء المناضلين. هناك واحد على الأقلّ، ما زال عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي، وأصبح وزيراً بعد التحرير..

إن من حقّنا أن نعتقد أن الحنق مصطنع. إنهم يلعبون بالألم بهدف المماحكة، أكثر منه في أصول الأخلاق.

نحن من تتمزق أرواحهم لهدر دم عزيز لمناضلة من (فدرالية فرنسا "للجبهة").

فالجزائريون هم الأكثر حزناً، لأنّهم بطبيعتهم حسّاسين لجراح العفّة. لذا ليس من باب الصدفة أن يكون تصرفنا النفسي الأول قد قام على إعادة نشر الصور الموجودة لدى العسكريين، والتي تثبت الاعتداء على شرف الجزائريات.

لقد سبق وبيّنا جيداً من قبل، كيف أنّ الفدائي الذي يقدّم كل يوم حياته فدية لتحرير الوطن، إنما يسبح في فضاء التقشّف الذي يجعله فوق الضعف الطبيعي. والأخلاقيات الإسلامية تدفعه نحو الفضيلة التي تشرّف الطبيعة الإنسانية. أما الفدائية، أخته في المعركة، فهي تقدّم مثال الطهارة الغريبة عن نشوة الشبق والشهوانية.

فالدخول في عالم الشهوات قبل الزواج، إنما هو تجسيد الزنى. أما في الحبّ، فنحن شرقيّون. وطهريتنا تصاهر التقشّف الطبيعي للسوفييت والصينيين. فالثورة و التخفّي قادا فدائيينا و فدائياتنا إلى العيش كأخوة وأخوات. ورقابة المجموعة - كما حدثتنا طبيبة صينية - هي أكثر يقظة من مراقبة الراشد.

" مثلاً، هناك طلاب وطالبات يذهبون غالباً، في مهمات استكشافية من طبيعة جيولوجية أو نباتية أو أخرى. وقد يقضون لياليهم سويّة في ذات الغرفة، دون أن يحدث أي ولوج في العلاقات الجنسية أو حتى أدنى قبلة.. !

كم من مرّة تقاسمت المقصورة نفسها في القطارات، لأيام و ليال دون أن أكون أبداً موضع كلمة أو إشارة يمكن لها أن تفسّر " كغزل تمهيدي ". هنا، يوجد فرق شاسع بين المرأة الغربية والمرأة الشرقية. ففي حال أنّ الأولى تنقبض إذا لم يحدث التعبير عن تقدير مفاتنها الجسدية، بحركة أو كلمة غزلية ظريفة، فإنّ الثانية ترى في هكذا مبادرات سلوكاً فظّاً و مهيناً "[8].

لكن هؤلاء الوطنيين، ليسوا جميعاً ملائكة. وحتى جنود السماء أنفسهم يستسلمون أحياناً إلى الجحيم، إلى سعير الجسد. كما أنّ الأساطير اليونانية والفارسية تشير إلى نزول الآلهة والجنّ إلى الأرض ليتحدوا مع البشر.

والقرآن يعلّمنا أن الملاكين (هاروت وماروت) كانا يسخران من الإنسان. فأرسلهما الله إلى الأرض - ليمتحنهما - مع الأمر الصارم بألاّ يمسّان بطهارتهما الروحية. وحين أصبحا على الأرض، كان أن افتتنتهما امرأة خلاّبة. وكعقاب على سقوطهما في الخطيئة فلقد سجنا في بئر ببابل[9].

الجزائريون، إذن، ليسوا بقديسين. و الحدث المحدد في Martigues، يحفظنا من غرور الاعتقاد بعصمتنا. علاوة على أنّ منطقة مرسيليا ليست بالمؤاتية، مع شمسها الدافئة وكلامها الفجّ و فسقها المكشوف : من دور السينما الخلاعية،

8. Han Suyin، مؤلّف " البهاء المتنوّع "، L'express، 1961 - 6 - 21 .
9. السورة 2، الآية 102.

واستعراضات التعرية، وهزّ الأوراك المنفوخة المثيرة.. كلّها إثارات غرامية تدفع الروح إلى السقوط الجسدي و النفسي.

أي (قديس أنطوان هذا) الذي يستطيع أن يصمد أمام الإغواء الذي تعززه تشفّيات أستيريل (Esterelle)، في ثوبها الجنّي الحديث، والتي كما يصفها Frederic Mistral في قصيدته كلاندال "Clendal" :

آه من (هذي) الجنّيـه.. تأخذ تبّعها في حنّيه تشبكهم فوق بساط من شُغف تأسرهم بأصابعها ما بين تضاريس الخزف ثمّ.. تنغلق.. كالصدف تلهبهم من عبق الضمّ من حمّى عراك محتدم تنفخ في كل زاوية منهم ألف شهيّه تنفث ما بين تلافيف الروح نيران عصيّة حتى حين يطيب العشق فيهم.. حين تختلط الألوان عليهم.. تقذفهم في كيس اليأس كمناديل ورقيّة بللها عرق السادية فجهنم - يا أهل العشق - بعض من شبق هكذا جنّيـه*

بطل الوطنية لجنوب المتوسط يسيطر على النزوة الحيوانية فيه. لأنّه يبقى وفيّاً للحب العذري الذي تغنّى به الشعراء الجوّالون. لكن (Calendal كالاندال، أو الموعد الذي لا يأتي أبداً) ليست مجرّد عمل أدبي محض. وباريس هذه لم تحييه كرائعة جديرة بـ Mireille.

أما / فردريك ميسترال /، فإنّه يمجّد في هذا العمل " روح وطنه" مندّداً بهؤلاء الصليبيين - برابرة الشمال - الذين دمّروا قصور الوسط (Midi) مسببين تعاسة عرق هو أكثر إنسانية وأكثر فخراً.

من جهة أخرى، فإنّه يثير ذكرى (هينبال) ، وهو يسطر على الرون (Rhone) وجاذبية البروفانس (Provence) بهندستها العربية، والتعاطف تجاه البحارة المغاربة :

" طليعة الشواطئ البربرية التي تصل الأولى إلى معرض (Beaucaire)، يقدّمون تحيتهم بطلقة مدفع، ويتلقون خروفاً رائعاً ترحيباً بهم ".

على كلّ حال، ليس هناك ما يقابل حياة متواضعة في وطن حرّ :

" أفضل لنا أن نكون في Cadolive نضحك و نأكل الزيتون، من أن نكون في باريس نتناول أفراخ الحجل، ونحن قلقون ".

هذا الشعور هو أيضاً أحاسيس Gonfaron، ذلك البحّار البروفانسي الذي ترفّع إلى جندي إنكشاري (تركي). فبعد أسره من قبل الجنود البربر، ها هو يتنبّه-

* . الترجمة الشعرية بتصرّف للمترجم : م.س.

بذكائه العملي – و يعتنق الإسلام. كلّ شيء (على ما يبدو) ينجح على يديه. فلقد أوقع بنت السلطان في هواه. و ها هو أيضاً عشيّة زفافه، يسمع، حين كان يهيم على الشاطئ، أغنية من بحارة مرسيليا. عندها، لم يصمد قلبه الجاحد الذي نفخ فيه الشيطان من قساوته، فيذوب انفعالاً".

وداعاً أيتها البهارج الملكية والموائد الغنية.. والبساتين الأريجية. ثم يرتمي في البحر، و يشقّ عباب الموج نحو مواطنيه، وهو يغنّي هذه اللازمة، بلهجته الشاعرية:

كأس الحبور في جوار أميرتي هو سكرة الروح بجنّات " محمد" لكنّ طعم الكستناء في ظلال هضيبتي أو فوق صحن بحيرتي لا شكّ، أسعد في الهوى من أي عشق.. إن تقيّد.[10]*

إنّ محطات القدر هي أقلّ موالاة اليوم للجزائريين الباحثين عن الثروة في بلد (شارل مورّاس Maurras). حتى بالنسبة لهؤلاء الذين هجروا أصلهم وتغرّبوا مع نزوع تحديثي، يحتفظ بمسافة من الحرية عن الأخلاق العربية-الإسلامية.

إنّ الشاب الجزائري، بعيداً عن التقاليد القديمة (للحرمة) و احترام " الشيء المقدّس " وفي المقدّمة المرأة، أصبح في فرنسا منبوذاً ومسحوقاً ببؤس الإفتقار الموضوعي وبعدم القدرة على سد الافتقار الذاتي. فمنذ حرب الجزائر، أصبحت العنصرية تهينه في كرامته (حيث ترفض بعض الحانات خدمته)، وتهينه في رجولته (حين أصبحت الفتيات تتجنّب ذلك الذكوري الذي كانت تستقبله سابقاً / على شراشف مفتوحة /). هل يتوجّب التعجّب من معرفة النهاية المأساوية لمغامرة يضطرب الرأس الضعيف فيها أمام كياسة عصبيّة، خاصّة عندما يفاقم النظام الاستبدادي العسكري – الذكوري من حنق رغبة خائبة ؟.

ما هو مفاجئ في فرنسا، هو – بالتحديد – أن يكون هذا الفعل نادراً في اختمار الحياة المنحطة. فهذه الفوضى الأخلاقية المثيرة للإجرام غير واردة عندنا، ليس لأنّ الشيطان غير قادرعلى إفسادنا، و قد نجح في جرّ الملائكة إلى الهاوية، إنما لأنّ تأثير وسطنا الاجتماعي يساعد على النضال ضد الذات و ضد نزواتنا السفلية. وكذلك بسبب من مزاوجتنا الوافرة والمبكرة، وأخيراً بفضل بساطة الزواج والطلاق.

---

10. F. Mistral Piere Lassèrre الشاعر و الأخلاقي و المواطن "، منشورات Promethe ، باريس 1918 ، ص 260.

* الترجمة الشعرية – بتصرف – للمترجم ا م س،

فمن الممكن عقد زواج شرعي دون الحاجة إلى قاض و موثّق، أو إلى رئيس بلدية أو المحاكم الفرنسية. فالزواج (بالفاتحة) هو ممارسة عرف سائد. كثيرون هم الفدائيون والمجاهدون الذين تزوّجوا شرعاً في المدن والجبال، بترخيص رسمي من جيش التحرير الوطني او جبهة التحرير.

زيادة على ذلك، هل نعلم أن التربية الجنسية تنتقل شفاهياً عبر تقليد من عمر الزمان ؟ فكثيرون هم الجزائريون غير المتفرنسين الذين يعرفون سرّ السعادة الزوجية : بداية، إسعاد الزوجة بجعل الحبّ طبابة و علماً و فنّاً.. ! وأخيراً، فإنها تقع في صلب الحب المشترك من الآباء نحو أبنائهم.

لنكن دقيقين، حتى أمام وشاية الشرف. فلقد قيل :

" هكذا، فإنّ الذي يتكلم بطيش، إنما يجرح كالحسام. لكنّ لسان الحكماء يحمل الشفاء "./ حكمة سليمان (بن داوود) Salomon – التوراة المقدسة. 12، آية 18/.

ليس لنا أن نخجل أمام المآسي من طبيعة عاطفية، والتي تعاقب عليها جبهة التحرير وجيش التحرير الوطني – دون أدنى شك – بالحزم الثوري.

من المعلوم أننا نكنّ للعدالة إجلالاً حارّاً. و حين يحدث أحياناً خطأ قضائي – الله غالب – فإنّ جبهة التحرير لا تتوانى لحظة عن التدخّل السريع لتجنّب ما لا تحمد عقباه. وهذه هي مجلة شيوعية تحمل شهادتها في الحديث عن دور المحاربين المسبّلين : الأنصار المدنيون المسلمون.

" يمكن إرسال محارب منتدب، بعيداً جداً عن منظمته الأصلية لتنفيذ قرار الإعدام بحق هذا الفرد أو ذاك من المحكوم عليهم بقضية " جرائم ضد الشعب الجزائري "[11]

إنّ الحقيقة النفسية السياسية القائمة، هي مختلفة تماماً عن الفكرة التي يكوّنها الشيوعي الفرنسي أو المهاجر المتفرنس، الذي يتحدّث عن جزائر يجهلها. فتحت إشراف جبهة التحرير، إنما تضع الثورة نفسها في موقف دفاعي لإنقاذ الشرف الجماعي والفردي. فكل جزائرية وجزائري واع لواجب الابتعاد الطوعي عن الفساد للوصول إلى التقدم. وليس صحيحاً أنّ الفعالية هي بالضرورة غير طاهرة. بل إنّ سلوكنا الجمعي الشخصي يثبت – على العكس – أنّ الطهارة هي صاحبة الجدوى.

كيف يجوز الشكّ بذلك، عندما لا يبقى العمل الانقلابي والكفاح المسلّح من ميزات الذكورية فقط. فالنساء حاضرات في كل مكان في الثورة الوطنية.

11. La Nouvelle Critique، جانفي 1961، ص 15.

يا للسعـادة.. !

حيث لا يجوز أبداً أن ننسى خطّة الإبادة للفرع الفرنسي للأممية العمالية /S.F.I.O/، لنتمكّن من تقدير هذه المقاومة الخارقة بما فوق طاقة البشرية، والتي لا يرقى إليها الشكّ، تقديراً سليماً. فالسيدة Germaine Tillon تؤكّد حقيقة الإبادة التي يمارسها / لاكوست وغي موليه / ببساطة مذهلة :

" باختصار، في حدود سبتمبر 1956، تلقّى الجيش الأمر بسحق الكوادر السياسية - العسكرية للإنتفاضة " بكل الوسائل ". وهذه الإطارات السياسية - العسكرية هي في الواقع : جميع الوجهاء - ونخب المدن - وكل الشبيبة المتعلّمة"[12].

المجلّة الشيوعية المذكورة تثبت الشهادة حول جرائم الحرب. فهي تشير إلى الاستنتاجات الخاطئة للضباط الفرنسيين الذين " يقومون بتصفية منهجية شاملة للعناصر الذكورية ". ويقتلعون شعرهم (هكذا).. ! أمام المفاجآت المزعجة (هكذا إذن) :

" يمكن أن يكون هؤلاء المحاربون نساء. ففي الثامن من ماي 1960، أثناء معركة غابة في الشراسة في المديّه (80 كيلو متراً إلى الجنوب الغربي من مدينة الجزائر) عديد النساء الجزائريات كنّ يساهمن في المعركة إلى جانب مفرزة جيش التحرير الوطني "[13].

مثال آخر غير منشور. فقد عثر الجيش الفرنسي في حقيبة محافظ سياسي استشهد في كمين في منطقة معارك / تابلات/، على وثيقة غاية في الأهمية. لقد كانت خطّة التحرّك السياسي والعسكري لمنطقة الجزائر العاصمة، حيث أنّ جبهة التحرير، بعد تعرّضها إلى التدمير المتكرّر، كانت تنبعث في كل مرّة من الرماد.. لكنّ الأمر الذي كان يثير فضولية الضباط النفسانيين، هو أن كتابة الوثيقة تعود إلى امرأة. فهذه المراسلة المباشرة هي مضاعفة الغرابة. حيث أن جيش التحرير الوطني لم يكن قد قدّم برهاناً بعد عن الانتماء النسوي له. إذ يقبل إسهام المساعدة النسوية كقوّة إسناد مرؤوسة. إلاّ أنّ هذه الترقية تثير اهتمام " العارفين " بالنفسية البربرية الإسلامية..

(فاطمـة ما)، زعيمة شبكة ؟

فلقد تمّ إيقافها ليلاً، بعد نشر قوات مخصصة عادة لاعتقال "الزعماء الإرهابيين"، ومن ثمّ تمّ تعذيبها خلال 22 يوماً. إلاّ أنّ هذه (المجاهدة) المعذبة حافظت - بإصرار

---

12. O.C. صفحة 18 .

13. La Nouvelle Critique ، " الجيش الفرنسي و استراتيجية جبهة التحرير الوطني في 1960".

- على تصريحاتها. لم تبحث أبداً أن تتصرّف " بصيغة جان دارك" حسب تعبير أحد السجانين. " لست سوى جامعة أموال بسيطة ". ولم يعثروا في دارها على أي سلاح أو قنابل أو بيانات أو وثائق لجبهة التحرير الوطني. أمّا وظيفتها في الجبل فقد اقتصرت على " نسخ " نصّ، أتلف فوراً كي لا يعثر على أي أثر لصاحبه. وهي تعترف بأنها سجنت لمدة سنة، إلاّ أنّ المحكمة العسكرية كانت قد برأت ساحتها. إنّها أمّ لأربعة أطفال. وزوجها كان أن اختفى، مهنتها الخياطة، وثقافتها بدائية دون الشهادة الابتدائية.

ألم يقع الضباط النفسيون فريسة خيالهم الخاص وهم ينقلون إلى الجزائر صور أعمال مقاومة (لحضارة أعرق..)، كما هو الحال، في فرنسا أو الصين أو فيتنام ؟ لقد لاموا أنفسهم حين فكّروا أن عربيّة - حتى ولو كانت جامعية - تبرهن عن تركيبة ذهنية تجمع بين العنف الحضري واستئناف نشاط نقابي مطلبي، كذلك مساعدة عائلات المسجونين، و القصاص من مناضل (F.O. = نقابة القوّة العمالية) حاول المساس بذكرى الشهيد عيسات إيدير، النقابي المغدور، وتنظيم مظاهرات النساء لحماية الفتيات ضد وقاحة المتسكّعين..

لقد كان قبول امرأة - في ديسمبر 1959 - في منصب مسؤولية، حيث تصبح المبادرة بديلاً عن مجرد الإستشارة، و حيث أنّ الأمر يمثل اختباراً أكثر منه رمزاً -حدثاً، يكشف عن نضج الذهنية و يحطّم خرافة (الطبيعة الخاملة) للجنس الضعيف. إنّه يعلن تفسير العنف المديني والنشاط الجماهيري مع المشاركة المذهلة للجزائريين.

في ديسمبر 1960، حدث (عجائبي) يفاجئ الأعداء و المتخاذلين الذين اعتقدوا جميعاً بالنصر " النهائي " للمظليين في " معركة الجزائر العاصمة ". ومسؤولون كبار استخلصوا أيضاً " فشل " الإضراب العام لـ ثمانية أيام، في الوقت الذي أدّى نجاحه الأكيد الهدف المتوخّى وهو : الاستفتاء على جبهة التحرير الوطني، أمام الأمم المتحدة، كممثل شرعي ووحيد للشعب الجزائري[14].

ورغم البربرية المرعبة من العصر الحجري، فإنّ روح الثورة الجزائرية بقيت تشعّ أملاً. بل أكثر. حيث كانت تتبدّى قوّتها المتجدّدة في الشوارع عبر المواكب الوطنية للنساء المتشحات ببياض حايكهن، وهنّ يلوحن بعشرات الأعلام الخضراء والبيضاء.

14. Robert Gautier ، صحيفة اللوموند، 1962 - 2 - 21 : يمكن بالمقابل لمنشّطي الجبهة أن يفتخروا بالانضمام الشعبي الواسع. لقد بيّنت إضرابات ديسمبر 1956 و جانفي 1957 أنّ شعاراتهم محترمة بشكل عريض. كما أنّ جميع محاولات تشكيل قوّة ثالثة باءت بالفشل.

لكنّ الضباط النفسيين لن يترددوا في بياناتهم المضحكة، في أن يعزوا " انبعاث" جبهة التحرير بتعبئتها الجماهيرية إلى التدخل السرّي للحزب الشيوعي الجزائري المتحنّط..

وهؤلاء (العقداء) الذين يحاولون تزيين طير زرياب (الغرابي) المغرور بريشه، إنما يسعون لتخدير ضمائرهم. حين ينظرون إلى فشلهم كمدعاة شرف ، طالما أنّ خصمهم الذي لا يقهر هو عملاق ذكي و خبير : ألا وهو الشيوعية العالمية.

آخرون قد بقوا فريسة اللغز. و لم تفوّت صحيفة / اللوموند. فرصة تسجيل هيجانهم العاجز أمام زغردات (يو - يو) "الفاطمات الهستيرية " وهي تصمّ آذانهم.

ظاهرة غريبة. إذ، كيف تكسر الهدهدات الفولوكلورية لبنات حواء أعصاب المرتزقة. وتشعل أيضاً الغضب الممقت ضد حواء، لدى أولئك (الشارلمانيين) من السبريانيين (نسبة إلى القديس Cyprien أب الكنيسة في قرطاجة).

قبل الثورة، كانت (اليو- يو) صرخات الحبور للمغربيات في المناسبات التقليدية من: خطوبات - وأعراس - و ولادات أو ختان - وعودة الحجيج من مكّة..الخ..

لكن تعبيرات الفرح هذه أصبحت نادرة منذ عام 1955، قبل أن تختفي تماماً من الحياة الاجتماعية، بعد التخلّي الطوعي عن كل احتفال، بغنائه ورقصاته وموسيقاه.حيث أن جبهة التحرير الوطني لم تصدر أي" فرمان" بهذا الخصوص. إنما نتج هذا التوقّف العفوي عن مشاعر الحشمة و الطهارة، حيث تختلط الخشية من الانحطاط في نظر صاحبها ذاته من جهة، إذا ما مدّ من فرحته "الأنانية "، إلى جانب التعبير الصامت أيضاً عن المشاركة بأتراح الوطن، من جهة ثانية.

يالها من غرابة جهنمية، هذه العودة غير المنتظرة (لليو- يو) بما تمثله من غموض، طالما أنّ الحرب الشنيعة لم تنته بعد. لكن، ها هي الولولة القديمة المسالمة و الخافتة المتوضّعة في دار هنا أو هناك..تتحوّل - بفعل سحري - إلى صيحة حرب، تعزفها جوقة نسائية لا تعدّ ولا ترى، كزمجرة عاصفة أرضية تزفر من أعماق رحم المدينة.

" النخبويون " الفرنسيون، هم دهاة أيضاً. فلقد ضللوا آلاف المرات، بفعل دهاء الفلاح والمرأة الفيتناميين. كيف يمكن - إذاً - توقّع أنّ (الـ فاطمات) ستخترع شكلاً من النشاط، محض جزائري، جديداً بتصوره واستخدامه وبساطته و ديناميته وبنجاعته أيضاً ؟ كيف يمكن تفسير امتلاك (عويل) النساء قوّة كنس عقدة الخوف، وزخم انبجاس آلاف أعلام (الفلاّقة) في المدن (الآمنة) وطمر (زرق المراجل)، ولجم المشاغبات الظاهرة للمتطرفين.

لقد أدّت (يو يو) الثورة، بتعبيرها عن عبقرية الشعب الخلاّقة، إلى تطعيم وحي شعرائنا الشباب.

لنحاول أن نعرّف هذه (الولولة) الوطنية.

إنها التنغيم المألوف لعدة نوتات من مقطع واحد، تشرع به في البداية امرأة واحدة، تتبعها تدريجياً أخريات. ثمّ يتسع من بقعة إلى جوارها في تناوب لا ينقطع لمجموعات جديدة. والولولة هذه، التي تبدو رتيبة كالموسيقى الشرقية، إنما تتبدّل في حقيقتها، من حيث الشدّة ومن حيث طابع الأصوات المختلفة، كما لو كان الأمر في جوقة من عشرين ألف مطرب.

وفعلها مثير للأعصاب بمقدار ما هو محرّك للمشاعر. فهي بالوقت ذاته: جار صفّارة الإنذار الصارخة، وتلاوة أنشودة ساحرة، رعود صوتية أو تجويد قرآن أخّاذ. و هذا (التولويل) المناهض للاحتلال يمارس تأثيره العصبيّ بقوّة نفسية تتجسّد مادياً ببطولة جماعية.

لقد فقد مع هذه الولولة، اختصاصيو (شؤون الأهالي) ومتخلّفو "المرابطية السياسية أو (الكوفي)، / لاتينيتهم وعربيتهم الدارجة / ، وأحياناً / بربريتهم /.

هل يجب أن نلمس فيها وباء تشنّجياً جارفاً.. ذهولاً عصبياً سارياً..تأزم جماعة تهذي.. تدخلاً عكس-الطبيعة من الشيطان، هذا الرجيم ؟

كلاّ، فليس هناك ما هو أكثر منطقية. أو أكثر صفاء وهدوءاً من استثمار (اليو يو) كطريقة مبتكرة وأصيلة لفعل جماعي يستنفر كامل سكان (قصبة) هنا أو مدينة هناك.

وبمقارنة جسورة، نقول إن الأمر يشبه قليلاً الكلمة الروسية (Nitchevo) التي تعني (لا شيّ)، لكن، إذا ما استخدمت كصفة أو كظرف، فإنها تؤدّي معان متمايزة و مختلفة، تصل إلى حدّ التفسير القدري : " بفضل الله ".

و اليو - يو أيضاً، صرخات محمّلة بمعان محدّدة و متنوعة حسب الظروف.

حيث يمكن أن تكون : كزقزقة عصافير الليل، أو إشارة إنذار باقتراب دوريات عدوّة. أو صرخة خطر ممكن من طرف "المنظمة المسلحة الخاصة"..

بالوقت ذاته يمكن أن تعبّر عن طلب النجدة، أو مقاومة الإعتقالات. بل وزيادة، تأييد التعليمات المعطاة في المهرجانات الطيّارة.. أو ذلك التشجيع الشامل لإنجازات جيش التحرير الوطني..

وحين يتظاهر الوطنويون بصدورهم العارية أمام الرصاص الوحشي للمظليين، وجبناء المتطرفين المختفين خلف الشرفات، فإنّ /يويو/ الجزائريات الناطقة

بهتافات التشجيع بداية، سيتسمر دون انقطاع كصلاة الموتى المؤثّرة، تمجّد تضحيات (السعداء) الشهداء من ذوي الأيادي " العارية ".

إنّ نغمات اليو – يو التي لا تستطيع أية بندقية أن توقفها، تثقب غشاء طبل قتلة النساء والأطفال.. مضجرة، ناغرة، مذعرة، سيسمعها مصّاصو الدماء في كل مكان، كما في كابوس رهيب القصاص، حتى في قلاعهم أو في المعسكرات، حيث يجفّ دم أخوتنا الموارين في المقابر الجماعية..

إنّ يو –يو النصر، بالنسبة لهؤلاء" الذين تناولوا خبز الخبث و الإساءة " هي الرعب الذي يصادرهم في قلب العاصفة..وفي هوس بموسيقى" نهاية العالم " ..فإنّ (تولويل) الثورة الجزائرية يرافق رؤية هلوسية المدى، حيث يرقص مارد عابر للقارات، كما لو أنّ الابتهاج الشعبي للجزائر، ليس سوى طفرة سياسية لشبح / ديان بيان فو / .

الفصل العاشر

مناهضة القماءة، وليس الشيوعية

«بما أنك لا تعرف طريق الريح، ولا تعرف كيف تتشكل العظام في بطن المرأة الحامل، فإنك لا تعرف أيضا المعجزة الإلهية التي تصنع كل شيء».

يمكننا توجيه هذا التأنيب الكنائسي إلى سكرتير الحزب الشيوعي الجزائري الضالّ. فالمسافة بين الدارس العبيط للإنجيل و«البوهالي» الشيوعي ليست كبيرة جدا، إذ أن أوّلهما يجهل علم الأرصاد الجوية وكيمياء الأحياء، وثانيهما يجهل الأخلاق الجزائرية، والعلاقة بين الإرهاب المدني حركة الجموع لدى شعب مخنوق ومحروم من أية وسيلة شرعية للخروج من العبودية.

إن فكّرنا مطوّلا في الأمر لوجدنا أن المقارنة لصالح العجوز، إذ كان محقا حين يقول «من ذا الذي أمسك الرّيح بين يديه؟». كان الرّجل آنذاك يجهل كل القوانين التي تتحكم في الظواهر الطبيعية، ولم يكن يتخيّل بأن أبناء أحفاده سيمتلكون علما يمكنهم من تجميع الغاز المميع داخل قارورات من فولاذ، في شكل هواء مضغوط أو سائل، أوتقنية التحكم في الكهرباء، أو أنهم سيتداولون قوانين الجاذبية بخفّة أو يغتصبون الفضاء الأثيريّ.

أمّا المعاصر، فهو يريد أن يتجاهل جهله، وبكل عجرفة يواصل تدخّله بتحرّكات لا جدوى منها، في ثورة إندلعت وقاربت نهايتها دونه، وثورة ستواصل مسيرتها إلى مرحلتها الثانية في غيابه.

لا شك أن الحظ كان حليفه حين انتمى إلى آخر دفعة للمرّشحين لرتب الضباط الجزائريين، والذين تابعوا دروس " الكُوتْفْ "في جامعة عمال الشرق بروسيا ما بين 1934 و1936.

غير أنه لا يمكن إعتبار هذا بمثابة إمتحان يؤهل البائس الكسول ليصبح ثوريّا علمانيّا، بدل أن يكون موظفا إداريّا داخل حزب ثوريّ النزعة.

يحضرنا هنا ردّ نابليون على ضابط متحجر الذهن بكلّ خشونة، إذ قال له «كذلك بغلي قطع الألب... دون تطوّر، فقد ذهب بغلاً وعاد بغلاً».

ليست هذه مزحة شريرة، وسوف نجد الفكرة نفسها بأسلوب بياني، غير بغليّ، فيما قاله كاتلنكوف (Katelinkov)، المسؤول عن الإطارات في الكومينارن أو "الشيوعية الدولية " المنظمة التي حلّت في 1943 : «لقد حضر الجزائريون مثلهم مثل الدّارسين القادمين من بلدان مستعمرة، أو من المشرق الأدنى، المختارين، والذين كان يراودهم إحساس بأن جامعة موسكو صهريج طلاء أحمر، يكفي أن يغطس فيه أيا كان ليصير بلشفيا منذورا للإنضمام إلى قيادة أركان الثورة العالمية عن حق».

إن هذا التقدير للأمور تنبؤي ولسوف يؤكده مثال ملموس بعد خمسة وعشرين عاما.

لنواصل ملاحظاتنا، وسوف نرى كيف أن : «منظّرًا منعزلاً عن الشعب يحوِّل علما حيّا ومتحركًا (ديناميكيا) إلى مجرّد ميت، ولبلوغ هذا سنتبنّى شعار إحدى كتائب جيش التحرير الوطني وهو «بلا حقد ولا شفقة» .

فدوريش الحزب الشيوعي الجزائري، يستجلب الغضب على نفسه، ولو لم تتغير الأوضاع لا يستحق أن توسم شفاهه، وهو العقاب الذي يلقاه الكاذبون بحرق شفاههم.

وباللهجة الحاسمة نفسها يواصل هذيانه فيقول : «إلى جانب الكفاح المسلّح، يجب المداومة على القيام بتوعية سياسية بين صفوف الجيش الفرنسي، وبين الشباب الفرنسي، خاصة العمّال والفلاّحين منهم، الذين إستدرجوا إلى حرب غير عادلة لا تخدم مصالحهم، وإن هذا يفترض موقفا أكثر لياقة وأكثر إيجابية تجاه الثورة التقدمية الفرنسية».

لم تهمل جبهة التحرير هذا العمل، وربما لم نباشره بمنهجية ومواظبة، لكن ما هو مؤكد هو أن المناشير الموجهة إلى الجنود الفرنسيين الشباب، وجدت منذ 1955، فالعمل التنويري في سبيل القضية لم يتوقف يوما عن التجدّد والتوسع والتحسن، غير أن المخيخ البيروقراطي للحزب الشيوعي الجزائري هو الوحيد الذي لم يلاحظ ذلك.

إذ أن خموله الفكري حال دون قراءته لأدب حزبه، وإن كانت الوسيلة الدّعائية التي يعتبر مسؤول عنها قانونيا . وثمة نموذج رسميّ من المفروض أن يتحكم به، يشدّد على

هذا التناقض الداخلي. سوف نعزل هذا النموذج عن منشور طبع بمدينة براغ صادر عن الوفد الخارجي للحزب الشيوعي الجزائري، والذي يقوم قائده بتوبيخ جبهة التحرير الوطني، وسوف نرى كيف أن التبرأ الذاتي للمجلة الجزائرو . تشكوسكية مطلق وغير مشروط، إذ قامت بنشر ما يلي :

«هذا يضاف إلى جهود بعض الوحدات من جيش التحرير الوطني، التي تترك المناشير على المسالك التي يمّر عليها الجنود الفرنسيون، والمعاملة الإنسانية للجيش الوطني للمساجين الفرنسيين خاصة جنود السّوقة منهم، ولا يعود هذا لأسباب أخلاقية وحسب، بل لأسباب سياسية على وجه الخصوص».

هذا يعني أن نشاط جبهة التحرير الوطني مختلف عن الحشو البيروقراطي، وكالعادة ليست هناك أية إقتراحات ملموسة إلى جانب الإنتقادات الأمريّة.

وتتردّد عبارات «يجب أن .. ثم يجب أن» لكن ما هو الشيء الواجب وكيف نحققه ؟

فبهدف تحسين العمل المناهض للروح العسكرية في صفوف الجيش الفرنسي، هل كان يجب أن ندعو المفوّضين السياسيين لجيش التحرير الوطني للإلتحاق بالمظليين والجند " الزواوة " والرماة البحريين، وهي فيالق تتكوّن أساساً من شباب فرنسي «عمال وفلاّحين» ، لكنها ترفض أن ينضم إليها أي جزائري ؟.

لم تكن هناك وسيلة خير من الشبيبة الشيوعية، ونقابات العمال والطلبة للتقرب من الجنود، بفرنسا نفسها، لمتابعتهم وتقديم النصح لهم.

لكن إستجوابا [UTVITA] يعرّفنا لسوء الحظ بأنه : «خلال السنوات الخمس الأولى للكفاح، كان الحزب الشيوعي الفرنسي، يمنع أعضاءه من آية مشاركة في شبكات مساندة، ومساعدات تطبيقية [عمليّة] للمناضلين الجزائريين عامة» كان علينا أن ندعوا أصدقاءنا من شبكة جينسون (Jeanson) من أجل تغيير تكتكة [إستراتيجية السياسة] بجعل الجنود الذين كانوا يشغلون المسجلات، يمضون على نداء ستوكهولم (Stokholm) أي على العرائض لتدمير القنابل الذرية، ومذكرات ضد السلطة الشخصية.

ولسنا بحاجة إلى ترجمان حتى نفهم بأنّ تبني «موقف أكثر لياقة وأكثر إيجابية تجاه القوى التقديمة الفرنسية» هو دعوة لنقف على عجز الحزب الشيوعي الفرنسي عن بعث الحركة، والقضاء على الخمول [الجمود] الشوفيني للطبقة العمالية، التي ظلت مدة طويلة متقوقعة على نفسها، وغريبة عن المعارك، وشهداء " البونيول " (Bougnoules). من المؤكد أن الإستدلال الجدلي يأمر بعدم الفصل بين الكفاحين لشعبينا ضد العدوّ المشترك، الإستعمار الذي يفرز الفاشية، فالثوري الجزائري أو الفرنسي يركز ضرباته

على نقطة ضعف المستعمر وهي الجزائر، أما الماركسية الكاذبة رهينة الأساطير، فهي تعود بنا ربع قرن إلى الوراء، وبعدم أخذها بعين الإعتبار الوضعية الجديدة، إذ تقوم بالتنويه ضد الفاشية التي تهدد فرنسا، وتضع الثورة الجزائرية في المرتبة الثانية، وهي الثورة التي يظلّ نصرها رهينا بنصر الديمقراطية بفرنسا.

إنّ هذا خطأ إستراتيجي واضح يجعل من النتيجة سببًا، ونحن بالطبع مدعوّون لإعتبار الأحق قبل ما هو رئيسي خلال هذه المطاردة لخيال واهم.

إن العرض مغرٍ جدًا، إذ يُقدّم لنا كمساومة ماكرة تليق بعبارات «ياحبيبي» و«ياصديقي» المعسولة في أفواه الباعة المتجولين بساحة شارتر (Charters).

«إن عمل التربية السياسية للجيش وللتجمعات الشعبية، سيسهل لو توصلنا إلى فهم أحسن لمشكل الوحدة، فالمهم هو توحيد كلّ القوى المستعدة للقتال، ومساندة نشاط الحكومة المؤقتة دون إستثناء، ومن أجل هذا تحديدا، لابد من وضع حد للسياسة الرّامية إلى عزل الشيوعيين الجزائريين» .

وإكتسابنا تعاطف الفرنسي القاعدي، يعني أنه علينا الإعتراف بالدور الموجه للبيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري، فجأة تصبح التربية السياسية أكثر سهولة بتوحيد كل القوى «المستعدة للقتال»، فلنسرع إلى القاموس، ولنبحث عن معنى كلمة «مستعد» وهي هنا بمعنى التهيأ والقبول كمن يكون مستعدًا لتأدية خدمة.

الأمر إذن كذلك ولم يخيبنا حدسنا، لكن من جهة أخرى، قامت الصيغة التي أثر بها الحزب الشيوعي الجزائري بتجنبنا الخطأ لأنه بسذاجتنا، كنا نعتقد بأنه بعد الفشل اللاذع «لمن حاربوا التحرير» أين المسيرين الشيوعيين قد إعتبروا من «مشكل الوحدة» بإنضمام صادق ونهائي لصفوف الثورة التي كانت تسيرها جبهة التحرير الوطني بلا منازع.

غير أن رئيس الحزب الشيوعي الجزائري يخبرنا، في السنة السابعة من عمر الثورة، بأنه لم يلتحق بعد بالصراع فهو «مستعد للقتال» لكنّ رغبته هذه مرتبطة بعمل مستقبلي !.

وشرطه الذي لن يتنازل عنه هو أن تضع جبهة التحرير حدّا للسياسة «التي تعزل الشيوعيين الجزائريين» .

لنقف هنا دقيقة، إذ نحن نعتقد، على العكس، بأننا أقرب إلى الحقيقة حين نتحدث عن السياسة التضليلية للحزب الشيوعي الجزائري، التي تلازمت فيها الإنتهازية بالطائفية، وكما يقول المثل من زرع حصد [نحن نحصد مازرعنا] وذلك الحزب هو المسؤول الوحيد عن عزلته.

إنه لمن الصعب أن يرضخ للأمر الواقع بطل لم يقدم أية تضحية، ففي الوقت الذي يهرول فيه عمال آخر ساعة نحو واجهة النصر، ويلتحقون بصفة غير مشروطة بجبهة التحرير، يلعب المرموط، ذو السبات الدائم دور المتصلب المتشدد، إذ لم يفهم بعد بأنه قد فاته موعد القطار الأخير العائد إلى الوطن، ولن يدرك شيئا عدا مراسيم دفن الإستعمار، فالأمر قد إنتهى، ولن يتمكن أبدا من إحراز نصيبه من الحسنة، التي تسمح للمتأخرين بالقيام بعمل حسن، هو إلقاء قبضة تراب رمزية على الجثة الإستعمارية وقد أنزلت القبر.

ومن يريد شرح وتبرير عزلة الإدارة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري عن طريق «مقاومة الشيوعية» ، لهو إغلاق الباب أمام النقد الذاتي، وبحثنا عن أخطائنا، هو بمثابة البحث عن حلول لمشكل زائف لا وجود له، أو القيام بحركات كالنحلة العمياء التي تتحرك في كل إتجاه دون جدوى وهي تسلك طريق الإنتحار.

والحقيقة المرّة قد وصلتنا خطيّا وجاء ما يلي :

«ما إن تكونت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، حتى حيّاها حزبنا وهنأها وأعلن إستعداده لمساندتها، وعبر عن رغبته في تحمل المسؤولية، كما يتحمل أعضاء حزبنا من جهتهم مسؤوليتهم في مهام أنصاره وغيرها، غير أن هذه الرغبة لم تتجسد في الواقع، ولنذكر بأن الحكومة لا تحتوي على شيوعي واحد، وكذلك منظماتها لا تعدّ أيّا من هؤلاء، زيادة على ذلك يوجد بالحكومة أفراد لا يخفون قناعتهم المناهضة للشيوعية».

قرأنا جيدًا ما سبق ولا غشاوة تغطي أعيننا، ويحضرنا مثل شعبي عندنا يقول : «تموت العشعاشة وعينها في طاجين الحوت» أي أن عين المحتضر لا تنسى طبق السّمك، فالبيدق المتشرّد يربط مشاركته الشخصية في الثورة بإشباع رغبته في الإنضمام إلى الحكومة كوزير.

كيف لا تردُّ عليه بسخرية " طيابات الحمام " اللواتي يعلمن في الحمامات المغربية كدلاّكات ؟ فألسنتهم تغلي بتقاسيم لاذعة تمامًا مثل " كاساتهم " وهي القفازات المصنوعة من الجلد، تخرج من الجلد المنظف عن طريق الحبل المتعرق نسالات درن غير بادية على صاحبها.

وعلى طريقة بذاءة " قوال " [برّاح] مونتمارت هنالك مثل يسخر من المترشح للوزارة تقول «معوّج الحناك ما يخصك غير السواك» أي : لا ينقص معوج الفم غير السواك، والسواك هو لحاء الجوز، الذي كان يستعمل للتجميل قديمًا، وله ميزة

غامضة تظهر لدى حكه على الفم، فهو يعطي الأسنان بياض المرجان، وسمرة داكنة كقشرة الجوز للشفاه واللثة، وإن الوطنيين الذين طالما أعطوا وضحّوا بأنفسهم دون إنتظار أي مقابل، وهم الثوريون الوفيّون لمثل شبابهم، والذين وجدوا سعادتهم في الكفاح، وفي نجاحه إذ هم يرون بأمّ أعينهم المنهكة هدفهم وقد أصبح واقعًا، هم في الحقيقة لعاجزون عن تفهم هذا التأنق الساذج، ونرفزة الباشاغا هذه.

وفعلاً لا يستحق قدماء الحزب الشيوعي الجزائري، الذين لم يساوموا على إنضمامهم ومعاناتهم هذه الإهانة غير المباشرة. ونجدهم في الجبال والسجون يبصقون تقززا إن سمعوا إسم وريث دار النخلة، وهو المكان الذي كان يُعزل فيه المجانين قديمًا في الجزائر، فيجب أن يكون هذا أبلهًا حتى لا يستحي أن يعبِّر عن رغبته في حمل اللّقب المجلّ لمؤسس الجمهورية الجزائرية، عن طريق الإدعاء بأحقيته في ملكية حديقة، خصّبها ذكاء وعرق ودم الآخرين.

هكذا يصبح المسؤول عن عدم حيازة الحزب الشيوعي الجزائري على وزارة أوإثنين في الحكومة المؤقتة، هم أولئك الأفراد الذين ينتمون إليها ولا يخفون «مناهضتهم للشيوعية» فمعزة ولو طارت كنسر.

والإستناد إلى عوامل أخلاقية، ليس البرهنة على تزمت ديني، مضاد للدين فحسب، بل هو كذلك إذلال للمادة التاريخية إلى مستوى تهريجات جحا.

ولا مجال إذن لمقاومة الشيوعية عندما يقوم خط سياسي على أعمال الجماهير الشعبية، فالعامل الأكثر حسما في السياسة هو تصارع القوى الرّاهنة.

فهل كان شيرشيل (Churchill) متشبعا بفلسفة شيوعية حين إختار أن يساعد تيتو، وفضله على ملك يوغسلافيا ؟

ولا داعي للبحث عن أمثلة غير معروفة، لنظل بفرنسا، حيث يسمع لنا مثلها بإدراك مماثلات تكاد تنطق، لم يكن دخول الشيوعيين الفرنسيين إلى الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية بفعل معجزة لعلاء الدين، سواء حضر بمصباحه السحّري أو من دونه. بل كان هذا نتيجة عمل إيجابي للحشود، عمل سبق وأن دوّن في سجل الحقيقة التاريخية. وكان الحزب الشيوعي الفرنسي ممثلاً بعدد واسع ضمن المجلس الوطني للمقاومة، وهل كان هذا كافيا لتختفي مقاومة الشيوعية لدى بيدولي (Bidaulet) وغي موليه (Guy Mollet) وكذا سوستيل (Soustelle) وغيرهم من الناطقين باسم كل من البورجوازية والبنوك، من الإتحاد الوطني المقاوم لهتلر ؟

ثم ألم يكن بفضل أن تنزل الأسلحة والذخائر، التي كانت تنقص المقاومة وF.I.P المكافح ضد النازية، والحركة الفيشية (vichystes) بالمظلات في مناطق تمركز الجيش السّري المدّخر لأن يحول دون تحوّل المقاومة الوطنية إلى ثوة إشتراكية ؟

لنفتح قوسًا هنا، ونلاحظ بأن المترشح للحكومة المؤقتة الجزائرية، لايطمح لمقعد في المجلس الوطني للثورة الجزائرية، فهذا مركز لا تحيط به هالات وأضواء الإشهار .. ويمكن أن يكلّف من يشغله بمهمة في الداخل، لا يتمُ خلالها عبور الحاجز الحدوديّ دون الكثير من الألغام التي لا تخطر على بال سائح ببلد إشتراكي، وإن كانت العبارة اللاتينية " إغنم من حياتك " تجد نظيرتها في العربية " لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد " فلنعمل بها، ولا داعي للعودة إلى الماضي، لنكتشف بأن الحزب الشيوعي الفرنسي لم يكن متسوّلا لجوجًا بل حليفا منشودا .والجنرال جيرود (Giraud) الذي كان يشغل منصب الرئيس الشريك للحكومة الثنائية الرئيس بالجزائر، لم يكن فيلسوفا شيوعيا حين بادر بالإتصال بالقائد العام لـ F.T.P. وهل كانت صدفة بحتة أن يكون المكلف بالمهام، الذي أنزل بالمنطقة المحتلة، هو كاميللاريبار (Camille Larribère) نقيب فرقة المتطوعين، وضابط جوقة الشرف بثلاثة عشر شهادة، وهذا لم يكن سرًّا بالجزائر، لكن ما لم يكن يعرف عنه هو أن النائب المستقبلي لمدينة وهران، كان ملازما أولا سابقا للمناوشين الجزائريين، وقد أنزلت رتبته في عام 1926 حين تواجده بالجبهة المغربية لأنه دعا جنوده المسلمين للتصادق مع إخوانهم المستعمَرين الريفيين الثائرين.

وهل كان الجنرال دو غول (De Gaulle)، الرئيس الشريك للحكومة الثنائية الرئيس بالجزائر، متشبعا بالفلسفة الشيوعية حين تملق إلى الرئيس الأعلى (F.I.P شارل تيون ؟ (Charles Tillon) الذي عرف عنه بأنه كان عضوًا بالمكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي، ومتمردا سابقا في البحر الأسود، كما أنه كان مثل أندريه مارتي (André Marty) ضابطا ساميا للفرق الدولية خلال حرب إسبانيا.

زد على هذا أن الجنرال - دو غول - نفسه رفع عدد الوزراء الشيوعيين، وتمتع بتحويل موريس طوريز (Maurice Thores) الهارب من واجبه العسكري إلى رجل دولة.

فقائد فرنسا المحاربة لم يحسب حسابا للمعارضة المسعورة التي كان يتصف بها أعداء الشيوعية.

ولنذكر بأن القائد العام لـ F.I.P سابقا ووزير الطيران، قد أبعد عن المكتب السياسي، وحرم من أية مسؤولية في صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، لأنه ذكر مرة بأن السكرتير العام كان قد لجأ إلى موسكو خلال المقاومة.

والحجة الأخلاقية لشارل تيون غير عادلة إذ يمكن أن يخدم المرء وطنه بشرف أينما وجد.

وإن كنا قد إستعرضنا هذا الحدث، فهذا بقصد البرهنة على أن وجهة النظر هذه، والتي تقارب الشعارات المناهضة للشيوعية، لم تكن كافية لتوازي إصغائية الحزب الشيوعي الفرنسي في المقاومة ضد النازية.

ولنستعرض الآن بعض النقاط عن الحزب الشيوعي الفرنسي:

1 . فهو كحزب كان يشكل القوة السياسية الأكثر تجانسا، والأحسن تنظيما، وكذلك الأكثر نضالاً، إذ كان يدعو للفعل بكل أشكاله من إضرابات مع النقابة العامة للعمال، وأعمال سرّية، وتظاهرات طلاّبية، وحتى عمليات الإرهاب المدني والتخريب كانت بتشجيع منه، إلى جانب العمل السياسي في اللجان التحريرية وغير ذلك ...

2 . الحزب الشيوعي الفرنسي، كان يتمتع بصفته حزبا بقوة مسلّحة تقدّر بمائة ألف مقاتل. وكان الجنرالين جيرود ودوغول أوّل من إستحسن القيمة السياسية والعسكرية لـ F.I.P.

3 . كما كان يتمتع كحزب بحظوة واسعة في كلّ الطبقات الإجتماعية، ووصل نفوذه إلى طبقة الفلاحين المحافظين، فلم يعد " الحمر " يبدون بصورة الأشرار المطالبين بتقسيم الثروات، وتحولوا إلى وطنيين يقتلون الألمان والخونة، وكثر الشهداء منهم والواقعين تحت رصاص العدوّ.

4 . كما كان حزبا يشكل حليفا مفيدا ضمن السياسة الخارجية، فقد ساعد الجنرال دو غول على الحصول على إعتراف الإتحاد السوفياتي باللجنة الفرنسية للتحرير الوطني، وبفضل صفته التمثيلية أجهض المشروع الأمريكي الرّامي إلى إخضاع فرنسا المستقلة إلى A.M.G.O.T الإدارة التحالفية للبلدان التي كانت عدوّة في السابق.

بالجزائر أيضا بدت مناهضة الشيوعية متلاشية، فما إن حدث الإنزال حتى غطت شعارات الفيالق المؤيدة الشوارع.

وصار كلّ واحد من السبعة وعشرين نائبًا شيوعيًا، الذين أطلق سراحهم من سجن "la Maison Caree" في حين أن فانسون أوريل (Vincent Auril)، الرئيس القادم

للجمهورية، كان يتجوّل بشارع باب عزون وحيدا، وكأنه شخص مشهور لم تعرفه العامّة بعد. ومن الجهة الأخرى على شارع جول فيري (Jules Ferry) لم يعد مقرّ اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي يذكرنا بمقر فدرالية تسكنها أرواح الصعاليك.

كانت البناية المتواضعة والمقفلة تشبه داراً مسروقا فخما، تحضر إليه الأرسطقراطية الفرنسية، حتى تظهر أمام الناس مختلطة بالضباط حاملي الأوسمة ذات الأربعة أو الخمس ترقيات، وتنتظر بسكينة موعد المقابلة الذي لم يحن بعد على كراسي المقهى المغربي غير المريحة، وبغض النظر عن الذين كانوا يريدون حمل السلاح، كان هنالك وصوليّون بادروا في التحضير لترقياتهم. فهذا إطار سام في S.F.I.O مستشعراً بما سيحدث يقدّم الملفات السّرية لمبنى المؤتمر، وهذا وال ومستشار عام ومندوب مالية لا يتردد لتقديم البرهان على «قناعته الصادقة» بإرفاق صورة أصلية لرسالة إستقالته من : Franc Maçonnerie مع بطاقة إنضمامه، وها هو فلان موظف مساجد يتجاسر ليعتز بقرابته لمناضل من مدينة سكيكدة، ليطلب التوصية الرسمية للوزراء الشيوعيين، لدى الحاكم العام لصالح ترقيته لمنصب المفتي المالكي الكبير.

لكن مناهضة الشيوعية التي إندثرت بفعل هذا النجاح، ها هي تزدهر بفضل جزر الوجه الآخر [القضاء]، ففي سنة 1947 وتحت ضغوط الرأسمال الكبير داخل وخارج فرنسا. قام رئيس الحكومة الفرنسية آنذاك، وهو إشتراكي ديمقراطي، بإنهاء الحقيبة الوزارية للشيوعيين، أولئك المصلحون المساكين للدولة البورجوازية.

وهاهي مناهضة الشيوعية تعتبر من جديد فكرة مطوّرة تعيق التطوّر الإجتماعي، مع أنها لا تشكل في ذاتها حاجزًا منيعًا، وتطوّرها يعكس تذبذب الأوضاع التاريخية المختلفة تمامًا.

لم تصمد عزلة الحزب الشيوعي الفرنسي، ولا مناهضة الشيوعية طويلاً أمام سياسة تتمتع بمساندة مكثفة للشعب.

فالجبهة المشتركة عام 1934، والوحدة النقابية العمالية في 1935، والجبهة الشعبية في 1936، وفرنسا المقاتلة في 1941، والحكم الثلاثي في 1945، هي براهين واضحة على ذلك.

فالثوري لا يجعل من نفسه متسوّلاً لحقيبة وزارية وكلام الفراغ، والطمع بامرأة حامل. لا يكفي ليقف مكان البصيرة والكفاح والقدرة على تقدير الحدث، وبالأحرى، عندما يرافق جنون العظمة الطائفية التي تنتقد أقل نقائص الآخرين، وتتناسى خطأها الأكبر، وبدجل القائد الذي يقوم بعكس ما يطالب به.

وبهدف مساعدتنا في التغلب على مناهضتنا للشيوعية، يمسك قائدنا أو قبطاننا بعريش الثورة. فهو يهاجم فرانسوا ميتيران (François Mitterand) إسميًا ! وبعض رجال اليسار الفرنسي فيقول عنهم: «أولئك الذي يتبعون التيار الشعبي متآخرين، وينصبون أنفسهم مدافعين عن الشعب الجزائري» ياﻟﻬا من تكتكة [إستراتيجية] غريبة وحيدة الجبهة وياله من تصلب قحّ. ويحتفظ بالعفو «العمّالي» للأخ الإشتراكي لا كوست (Lacoste) حتى ينقذ العلمنة بقلب الأكثرية في مجلس عام.

لكننا نطرد إلى حزب سوستال، وغيره من المستفيدين من الجزائر " الفرنسية"، كلاً من البورجوازي ميتيران (Mitterand) والنبلاء الذين نام أغلبهم عن الإهتمام بالرّأي العام الفرنسي.

فهل يجب أن نرمي بين أحضان «مناضلي الوهم والحرب التي لا تعرف نهاية» الجزائريين ذوي الأصل الأوروبي، الذين إنتهو إلى إبصار آفاق جديدة مع قدوم الجزائر المستقلة ونهضة الدّولة الجزائرية ؟

هل يجب «خنق العلم» ، وتنكيس لواء الثورة، في الوقت الذي يقوم فيه «المنتخبون» الممارسون آخر أبناء بني نعم (beni-oui-oui) بالدخول في محادثات سرّية مع جبهة التحرير، أو الدّفاع علنًا عن مواقف مؤيّدة للتمثيلية الحصرية للحكومة المؤقتة الجزائرية ؟

ثم هل يجب في الأخير نبذ وإستبعاد الحَرْكة أو الخونة، " الذين لا يقاتلون تقريبا"، من المجتمع الوطني، أولئك الذين يستقيلون، والذين يمولون أو يلتحقون بجيش التحرير الوطني بأمتعتهم وأسلحتهم والذين لا يترددون، كما حصل بتيبازة عن التباهي بفخر أمام ضباطهم الفرنسيين بقبعات تحمل رسم النجمة والهلال.

والمناوشات التي تلت التفاخر بشعارات جيش التحرير الوطني، قد تسرّبت عبر الصحافة الدّولية وانتزعت من ماكس لوجون (Max Lejeune)، الإشتراكي الإستعماري صيحة الإستغاثة التالية : «حذار ! فهذه علامات ثورة هندية جديدة».

هذا تذمر طبيعي لدى وزير جيوش سابق، ورفيق لاكوست، ومدلل غي مولي (Guy Mollet)، فذكرى المرتزقة الهنود الذين ثاروا في سنة 1857 ضد الإنجليز بعد أن دافعوا عن مصالح الفرنسيين غزاة الهند نذير شؤم لتمرّد " الحَرْكة " إنه التفكك المحتوم للقوى الإستعمارية، الشيء الذي يزيد من قوى جبهة التحرير الوطني.

فلا يجب إذن أن نبتهج للإلتحاقات . ولو كانت متآخرة ! أليس هذا تناقض مع الرّشاد إن لم نقل مع المبادئ في ميدان السياسة، كما في كلّ الأشياء الأخرى،

لاتكفي عظة بحسن التصرّف لتغيير طريقة التفكير، وتعديل موقف مناضل بينما كلاهما لا ينصت لتأنيب الضمير.

إن الحيلة واضحة وضح النهار، فموجه الحزب الشيوعي الجزائري يريد أن يخلط شهر شعبان برمضان، لكي يمارس النقد الذاتي على الآخرين، ويخفي ضعفه الشخصي.

فهو يفرغ ضغينته على رئيس U.D.S.R وهي منظمة تقدّمية بفرنسا، فهو يحاول القيام بإلهاء لا يخدع إلاّ " البوجادي " غير الحاذق أو غير المتنبّة، فهو يودّ إقناعنا بواسطة طباق مضمن بأنه لا يشبه ميتران (Mitterand) الذي اتبع التيار الشعبي، متأخرًا في الدفاع عن الشعب الجزائري، وهذا يقودنا إلى التفكير بأن الزعيم الشيوعي وقد جمع بين روح المبادرة والنور الفكري، قدّم مساندته بشكل طبيعي إلى الثورة في أسابيعها الحرجة الأولى!

واحسرتاه.. تم واحسرتاه مرّة أخرى، فالعكس هو الذي كان، وما يزيد الأمر عذوبة، بغض النظر عن الكذبة الحقيرة، هو أن أستاذنا في مادة القيم، قد تبنى إزاء الثورة المسلحة موقفا مطابقا لموقف الوزير منداس فرنسا (Mendes-France). فبدأ بإدانة كلامية ثم بإنضمام متأخر محمّل بالإزدراء.

يعتبر هذا جد مهين أخلاقيا ويذكرنا، بالتقوى المتظاهر بها من طرف شيخ الزاوية الذي يوبخ شارب الخمر، عدوّ الله ورسوله، ويدّعي بأن البركة المرابطية تبارك كأسه وتحوّل الأسيون في حلقه إلى عسل !

لكن سياسيا، الأمر أخطر بكثير، فالخطأ ذاته إرتكب في الوقت نفسه، لكن طبيعته ودرجته، حسب جنسية ومركز مرتكبه، تجعله مختلفا، فموقف متيران (Mitterand) يبدو طبيعيا ظاهرًا فهو فرنسي وبورجوازي ووزير داخلية، تكلّفه حكومته بإبقاء الجزائر سجينة للإمبريالية تحديدا.

غير أنه لو نظرنا إلى موقف الراعي الذي فقد عصاه من الداخل، لوجدناه مشينا ومشؤوما من زاوية نظر الجزائري، عامل ومسؤول عن حزب تكلّفه عقيدته بتحرير الجزائر من البورجوازية الإستعمارية تحديدا.

بالطبع، لن نعود ثانية إلى الحديث عن الخط المصطنع الذي يفصل اليسار عن أقصى اليسار، فالمناهضون لجبهة التحرير الوطني، إلتقينا بهم في الوسط العمّالي كما وجدناهم بين أرباب الأعمال. ولقد بينّا أن الثورة الجزائرية قد شطرت المجتمع عموديّا. مجموعة بيض صغار وعدوانيين من جهة، ورأسماليين كبار ومؤيدين من جهة أخرى...

غير أن ما صدمنا هو أن يكون فاشل يسير في المقدّمة، مع أنه في الحقيقة مجرّد " بوهالي " أي ساذج ومتبلّد، مقاتل دون سلاح، أعرج ومتأخر كما يدلّ إسمه.
وليس هذا مجرّد تلاعب بالألفاظ مأخوذ من التنجيم الإشتقاقي بل هي حقيقة تاريخية.

أمّا بداخل اللجنة المركزية، فقد إبتعد الوسيط الرّوحي للحزب الشيوعي الجزائري عن الفرضية [القضية] التي قامت سريعا وطورت من طرف العمراني، نقيب المحامين بباتنة حين. إنقاد للنمطيين بوهران وسيدي بلعباس الذين أدانوا المغامرة العربية.

وهكذا أجبر الغجري. الذي يتنكر في صورة العم هو (HO) مع إحترامنا العميق والعرفان الذي يستحقه الثائر الفيتنامي. على التصرف كالأعمى بإدارة ظهره إلى حقيقة الإستباق.

وأعطى مندوب المجلة الموسكوفيتية، أمرًا بعدم حمل السّلاح للوفد الشيوعي القادم من الأوراس، الذي جاء يطلب التصريح للإنضمام إلى المجاهدين للمرّة الرّابعة.

وقبل أن يغادر الوفد الأوراسي الجزائري العاصمة، إتصل بنا واحد من أعضائه للمرة الآخيرة، موفد القاعدة السلمية للحزب الشيوعي الجزائري، وكان على حقّ في معارضته للإدارة البيروقراطية التي شوّشها الغموض الإيديولوجي، والتخوّف من المسؤولية والخيانة السياسية. بضمير مرتاح، قام المناضلون الشاويّون بتمزيق بطاقات الحياد الكاذب، وهكذا واصلوا جهادهم المسالم في البداية من أجل الحرية والأرض والديمقراطية بالبارود كحلّ نهائيّ.

تبًا فقد أخذ التعجب العابس، مكان التحليل المتردّد الحائر، وما العمل إذ أن أمر اللجنة المركزية لم يطبق بالإمتثال المطلق ؟ وكيف نعيد الطاعة وروح الحزب لدى الفلاحين الأفظاظ الواقعين تحت التأثير المبطل للتمرّد الوطني ؟

كان هذا في الواقع عبارة عن تصفية [تطهير] طبيعية، فالحزب الشيوعي الجزائري كان يقوى بتحسن النوعية «فقبضة نحل خير من كيس ذباب».

لقد جرى التجنيد المكثف للفلاحين في فترة تعريب متهافت، وكانت النتيجة متربصين ماركسيين يجهلون تمامًا الفرنسية، كم كان عمل السكرتير العام مضن فقد تعلّم الكاستيّة (Castillan) محتفظا بالصبر الفرنسكو عربي !

لقد أصبحت الأرثوذكسية العقائدية ضعيفة، خاصة عندما يسمح مسيرون آخرون، وهم جنود ضالّون بأن يظلّ سكرتير فرع تاجمونت بالأوراس بمنصبه بعد عودته من مكة حاجّا إلى بيت الله.

ظلت شرعية الحزب الشيوعي الجزائري مهددة إذا، فحارثوا الأرض الذين فقدوا أراضيهم أصبحوا مشوشين ومتعجلين وعنيفين من وقت لآخر، وبدل الإكتفاء بالشكاوي الشفوية أو الخطيّة الموجّهة بصفة متسلسلة إلى السلطات، أصبحوا يعهدون إلى طريقة يختلط فيها الإعتراض بالعقاب الفوري والنهائي، فمحتال السلطة المسيء إستعمالها بمنصب ناطور أو حارس غابات أو " قايد " أو موظف إداري، صار يُقتل كالكلب المسعور بكل بساطة.

وكان يوجد ضمن «عصابات الشرف» التي كثر عددها بالأوراس، كما كثر عدد المهربين. فبمنطقة البيريني يوجد عضو سابق للحزب الشيوعي الجزائري يعيش على الصناعة الممنوعة للفحم الخشبي، محترمًا الممارسة القديمة لإستغلال الغابات، فيأخذ الأشجار الحاملة لعلامة تجيز قطعها متجنبًا المشاتل أو الأشجار المنتقاة، وكما يأمر النبل بذلك، فقد تبعته زوجته إلى أماكن المقاومة، وقد يصادفان ما شيين بمضاءات أومنعرّجات الغابة بتعاظم، يحمل كل منهما بندقية صيد على كتفيه.

أفٍّ ! على هؤلاء المنخرطين فخسارة المشتركين غير المنضبطين ليست قاتلة، زد على ذلك فإن أحدًا لم يهتم بإبقائهم ممسكًا جناح برنوسهم أو قبعة قشابيتهم [جلبابهم]. فلم يفكر أحد بالذهاب إلى عين المكان بآريس، والمدينة، ومشونش، وفوام التّوب، وتاجموت، للإلتقاء بالخلايا والفروع الصديقة للحزب الشيوعي الجزائري.

كلّ شيء زال مع الرّيح، الأحرى أن تجد أثر الثعبان على الحجر، أو أثر العقاب في السماء .. أوالكرم الذي يلاقي به الضيف، الزائر الصديق أو الغريب الذي يقدّم له الجوز المقشر والعسل، الذي كان يشكل التَقْدمة الجهوية اللذيذة كالخليط المعطّر للغاية والصداقة.

وفعلاً، ويل للأخ الكاذب الذي ينكر الواجب الذي تفرضه المشاركة في " الخبز والملح ". والإحتفاء الأخير به كان سيشبه صخب الطرد بعنف من قرونوبل (Grenoble) ... لكن للإحتفال طابع فلكلوري بجبالنا، فهو عبارة عن تدنيس روحي تقوم خلاله النساء بتجريد الخائن من ملابسه بطريقة رمزية، ثم يجتمعن حوله بالسّاحة الشعبية ليتركوه محلّ سخط الأطفال تحت نار الهجاء المرتجل حينها، بينما تقوم الفتيات بوضع الطّين النديّ الذي يترك أثراً واضحًا على ظهر يده اليمنى المحناة، وهذه هي خامسة العار !

ولقد كان الإنسحاب المكثف للأوراسيين ورفضهم القاطع للإنصياع لإيديولوجية الإستسلام، بمثابة حافز لحركة تمرّد أوسع. وجبهة التحرير إستشعرتها وحيتها رسميا كإنتفاضة وطنية وثوريّة.

وإعتبرها مؤتمر الصومام كنجاح سياسي وعسكري جدير بالصدور في نص الوثيقة التاريخية.

فالشجاعة السياسية للأوراسيين، هي التي تسببت في تفاقم أزمة الحزب الشيوعي الجزائري، التي بدأت تنتشر كبقعة زيت صامتة، إنه الإنشقاق الذي يتسع يوما بعد يوم ويهدد بالإنهيار.

أما بالمدن فالشباب كثرت حركتهم، فقد قرر بعضهم بصفة شخصية مساعدة مناضلي جبهة التحرير، بالرغم من تهديده بالفصل، وها هو عامل أوروبي بسكة حديد حسين داي يمزق بطاقته الشيوعية وينضم إلى الفدائيين، وأمام المحكمة العسكرية بكل فخر يوضح بأنه مناضل في جبهة التحرير، وليس منخرطا في الحزب الشيوعي الجزائري.

إنها الفضيحة والتشتت بحق.

وإنصياعا لنصائح باريس قامت مدينة الجزائر بتنظيم إستعراض هو (الونشريس) إختلاق المقاومة الحمراء بالونشريس، وكان لهذه العملية هدفًا مزدوجًا الأوّل هو السّماح للحزب الشيوعي الجزائري باكتساب جيش مختلف عن جيش التحرير الوطني وبأن تكون له سيرة سياسية مستقلة كحزب.

أما الثاني فهو الدخول في مفاوضات مع جبهة التحرير الوطني، ليس بهدف الإنقياد لها ولكن للتصرف معها كند لها.

أليست هذه محاولة لجرّ الطّاغي لجبال اللّوم ؟

توقف " مقاتلو الحرية " عن القتال نظرا لعدم وجود مقاتلين. فمقاومة الأوراسيّ قضي عليها بالموت البطل للمناضلين الجنود، ولم يسلم منهم سوى إثنين ألقي عليهما القبض.

كان من بين الآخرين، كما نعلم المرشح لرتبة ضابط مايوت (Maillot) وطالب بوعلي، وموريس لبان (Mourice laban)، مناضل مستعرب، ومقاتل سابق خلال حرب إسبانيا، إتصل به أخ مصطفى بن بولعيد في بداية الثورة المسلحة بالونشريس، فيما كان العمراني قد إنضم إلى جيش التحرير الوطني، أمّا بالأوراس فقد إمتثل موريس لبان لأمر أمانة الحزب الشيوعي الجزائري بالإمتناع عن الإلتحاق بجيش التحرير الوطني.

باعتباره مناضل منضبط فقد حمل السلاح إبان المقاومة المسلحة بالونشريس، مع أنه كان مقتنعا بأن المقاومة في صفوف جيش التحرير الوطني أعقل وأنجع، خاصة بمنطقة الأوراس التي كان يعرفها أحسن وأين كان الكل يعرفه، ولا شيوعيين في الحكومة المؤقتة الجزائرية، فلم يبق أمام البعض سوى التعرّي كما يفعل الثعلب الخائب، عندما لم يصل لعنقود العنب قال عنه حامضًا، والثورة مصابة بعاهة وراثية إذ أن جبهة التحرير الوطني والحكومة المؤقتة هما : «مسيران من طرف ممثّلين عن البورجوازية الجزائرية، أو من طرف أناس ولو أنهم من أصل متواضع، فهم يظلون مرتبطين بإيديولوجية البورجوازية الوطنية» .

إن عاقبة هذا الرّسم الكاريكاتوري لسخيفة وخطيرة، بقدر ما هي خاطئة وكاذبة حيث يقوم البعض بما يلي :

1 . التأكيد كما لو كان الأمر حدثا لا نقاش فيه، بأن الثورة قد صارت تحت سيطرة البورجوازية الوطنية.

2 . الإفتراض، كمادة من قانون إلهي، بأن الحزب الشيوعي الجزائري هو الممثل والمحتكر للطبقة العمالية الوطنية.

3 . ويحكم على دمج شيوعي في الثورة بالشفاء المعجز، الذي سيكون كافيا لتعديل صفة الطبقة الإجتماعية لثورتنا التي لم تهزم، والتي تسير الآن في الطور الأخير من المرحلة الأولى القريبة من هدف النّصر.

نحن نرى في هذا تجريدًا ليسار ثوري يودّ أن يسبق الأحداث، ويذكرنا " بالحملة الثورية " للديمقراطية الإشتراكية، التي تخدع العمال بتبنيها موقفاً طلائعيًا كلاميًا فحسب.

لكننا لو عدنا إلى المبادئ المعروفة لصار التفسير بسيطا، فالمعيار الأساسي الذي يحدّد صفة، طبيعة ثورة ما ليس الأصل والمنبت الإجتماعي لمسيريها، بل الطبقة الإجتماعية التي توجه ضدها، وإنطلاقا من هذا الموقف الجوهري، يمكن للثوري أن يعرف بأن حرب تحرير وطنية هي عادلة، وعليه أن يحييها ويساندها، وإن كانت مسيرة من طرف إقطاعيين رجعيين إجتماعيا، لكنهم تقدّميون وطنيّا في مكافحتهم الإضطهاد الأجنبي، ولن نغادر المغرب، لكي نجد التجسيد الواقعي والمتباين في كلّ بلد تحرّر، بقلبه القواعد الإستعمارية، فبالمغرب، ساعد العمال على تدمير السلطة الإستعمارية للمزارعين والصناعيين الفرنسيين، على الرغم من الطابع الملكي التيوقراطي للسّلالة المضادة للإستعمار.

وفي تونس أيضا ساعد العمال في حرب " الفلاقة " على الرغم من الإنتقال الحتمي للسلطة، من يد البورجوازية الفرنسية، إلى يد البورجوازية التونسية.

أما عن الجزائر، فقد كان خروتشوف واضحًا :

«الحرب الجزائرية عادلة، حرب مقدسة على كل الشيوعيين مساندتها بصفة مطلقة ودون أيّ تحفظ» .

هاهو ذا الموقف العادل على المستويين العقائدي والسياسي، غير أنه متناقض مع الأطروحة غير الأرثذوكسية، الواقعة تحت رضا المجلة الرسمية للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، وبتنويهه بالطابع البورجوازي المزعوم للحكومة الجزائرية المؤقتة، فإن المقال المنشور بمجلة " الشيوعي " يمحو المعيار الجوهري للثورة الجزائرية وهي طبيعتها الوطنية.

فهو يحاول بصفة مصطنعة وسابقة لأوانها، تحويل ثورة من أجل الحرية والأرض والديمقراطية، إلى ثورة مناهضة للرأسمالية، ففي سنة 1960 يعتبر بأن الهدف الأوّل قد تحقق، في حين أن الإستعمار الفرنسي المحتضر لا يزال واقفا ...هذا في الحقيقة يعني تقديم المساعدة للعدوّ الأجنبي، ومهاجمة البورجوازية الجزائرية قبل الأوان، يعني القسم بأنها لم تعد حليفنا في الكفاح الوطني ضد البورجوازية الفرنسية، وهي العدوّ الرئيسي للجزائريين، العمال والفلاحين الفقراء.

هذا يعني كذلك نسيان الهدف الضروري والفوري، ولسنا بحاجة إلى موجز عن السياسة العالية [السّامية]، لإكتشاف الخطأ في التكتكة [الخطأ الإستراتيجي]، تكفي حكمة مثل [زواوي] قبائلي، مثل يسخط على البليد الذي لا يفكّر بخطر الغرق الذي يهدّده، «قاعد بقلب إعصار يطلب البطيخ» .

إن هذا نتيجة سياسة عزلة إرادية، وهنا أيضا يقع الحزب الشيوعي الجزائري ضحية أنانيته، كالمسافر المتعالي الذي لا يسامح القافلة التي إهتزت دون موافقة منه. فلقد ضاع بالصحراء أين لا شيء يساعد المنعزل، فهو يدور بحلقه مفرغة رغم البوصلة التي لم يعد يحسن قراءتها، هاهو فريسة للسراب الذي يجنن، وللعطش الذي يقتل.

أما جبهة التحرير الوطني، فهي القافلة التي تقطع الصحراء منتصرة على كلّ الصعوبات. وعندما تبتعد عن الطريق الذي رسمه لها الروّاد، فهي تعرف كيف تكتشف في صدرها علم الفلك الذي عرفته الشعوب الشرقية منذ الأزل، وتعرف كيف تلاحم الشعوذة بالعلم عن طريق اللجوء إلى حدس الهيدروغرافيا المحليّة،

فالماء الثمين ينقب عنه بفضل طريقة مرطابية غريبة تحدد درجة رطوبة الأرض بشم قبضة رمل جاف ...

وإن كان صواب السياسة أو خطأها يقاس بالنجاح والفشل، فإن الحقيقة التاريخية قد أصدرت حكمها. وهل كنّا على حق حين دعونا مندوب مجلة الشيوعي لأن ينتظر وفاة الذين يعرفونه، قبل أن يدّعي أنه سيّد عظيم، وشريف الجهاد الوطني ؟

«لكننا نضيع رغوتنا إن حاولنا غسل رأس حمار» لهذا نجد صدمتنا أكبر، فنحن نتسائل كيف كانت المجلة الرّسمية للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ساذجة، إلى درجة نشر قرار مطوّل رفضت " الإنسانية " نشره.

والسيد م. خروشتشف يجهل بأنّ مهره الجزائري ليس نابغة بل فرس نحيل، فقد أفلس كسكرتير سياسي في 1944، وفي 1946 إضطر إلى مغادرة منصبه السيّاسي، ليعود إلى مركزه السّابق ضمن المساعدات [الإعانات] الشعبية ... فلديه طبعا الحق في خداع السوفياتيين، حين إدّعى تلقينه الدّروس لجبهة التحرير الوطني وهي مرشد النصر للثورة.

نحن أيضا إتخذنا الحق لنقترح على المنظرين السوفيات، رفضنا البسيط لنقدهم غير الجدير بالماركسية.

فمسؤوليتهم جليّة ... بكونهم عرّابين لـ : " باباو "(babaou) وكما يقال بلهجة "باب الواد" (le pataouette)، ولم يتغير شيء بين البارحة واليوم.

بموسكو بالذات لم يعد يعرف " كوعو من بوعو " أي لم يعد يميّز بين طرف عظم زنده اللصيق بمفصل يده، ووظيفه اللصيق بأصبع رجله.

الخاتمة

«الجهاد الأفضل»

«لا يمكن أن تطمح أيّة حركة ثورية إلى النجاح والنّصر، ما لم تزرع جذورها بالحقيقة التاريخية، غير أنه لا بدّ من محنة الكفاح الأكبر، وعميق عقيدة السياسية الحقيقية حتى تكبر الجذور التي زرعت».

هذا يفسر نجاح الحزب الشيوعي الصيني، وفشل الأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، إذ عجزوا عن إعطاء نقد نافذ بما فيه الكفاية للمجتمع الإسلامي.

وتقدير جيل مارتيني (Gilles Martinet) صائب، فمنظرو الماركسية المغاربيين، لم يفهموا بأن الفلسفة التي يدعونها ليست نقدا من جانب واحد وسلبي للعقيدة الدينية. ولم يتفطنوا إلى أن الماركسية تفرق بين الإيمان الذي تولده الحياة نفسها، وبين الكنيسة التي قد تلعب دورًا إجتماعيا رجعيا .. أو تقدّميا، كذلك لم يعتبروا من الدرس الذي أعطاه لينين حين وافق على انخراط راهب في صفوف حزب عمّالي ثوريّ، وإلى برنامجه المناهض للإقطاع والرأسمالية.

وإتبعوا وجهة النظر المقاومة للإكليروسية، واضعين على قدم المساواة الأساقفة الرجعيين، والعلماء المناهضين للإستعمار. وأصدقاؤنا الفرنسيون صدموا بعمق بالتفكك البائن لعقلانيتنا المطعمة فوق إيديولوجية دينية مرتبطة بنسق إجتماعي قديم. فموقفنا من الإسلام مختلف لأنّنا ثوريون مرتبطون بالشعب.

وببلد مستعمَر، أين تُضطهد الدّيانة السّائدة، يعتبر رفض الإيديولوجية الإسلامية كعلامة كبرياء وتمايز منفصلة عن الشعب، مغرّبة، مندمجة أو مسلوبة بفعل الإيديولوجية التي تقدم نفسها كرشوة للعدوّ المضطهد.

والكثيرون أدانوا الإسلام دون أن يعرفوه، وشاركوا رونان (Renan) جهله الذي لم ير فيه سوى عقيدة يصفها «بأثقل سلاسل حملتها الإنسانية على الإطلاق».

غير أنّه ثمّة أصوات آخرى اليوم، تعالت لتتصفنا من العقلانية المستغرقة، وتعليم المسيحية الحاقد (لويس برتران) (Louis Bertrand) أو الكتلة المجاملة للصوفية.

وكم كانت سعادة سجين فرين (Fresnes) وهو يكتشف محاضرة صديق غريب عنه خلال ليلة القدر.

ونحن بإنتظار " المسفوف " الكسكس المحضر بالزبيب، الذّي يقدم كسحور قبل طلوع فجر اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان لعام 1381 هـ، تذوّقنا أطروحة ماكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) التي نشرت بعنوان : «الإسلام عقيدة تطوّر وعمل»، وها نحن نتبين خاتمته :

«الإسلام، في كلّ الأحوال، ليس عاملاً بسيطا ولا عاملاً متصلّبا ولا منعزلاً، وليس أقلّ قدرة من آية إيديولوجية أخرى على التكيّف، أو أن يكيّف مع متطلبات جديدة. وكلّ تاريخ العصور الوسطى دليل على هذا، فليس هو المسؤول لا عن الجمود ولا عن القساوة والتعصّب، كما لم يكن سببا في توقف التطور الإجتماعي، أو السيطرة على الفكر الحرّ، أكثر من أيّة إيديولوجية أخرى».

«والشعوب المسلمة، سواء كان ذلك بفضل الإسلام أو من دونه، قادرة على إحراز التقدّم، أو الإصابة بالتّدهور، كما يمكن أن تكون حكوماتهم كلّياتية أو تحرّرية وجماهيرية متفتحة على تيارات فكرية متعدّدة، أو متعصبة للإمتثال للعقائد القديمة أو الجديدة».

«... القضية لم تنته وليست خاسرة سلفًا، فالأمم المسلمة سوف تكون صنيعة شعوبها وأمنائها، وثمّة دور جميل يمكن أن يلعبه كلّ أولئك الذين يقدرون على توجيهها وإرشادها نحو التقدّم والحرية».

ليس الإسلام إيديولوجية كلّياتيّة فقد سمح ورضي عن تعدّديّة النزعات. والسنّة المحمدية تدخل حرية التعبير في ميدان القانون : «إختلاف الآراء رحمة».

ولقد وسعت المجادلة الإيديولوجية الحرّية، حتى مسّت الأمور المقدّسة.

وتواصل هذا حتى خلال عصور ضعف الحضارة العربية الإسلامية، حيث تواجه خلال العديد من الندوات المتكلّمون من فقهاء فيما بينهم، أرثوذوكسيون ومنشقون أومسلمون ضد المسيحيين أو اليهود، ثم المؤمنون ضد الكافرين والملحدين، فلينبهر هواة نادي " الفوبور الباريسي والجمهور العقلاني الفرنسي، وبإمكان المضادين للإكليروسية المتشبثين بالعقلانية المجردة، أن يتذوقوا السخرية التشكيكية لشاعرنا الأبدي لعام الألف أبو العلاء المعرّي :

«أفيقوا، أيها النّاس الضائعون، أفيقوا فالدّيانات التي تقدّسون ليست سوى حججًا للأقدمين الذين لم تكن لهم غاية سوى الإغتناء وقد بلغوها، ثم إختفوا ومات معهم قانون الناس الحقيرين والجشعين ...»

«ديانة، وثنية ، أعراف متوارثة، وكتاب " الفرقان " نعتمد عليه، توراة أو إنجيل!».

«لكل جيل خرافات يؤمن بها فهل كان لجيل يومًا ما الحظ في معرفة الحقيقة»

لكلّ جيل مشاكل عليه حلّها، فقد قام العالم العربيّ قديمًا بتجديد الإقتصاد العالميّ، بقلبه للقواعد الإجتماعية لروما وبيزنطة القائمة على الإستعباد، فازدهار الحضارة التجاريّة قد فسح المجال لإزدهار العلوم والفنون والعقلانية والتقدّم البشري.

ثم سمحت المنطقة الشاسعة، الكائنة بين الفرات والأطلسي، لأوروبا بأن تسبقها إلى التطوّر التقني.

يرجع المؤرخون الغربيون (الأوروبيون المستعمرون) هذا الجمود إلى الإيمان بالقضاء والقدر، وإغلاق باب الإجتهاد وتسييج النقاش الحرّ والبحث الحرّ في علم العقيدة.

إن هذه فرضية غير علميّة [علمانية] فأسباب سقوط الحضارة الإسلامية ليست راجعة للإسـلام.

أمّا التفسير الصحيح، فسنجده عند مغاربي هو أبو زيد عبد الرحمان إبن خلدون صاحب المقدّمة رائد المادية التاريخية، إذ أنّ إبن وطننا كان أوّل من بيّن لنا بأن الظواهر الإجتماعية تمتثل للقوى التي تنبثق أولا عن التطور الإقتصادي، بعيدا عن القعيدة والعرف والبلد .

«لا تتباين الشعوب بأصولها فحسب، بل كذلك بفضل بعض الأعراف والعلامات المميزة، وكلّ هذه العلامات تتغير ... بتعاقب الأجيال (ت I ص 168). فطبع الإنسان متوقف على الأعراف والعادات وليس على الطبيعة والمزاج (ت II ص 263) والإختلاف الذي نلاحظه في الأعراف، وفي مؤسسات مختلف الشعوب، يعود إلى الطريقة التي يضمن بها بقاءه. (ت II ص 254)

ولا يكمن الإختلال المعاكس بين أوروبا التي لحقت بأفريقيا وسبقتها، في التفوّق الأخلاقي، بل في تغيير النظام الإقطاعي إلى نظام رأسمالي.

وإثر فقدان المجتمع الإسلامي سيطرته على التجارة بين أسيا وأوروبا، ضعف دور التجار العرب ببطء التبادلات، وعوض التوجه نحو الصناعة، فإننا نجد التاجر الذي حرم من أسواق ما وراء البحار الكبيرة، إستثمر أرباحه في شراء الأراضي، فأدار التاجر العربي هذا ظهره للتطور الإقتصادي، ليتحوّل إلى إقطاعي، أو إلى مالك أراضي بورجوازي.

تعيد الماركسية إعتبار هذه الظاهرة الإجتماعية بنزاهة وموضوعية، فإيف لاكوست (yves la coste) يفسّره علميا : «وبالفعل لم يكن الإنتاج التجاري الذي كان ذا أهمية بالغة خلال العصور الوسطى، قادرًا على بلوغ الرأسمالية، فاليد العاملة

التي ظلت في إطارات قبليّة، كانت تفتقد إلى حريّة التحرك، وكانت عاجزة عن بيع قدرتها على العمل إلى رأسماليين محتملين».

ويقول كارل ماركس : «إن الوضعية التاريخية للرّأسمالية لا تلتقي مع تداول السّلع والنقد، فهي لا تتحقق إلاّ أين يلتقي صاحب الإنتاج والمعيشة في السّوق، بالعامل الحرّ الذي يأتي ليبيع قدرته على العمل لرأسماليين محتملين».

ولن يكون تباطؤ تطوّر الفكر الفلسفي والعلمي إلاّ نتيجة للتدهور الإقتصادي لطبقة التجار التقدميين. وإن كانت هنالك ردّة فعل دينية، فهذا يعود إلى أن " الكولاك " أي الطبقة المالكة الجديدة، في حاجة إلى التيوقراطيّة، وإلى المرتزقة الرّحل، لتحميهم من الحرفيين والفلاحين الفقراء الذين أنهكتهم الضرائب.

يقال إن معرفة الماضي تنير لنا المستقبل، فلا يمكن مقارنة الأمّة الجزائرية المنبثقة عن حرب تحريرية ثورية، مع المجتمع الإسلامي للعصور الوسطى المسيحية، ولا مع البلد الذي غزته الإمبريالية الفرنسية منذ 132 سنة.

كل شيء تغيّر بل يجب أن يتغير كلّ شيء، والواقع الإجتماعي المعاصر يجبرنا على مواكبة عصرنا. القرن العشرون للعلم والتقنية والإشتراكية، وترقية العمال الحضر منهم الريفيون، وباعتبار التأخير الكبير الذي يجب تداركه، فإننا سننطلق بمعطيات سياسية وإقتصادية وإجتماعية جديدة.

ومن أجل بناء جمهورية عصرية، علينا تجديد الدّعامة الإيديولوجية للدّولة الجزائرية، بتزويدها بميثاق ديمقراطي يسهل إنتصار العدالة الإجتماعية.

بالطبع لن تكون المهمة سهلة، فالقوى المحافظة القصيرة النظر، لن تقف دون مجابهة مفتوحة أو منافقة، لكي تحول دون التطور البشري. وقد تلجأ إلى إستخدام رموز الإسلام والأطر الدينية، لكي يستديم الجمود الشبيه بالإستعمار، وإلى عرقلة جهود الثورة الزراعية، والإبقاء على الملكيّة الخاصة لوسائل الإنتاج الكبيرة.

غير أن القوى الشعبية لن تقف متفرجة، فإبان الكفاح الثوري ضد النظام الإستعماري، فَهِمَ الجزائريون أن الإسلام وحده ليس كاف كدعامة إيديولوجية. فقد بدت العقيدة الإسلامية منذ زمن بعيد عاجزة عن تحرير البلدان الإسلامية من العبودية الأوروبية.

وبفضل محالفة العلماء المصلحين، فُسرت العقيدة بطريقة جديدة تخدم الوطنية الجزائرية، ولقد وفر الإصلاح القاعدة الإيديولوجية للوطنية الثورية، التي قضت على المرابطية التي كانت وسيلة في خدمة الإستعمار وملكية الأراضي الشبه إقطاعية.

إن هذا المظهر الدّيني لكفاحنا الوطني، لصالح حريّة الدين الإسلامي، وفصل الكنائس عن الدولة في إطار النظام الإستعماري، هو إرث إيجابيّ سيساعدنا على نصر العلمانيّة التي هي بمثابة شكل عصريّ للتسامح الإسلامي.

وعدم توافق الإسلام مع الشيوعية، صورة خاطئة لنظرية تحت الماركسية (Sous Marxiste)، فتعايش الإثنين يعكس واقعا إقتصاديا وإجتماعيا، ويعبر عن نوع من تصارع القوى داخل البلدان غير المتطورة [بلدان العالم الثالث]. إن العقلية العصرانية تسرع للتحضير لجنازة كل الديانات، غير أنها لم تفهم بأن الإيديولوجية الإسلامية ليست محتضرة بل ديناميكية.

يفرض الوعي السياسي، والنجاعة الثورية، إستقاء القيم الروحية التي قد تغذي نهضتنا في الحياة الصناعية المتقدمة. «فمن السهل عامة إثارة تعديل أساسي لأي نظام إجتماعي، بالعمل في داخل إطار رموزه بدل معارضتها».

ولقد تحقق هذا عندما سجل الشعب الجزائريّ حربه التحريرية الوطنية القاسية كما لو أنها «فصل فذّ لتحرر الشعوب».

وعندما سيستبدل جهادنا المسلّح ضد مضطهد الوطن، بجهاد سياسيّ ضد مستغل الشعب، نكون قد أدركنا حقيقة الغد.

سوف نجد بأن مفردة " جهاد " تعني في المصطلحات العقائدية الأوروبية «الحرب المقدّسة» أي التعصّب المتزمت البربري.

خلال محاكمة القسّ روبير دافازي (Rober Davezies)، كان قرار الإتهام المقدم من طرف الكولونيل قائمًا على معارضة حضارة الصليب اللاتيني للهلال، فكان الرّاهب متهمًا بمساعدة جبهة التحرير الوطني، وهي حركة كارهة للأجانب، وعنصرية. كتبت جريدة " العالم " (Le Monde) في جانفي 1962 عن القضية فتقرأ : «وماذا سنجد إن نظرنا ؟ الحرب المقدّسة، ليس صدفة أن يُدعى الناطق الرّسمي لجبهة التحرير الوطني " المجاهد "».

إن هذا النقاش بيزنطي، فسوء التفاهم القديم يعود إلى تحريف معنى كلمة " جهاد " إلى كفاح وقتال وجهد جماعيّ، وفي إصطلاح عربيّ حديث، يترجم شارل بيلات (Charles Pellat) الجهاد بالحرب المقدسة، بينما المجاهد بالمناضل، لكنّ الباحث الإسلامي التركي حميد الله أكثر دقة : «إنّ الحرب المقدسة التي كثيرا ما نقرأ عنها في المؤلفات الأوربية عن الإسلام، ليست إلاّ ترجمة مخطئة لكلمة الجهاد، إذ أن هذه الكلمة لا تعني إلاّ الجهد الجماعي " غير المتعلّق لا بالحرب، ولا بالقتل، وأقلّ من ذلك القدسيّة»

«... فإجبار أي كان لاعتناق الإسلام ممنوع، واللجوء إلى الحرب للإكراه على إعتناق الإسلام، ممنوع منعا باتا». وحتى الصيغة القرآنية لكلمة الجهاد في الوقت نفسه، هي الحماية العسكرية، وعمل البرّ بما في ذلك جهاد النفس. ويقول عزّ وجل في سورة الأنفال : «الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله».

وفي حديث نبوي نقرأ «حتى باللسان» و «بأي جهد آخر»، فالجهاد أو الكفاح له إذًا معنى أوسع وأنبل.

وهو ما كان يستخدمه الرسول (ص) لتبيان فضائل التجارة النشاط الرئيسي لذلك العصر. حيث تذكر الموسوعة الإسلامية «فإن كسبت بوجه حق مما تسمح به (التجارة)، فإن فعلك هذا إنما هو من الجهاد، وإذا استخدمتها لصالح أهلك وذويك، فهو فعل خير، وفي الحقيقة، أفضل لك أن تكسب درهمًا حلالاً من التجارة من أن تكسب عشرة دراهم من نشاط آخر».

ولقد سقط اليوم مشعل التقدم الإجتماعي من أيادي البورجوازية التجارية أوالرأسمالية، وإلى الشعب نفسه يعود شرف تقرير مصير الحرية والديمقراطية والنمو.

أيها المجاهدون والمجاهدات، الفدائيون والفدائيات، المسبلون والمسبلات، المقاتلون والمقاتلات، إن معركة جديدة سلمية وعظيمة بانتظاركم في جزائر حرة.

فبعد وقف إطلاق النّار، يجب متابعة القتال للقضاء على O.A.S منظمة الجيش السري وآثار الإستعمار، إنه الكفاح من أجل الأخوّة الوطنية. فهذا هو الجهاد لاستكمال الثورة الجزائرية من أجل إنتصار الديمقراطية الوطنية وبلوغ العدالة الإجتماعية.

فيا أيها الشعب الجزائري الكريم لتظل متيقظا...

فشعوب إفريقيا وآسيا والعالم بأسره، الذين أعجبوا بك إبان الحرب، هم الآن ينتظرون بأمل كبير نجاحاتك في السّلم. فلن تكون «قطيعًا من الماشية» حسب الصّورة المرّة التي رسمها كاتب أمريكي، حين فضح الطريقة التي يخدع بها المسيرون مواطني الديمقراطية الكبيرة لما خلف الأطلسي، وفي تخلّينا عن إنتقاد الأسلحة، للعودة إلى أسلحة الإنتقاد، لن ننسى وصية الرّسول عليه الصلاة والسلا: «أفضل جهاد، هو كلمة حق عند سلطان جائر».

الفهرس

الأكاديمية الجزائرية للوثائق و المصادر التاريخية.

أنجز هذا الكتاب من طرف
دار القصبة للنشر
حي سعيد حمدين - حيدرة - 16012، الجزائر
الهاتف : 10 79 54 / 11 79 54 021 الفاكس: 77 72 54 021
موقع الإنترنت : www.casbaheditions.net
البريد الإلكتروني: casbah@casbaheditions.net
الجزائر، 2005

عمار أوزقان: من مواليد 7 مارس 1910 بالجزائر. زاول تعليمه بالمدرسة القرآنية بين الخامسة والسادسة من عمره، ليلتحق بالمدرسة الابتدائية فيما بعد. دخل الحياة المهنية في سن الثالثة عشر بالبريد والمواصلات. انخرط في *«الشباب الشيوعي» سنة 1930. واصبح في 1945 اول نائب جزائري مسلم،* حيث كان آنذاك، الأمين الأول للحزب الشيوعي الجزائري في 1948، تمّ طرده من هذا الحزب بحجة الزيغ والانحراف عن خط الحزب لفائدة التوجه الوطني. هو من محرري وثيقة الصومام في 1956. تلقد عدة مناصب وزارية بعد الاستقلال، ليعتزل النشاط السياسي بعد 19 جوان 1965. توفي في 5 مارس 1981.

«..أيها المجاهدون والمجاهدات، الفدائيون والفدائيات، المسبلون والمسبلات، المقاتلون والمقاتلات، إن معركة جديدة سلمية وعظيمة بانتظاركم في جزائر حرة.

فبعد وقف اطلاق النّار، يجب متابعة القتال للقضاء على O.A.S منظمة الجيش السري وآثار الإستعمار. إنه الكفاح من أجل الأخوّة الوطنية. فهذا هو الجهاد لاستكمال الثورة الجزائرية من أجل إنتصار الديمقراطية الوطنية وبلوغ العدالة الاجتماعية.

فيا أيها الشعب الجزائري الكريم لتظل متيقظا...

فشعوب إفريقيا وآسيا والعالم بأسره، الذين أعجبوا بك إبان الحرب، هم الآن ينتظرون بأمل كبير نجاحاتك في السّلم. فلن تكون «قطيعًا من الماشية» حسب الصّورة المرّة التي رسمها كاتب أمريكي، حين فضح الطريقة التي يخدع بها المسيرون مواطني الديمقراطية الكبيرة لما خلف الأطلسي، وفي تخلّينا عن إنتقاد الأسلحة، للعودة إلى أسلحة الإنتقاد. لن ننسى وصية الرّسول عليه الصلاة والسلام:

«أفضل جهاد، هو كلمة حق عند سلطان جائر».

دار القصبة للنشر

تدمك : 6 - 531 - 64 - 9961

عمار أوزقان : من مواليد 7 مارس 1910 بالجزائر. زاول تعليمه بالمدرسة القرآنية بين الخامسة والسادسة من عمره، ليلتحق بالمدرسة الابتدائية فيما بعد. دخل الحياة المهنية في سن الثالثة عشر بالبريد والمواصلات. انخرط في «الشباب الشيوعي» سنة 1930. وأصبح في 1945 أول نائب جزائري مسلم، حيث كان آنذاك، الأمين الأول للحزب الشيوعي الجزائري في 1948، تمّ طرده من هذا الحزب بحجة الزيغ والانحراف عن خط الحزب لفائدة التوجه الوطني. هو من محرري وثيقة الصومام في 1956، تلقد عدة مناصب وزارية بعد الاستقلال، ليعتزل النشاط السياسي بعد 19 جوان 1965. توفي في 5 مارس 1981.

«..أيها المجاهدون والمجاهدات، الفدائيون والفدائيات، المسبلون والمسبلات، المقاتلون والمقاتلات، إن معركة جديدة سلمية وعظيمة بانتظاركم في جزائر حرة.

فبعد وقف إطلاق النّار، يجب متابعة القتال للقضاء على O.A.S منظمة الجيش السري وآثار الإستعمار. إنه الكفاح من أجل الأخوّة الوطنية. فهذا هو الجهاد لاستكمال الثورة الجزائرية من أجل إنتصار الديمقراطية الوطنية وبلوغ العدالة الاجتماعية.

فيا أيها الشعب الجزائري الكريم لتظل متيقظا...

فشعوب إفريقيا وآسيا والعالم بأسره، الذين أعجبوا بك إبان الحرب، هم الآن ينتظرون بأمل كبير نجاحاتك في السّلم. فلن تكون «قطيعًا من الماشية» حسب الصّورة المرّة التي رسمها كاتب أمريكي، حين فضح الطريقة التي يخدع بها المسيرون مواطني الديمقراطية الكبيرة لما خلف الأطلسي، وفي تخلّينا عن إنتقاد الأسلحة، للعودة إلى أسلحة الإنتقاد، لن ننسى وصية الرّسول عليه الصلاة والسلام:

«أفضل جهاد، هو كلمة حق عند سلطان جائر».

دار القصبة للنشر

تدمك : 6 - 531 - 64 - 9961